القرآن والتفسير

جمال شاهين

كلمة قرآنيةذات معان

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٤

ط ن/١

منشورات المكتبة الخاصة

١٤٤٦/ ٢٠٢٤

جمال شاهين

كلمة قرآنية ذات معان

جمال شاهين

ق/ ١

كلمة قرآنية

ذات معانٍ

الصلاة

لم يأت دين من الأديان إلا وكانت الصلاة عموده الأكبر بعد التوحيد، فلم يخل دين من تلك العبادة على اختلاف صورها وأشكالها في كل ديانة.

الصلاة خطاب الأنبياء

* فها هو إبراهيم – عليه السلام –لما ذهب بإسماعيل –عليه السلام – إلى الحجاز دعا ربه فقال : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم]

* وحكى الله ﷻ دعاء إبراهيم حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) ﴾ [إبراهيم]

* ونوه–جل وعلا– بشأن إسماعيل –عليه السلام– فقال سبحانه :﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم]

* ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء]

* وقال سبحانه مخاطبا موسى –عليه السلام –﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه]

* وقال تعالى في حق موسى وأخيه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

* وقد أخذ الله ميثاقا على بني إسرائيل فجعل إقامة الصلاة من أهم مواده ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ ٢

* وقال تعالى ﷻ في حق يونس –عليه السلام ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات] *قال ابن عباس –رضي الله عنهما-:* ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾: أي من المصلين.

* وفي شأن شعيب– لما نهى قومه عن التطفيف في الكيل والوزن : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾

* وفي قصة زكريا ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾ [آل عمران]

* وفي حكاية مريم–عليها السلام–حيث نادت الملائكة عليها وقالت: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [آل عمران]

* وقال عيسى –عليه السلام–محدثاً بنعمة ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)﴾

* وفي شأن نبينا ﷺ قال له رب العزة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) ﴾ [طه]

*وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي ﷺ قال: " إنا مَعشرَ الأنبياء أُمِرْنَا أن نعجِّل إفطارنا، ونؤخر سحورنا ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة". ص ج

* وعند الطبراني من حديث أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ": ثلاث من أخلاق النبوة : تعجيل الإفطار، وتأخير السحور، ووضع اليمين على الشمال في الصلاة" ص ج

* وهكذا حال الأنبياء منذ نوح إلى نبينا ﷺ، وقد قال الله تعالى حاكيا عنهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾ [مريم]

* فأخبر سبحانه عن جميع الأنبياء أن مفزعهم كان إلى الصلاة يعبدون الله ويتقربون إليه ثم قال

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾

* وفي مسند أحمد عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَهُ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا "

❁وفي بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز كتب عن معنى مفردة الصلاة في القرآن والشريعة : والصَّلاة: الدّعاء والرحمة والاستغفار، وحُسن الثناءِ من الله تعالى على رسوله، وعبادةٌ فيها ركوع وسجود، وقال ﷺ: "إذا دُعِي أَحدكم إلى طعام فليُجب، فإن كان صائما فليصلّ لأَهله". وصلاة الله للمسلمين هي في التَّحقيق تزكيته لهم، وهي من الملائكة والنَّاس: الدّعاءُ والاستغفار. وسمّيت العبادة المعروفة صلاة كتسمية الشيء ببعض ما يتضمنّه ، والصّلاة من العبادات الَّتي لم تنفكُ شريعةٌ منها، وإن اختلفت صُوَرها بحسب شرعٍ وشرْعٍ، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الصلاة كَانَتْ عَلَى المؤمنين كِتَاباً مَّوْقُوتاً} .

❁ وقال بعضهم: أَصل الصّلاة من الصَلي. ومعنى صلَّى الرّجل أَزال عن نفسه بهذه العبادة الصَلَى الذى هو نار الله الموقدة. ويسمّى موضع العبادة الصّلاة، ولذلك سمّيت الكنائس صَلَوات. قال تعالى: {لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ} .

وكل موضع مدح الله تعالى بفعل الصّلاة أَو حثَّ عليها ذُكر بلفظ الإِقامة، نحو قوله تعالى: {والمقيمين الصلاة} ، {وَأَقِيمُواْ الصلاة} . ولم يقل المصلِّين إِلاّ المنافقين، نحو قوله: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذين هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} وقوله: {وَلَا يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى} . وإِنَّما خصّ لفظ الإِقامة تنبيهًا أَنَّ المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإِتيان بهيآتها فقط، ولهذا رُوى أَنَّ المصلِّين كثير، والمقيمين لها قليل

موارد الصلاة في القرآن

❁ وقد وردت الصلاة في القرآن على ثلاثة عشر وجها:

١ – بمعنى الدّعاءِ: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم}

٢ – بمعنى الاستغفار: {يا أيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ} .

٣– بمعنى الرّحمة: {هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ} .

٤ – بمعنى صلاة الخوف: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاة} .

٥ – بمعنى صلاة الجنازة: {وَلَا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً} .

٦ – بمعنى صلاة العيد: {وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى} . ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾

٧– بمعنى صلاة الجمعة: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة} .

٨– بمعنى صلاة الجماعة: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة اتخذوها هُزُواً} .

٩ – بمعنى صلاة السَّفَر: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة}

١٠ – بمعنى صلاة الأُمم الماضية: {وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة} .

١١ – بمعنى كنائس اليهود: {وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ} .

١٢ – بمعنى الصلوات الخمس: {وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة} .

١٣ – بمعنى الإِسلام: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صلى} ، أَي لا أَسلم.

❋ وقد ذكر الله تعالى الصّلاة في مائة آية من القرآن العظيم. وفى كل آية إِمّا وَعَد المصلِّين بالكرامة، أَو أَوعد التَّاركين لها بالعقوبة والملامة. أَوّلها: {يُؤْمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة} ، وآخرها: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر}

❋ {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ البيت إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً} ، سمّى صلاتهم مُكاءَ وتصدية تنبيهًا على إِبطال صلاتهم، وأَن لا اعتداد بفعلهم ذلك، بل هم كطيور تَمْكُو وتُصَدِّى .

احاديث عن عظم الصلاة

* عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ

إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ " ق

* عنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. قَالَ: " بَخٍ، لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ تُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَلْقَى اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ: فَالْإِسْلَامُ، فَمَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ، وَأَمَّا عَمُودُهُ: فَالصَّلَاةُ، وَأَمَّا ذُرْوَةُ سَنَامِهِ: فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ. حم

* عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَتَمَّهَا كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَمَّهَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتُكْمِلُوا بِهَا فَرِيضَتَهُ؟ ثُمَّ الزَّكَاةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ "حم

* عن عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي إِلَى صِهْرٍ لَنَا مِنْ أَسْلَمَ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ الصَّلَاة. طب

* عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى» د

* عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَام، قَالَ: كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»

ارتباط الصلاة بكافة مراتب الدين الثلاثة

أولا : مرتبة الإسلام : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ(٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾(البينة)

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ القلم

قال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨) } [المدثر]

ثانيا : ارتباط الصلاة بالإيمان :قال تعالى ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) ﴾ [إبراهيم]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ(٥٦) ﴾ (المائدة

وقال تعالى ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾[الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون (٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون (٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون (٥) }[البقرة]

وقال تعالى﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة: ١٧٧]

* وبوب الإمام البخاري رحمه الله – باب بعنوان : قول الله تعالى : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: 31]

قال ابن بطال : قرن الله التقى ونفى الإشراك به تعالى بإقامة الصلاة ، فهي أعظم دعائم الإسلام بعد التوحيد ، وأقرب الوسائل إلى الله تعالى، ومفهوم هذه الآية يدل أنه من لم يقم الصلاة فهو مشرك، ولذلك قال عمر : ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة .

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا مِنْ هَذَا الحَيِّ مِنْ رَبِيعَةَ وَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، فَمُرْنَا بِشَيْءٍ نَأْخُذْهُ عَنْكَ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، فَقَالَ: " آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ الإِيمَانِ بِاللهِّ، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِّ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا إِلَيَّ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ، وَأَنْهَى عَنْ: الدُّبَّاءِ وَالحَنْتَمِ وَالْمُقَيَّرِ وَالنَّقِيرِ " خ

ثالثا : ارتباط الصلاة بمرتبة الإحسان : لقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَّ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ هود

ولقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ (الأعراف)

ولقوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَّ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

الصلاة امتثال لأمر الله – عز وجل

إن العبد عندما يصلي فهو يمتثل أمر الخالق –سبحانه وتعالى– الذي أمر بإقامة الصلاة.

* فقد قال تعالى {قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ} (إبراهيم ٣١)

* وقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (البينة ٥)

* قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ٤٣﴾ البقرة

* وقال تعالى :﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ٢٣٨﴾ البقرة

ذكر الصلاة في القرآن

الصلاة توأم الفرائض والأركان: فإن الصلاة أكثر العبادات ذكراً في القرآن الكريم:

* فتارةً تخص بالذكر كما في قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ} هود

* وتارة تقرن بالصبر كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} البقرة

* وتارة تقرن بالزكاة كما في قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} (البقرة)

* وتارة تقرن بالجهاد كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} الحج

* وتارة تقرن بفعل الخيرات في قوله تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ} الأنبياء

* وتارة تقرن بالذبح كما في قوله تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} (الكوثر) وقال تعالى في الانعام : {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

الصلاة إيمان

سمى الله ﷻ الصلاة إيمانا فقال تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} (البقرة ١٤٣) يعني صلاتكم عند البيت

وقال تعالى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ} (القيامة) أي فلا هو صدق رسول الله فآمن به، ولا صلى

ومثله {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} (الأنعام:٩٢)

فإذا أراد العبد أن يتقرب إلى الله ليحوز هذه المعية فعليه بالصلاة قال تعالى {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب}

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء".

الصلاة هي القاسم المشترك بين عبودية الكائنات

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ

وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عليم بِمَا يَفْعَلُونَ} (النور)

والملائكة يصلون، فقد قال تعالى {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ}

* فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي – وفي رواية ثم يصلي ركعتين – ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (صحيح الترغيب والترهيب)

الصلاة ملجأ المؤمن في الأزمات

إن الصلاة معقل المسلم وملجؤه الذي يأوي إليه، والعروة الوثقى التي يعتصم بها، والحبل الممدود بينه وبين ربه الذي يتعلق به، وهي غذاء الروح، وبلسم الجروح، ودواء النفوس، وإغاثة الملهوف، وأمان الخائف، وقوة الضعيف، وسلاح الأعزل.

قال تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)} (البقرة)

قال ابن كثير – رحمه الله – في "تفسيره عند هذه الآية": استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة"، وقال أيضا – رحمه الله: – " إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر"

وقال تعالى مخاطبا خليله محمدا ﷺ {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)} (الحجر) فأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يفزع إلى الصلاة والذكر إذا ضاق صدره بما يقوله أعداء الدين، فإن في ذلك شرحاً للصدر وتفريجاً للكربة. ، وهكذا كان هديه ﷺ فقد كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

الصلاة من أسباب النصر

* وقد أخرج النسائي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال: " إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفيها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم". صح

* وقال تعالى: {وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ} المائدة

فإذا فتح الله عليهم يكون أعظم ما يقدمونه إقامة الصلاة في الناس قال تعالى: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} الحج

الصلاة سبب وسبيل لدخول الجنة

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)} المعارج

وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. (إلى قوله): وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)} (المؤمنون)

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عليهم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عليكم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار (٢٤)} (الرعد)

الصلاة سبب لرفع الدرجات

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عليهمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)} (الأنفال)

خمسون صلاة

❁ قَالَ: " فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ، خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَاكَ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى لَقَدِ اسْتَحَيْتُ "حم

ذكر

كتب كاتب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز عن الذكر ومشتقاته فقال:

موارد الذكر

❁ وقال بعضهم: ذَكر اللهُ الذِّكر في القرآن على عشرين وجهًا:

الأَوّل: ذِكْر اللِّسان {فاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ} .

الثاني: ذِكْر بالقلب {ذَكَرُواْ الله فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ} .

الثَّالث: بمعنى الوعظ {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين} {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى} .

الرّابع: بمعنى التوراة {فاسألوا أَهْلَ الذكر} .

الخامس: بمعنى القرآن {وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ} .

السّادس: بمعنى اللَّوح المحفوظ {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر} .

السَّابع: بمعنى رسالة الرّسول {أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ} أَي رسالة.

الثَّامن: بمعنى العِبْرة {أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً} أَي العِبَر.

التَّاسع: بمعنى الخَبَر {هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي} .

العاشر: بمعنى الرّسول {قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً} .

الحادي عشر: بمعنى الشَّرف {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} أَي شرف.

الثاني عشر: بمعنى التَّوبة {ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ} .

الثالث عشر: بمعنى الصَّلوات الخمس {فاذكروا الله كَمَا عَلَّمَكُم} .

الرابع عشر: بمعنى صلاة العصر خاصّة {أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي} .

الخامس عشر: بمعنى صلاة الجمعة {فاسعوا إلى ذِكْرِ الله} .

السّادس عشر: بمعنى العُذْر من التَّقصير {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة فاذكروا الله} .

السَّابع عشر: بمعنى الشَّفاعة {اذكرني عِندَ رَبِّكَ} .

الثامن عشر: بمعنى التَّوحيد {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ} .

التَّاسع عشر: بمعنى ذكر المنَّة {اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ} ، {اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} .

العشرون: بمعنى الطَّاعة والخِدمة {فاذكروني أَذْكُرْكُمْ} أَي اذكروني بالطَّاعة أَذكركم بالجنَّة.

الذكر والأنثى

❁ والذَّكَرُ: خلاف الأُنثى، وجمعه ذكور وذُكْرَان، قال تعالى: {وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى} أَي ومَنْ خلق، وقال: {خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى} أَي آدم وحَوَّاء. وقال: {يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور} وقال: {خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى} . وقال بمعنى التَّوأَمين {فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى} . وبمعنى مَرْيم البتُول: {وَلَيْسَ الذكر كالأنثى} وقال تعالى: {أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى} وقال: {أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين} وقال: {قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين} وقال {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين} وقال: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى}

بصيرة في الذكر

❁ قال الله تعالى: {ص والقرآن ذِي الذكر} أَي ذُكر فيه قصص الأَوّلين والآخرين. وقيل: ذي الشَّرف. وقوله تعالى: {فِيهِ ذِكْرُكُمْ} أَي شرفكم وما تُذكرونَ به. وكذلك كقوله عزَّ وجلَّ: {بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ} أَي بما فيه شرفُهم.

* والذِّكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن الإِنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إِلاَّ أَنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإِحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتباراً باستحضاره. وتارة يقال لحضور الشيءِ القلب أَو القولَ، ولِهذَا قيل: الذِّكر ذِكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان، وكلُّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان، بل عن إِدامة الحفْظ. وكلُّ قول يقال له ذِكْر.

* فمن الذِّكْرِ باللِّسان قوله: {أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا} أَي القرآن، وقوله: {فاسئلوا أَهْلَ الذكر} أَي الكتبِ المتقدّمة.

❁ وقوله: {قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً} فقد قيل: الذِّكْرُ هنا وصف للنبي ﷺ، كما أَنَّ الكلمة وصف لعيسى عليه السّلام من حيث إنَّه بشِّر به في الكتب المتقدِّمة، فيكون قولُهُ (رَسُولاً) بدلاً منه. وقيل: (رسولاً) منتصب بقوله (ذكرًا)، كأنَّه قيل: قد أنزلنا كتابًا ذاكرًا ورسولاً يتلو.

* ومن الذكر عن النِّسيان قوله تعالى: {وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ}.

* ومن الذِّكر بالقول واللِّسان قوله: {فاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ} وقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر} أَي من بعد الكتاب المتقدّم.

* وقوله: {لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً} أَي موجودًا بذاته وإِن كان موجودًا في علم الله. وقوله تعالى: {أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ} أَي أَوَلا يذكر الجاحد للبعث أَوَّل خلقه، فيستدِلّ بذلك على إِعادته؟!

❁ وقوله: {وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ} أَي ذكر الله لعبده أَكبر من ذكر العبد له، وذلك حَثٌّ على الإِكثار من ذِكره. وقيل: إِن ذكر الله إِذا ذكره العبدُ خير للعبد من ذكر العبد للعبد. وقيل: معناه أَنَّ ذكر الله ينهى عن الفحشاءِ والمنكر أَكثرَ ممَّا تَنْهَى الصلاة.

❁ وقوله تعالى: {أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} يريد: يَعيب آلهتكم. كذلك قوله: {فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} من قولك للرّجل: لئن ذكرتني لتندمنَّ، وأَنت تريد: بسوءٍ، فيجوز ذلك.

* وقوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ} معناهُ: ذكر ربك عبده برحمته. وقوله تعالى: {أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً} أَي تذكُّرًا. وقوله تعالى: {لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين} أَي لو جاءَنا ذكر كما جاءَ غيرنا من الأَوّلين.

* وقوله تعالى: {خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واذكروا مَا فِيهِ} أَي ادرُسوا ما فيه.

* وقوله: {واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ} أَي احفظوها ولا تضيِّعوا شُكرها، كما يقول العربيُّ لصاحبه: اذكر حَقيِّ عليك، أَي احفظه ولا تضيّعه.

* وتقول: ذكرته ذِكْرَى غير مجراة. وقوله تعالى: {وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ} الذِّكرى اسم أُقيم مُقام التذكير، كما تقول: اتَّقيت تَقْوى، ومنه قوله تعالى: {وذكرى لأُوْلِي الألباب} أَي وعبرة لهم.

❁ وقوله عزَّ وجلَّ: {ذِكْرَى الدار} أَي يُذكَّرُون بالدار الآخرة ويزَهَّدون في الدنيا. ويجوز أَن يكون المعنى: يكثرون ذكر الآخرة.

❁ وقوله تعالى: {فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} يقول: فكيف لهم إِذا جاءَتهم السَّاعةُ بذكراهم. وقوله تعالى: {يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى} أَي يَتُوب ومن أَين له التَّوبة.

* والتذكِرة: ما يُتذَكَّرُ به الشيءُ، وهو أَعمّ من الدَّلالة والأَمارة. وقوله: {فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى} قيل معناه: تعيد ذكره، وقيل: تجعلها ذَكَرًا في الحكم.

❁ وقال بعض العلماءِ في الفرق بين قوله تعالى: {فاذكروني أَذْكُرْكُمْ} وبين {اذكروا نِعْمَتِيَ} أَنَّ قوله (اذكروني) مخاطبة أَصحاب النبيِّ ﷺالَّذين حصل لهم فضلُ قوَّة بمعرفته تعالى، فأَمرهم بأَن يذكروه من غير واسطة، وقوله {اذكروا نِعْمَتِيَ} مخاطبة لبنى إِسرائيل الَّذين لم يعرفوا الله إِلا بالآية، فأَمرهم أَن يتصوّروا نعمته فيتوَصَّلوا بها إِلى معرفته تعالى.

* والتذكير: الوعظ، قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ} ، وفي الحديث: "إِنَّ القرآن ذَكَرٌ فذكِّرُوه"، أَي جليل نَبِيه خطير فأَجِلُّوه، واعرفوا له ذلك وصِفُوه به. قالوا: رجل ذَكَرٌ للشهم الماضي في الأُمور.

مميزات الذكر

الذكر يتميز عن غيره من العبادات بأمور منها:

١ – أن الله تعالى جعل الذكر باللسان. ٢ – الذكر هو العبادة الوحيدة التي لا تنقطع في الجنة.

٣– الذكر له لذة لا يشبهها شيء من العبادات. ٤ – الذكر ليس له وقت محدد، ولا هيئة معينة، ولا مكان مخصوص. ٥– ولا يحتاج لطهارة من الحدثين الأصغر والأكبر

فضل الذكر في القرآن الكريم

١ – الله تعالى يذكر من ذكره. ٢ – ذكر الله أكبر وأعظم الطاعات وأجل العبادات.

٣– الذاكرين لله هم أقرب الناس توبة إلى الله ورجوعاً إليه عند مواقعة الذنب.

٤ – ولفضل الذكر وعظيم أجره أمرنا الله تعالى أن نكثر منه.

٥ – كثرة الذكر سبيل للفلاح في الدنيا والآخرة. ٦ – كثرة الذكر سبب للمغفرة والأجر العظيم.

٧– جعل الله الذكر قرين جميع الأعمال وروحها.

٨– جعل الله الذكر خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها. ٩ – الذكر راحة وطمأنينة للقلب.

تحذير رب العالمين من الغفلة عن ذكره

١ – نهانا وحذرنا من الغفلة عن ذكره تعالى ٢ – الخسران كل الخسران في البعد عن ذكر الرحمن ٣– المعرض عن ذكر الله توعده الله بالويل.٤ – المعرض عن ذكر الله يقيض الله له شيطاناً فهو له قرين. ٥ – المعرض عن ذكر الله معيشته ضنك.

فضل الذكر من السنة المباركة

١ – الذكر وصية النبي ﷺ. ٢ –الذكر من أحب وأفضل الأعمال إلى الله تعالى.

٣– الذكر يجعل الإنسان في معية الرحمن.٤ – الذكر سبب لمحبة الله تعالى.

٥ – ذكر الله هو أفضل الأعمال عند الله وأزكاها، وخير من كثير من أعمال البر.

٦ – الذكر خير ما يكنز الإنسان. ٧– أهل الذكر تَحُفهمُ الملائكة وتَغْشاهُم الرَّحْمة وتتنزلُ عليهم السكينة. ٨– جميع الأعمال إنما شُرعت لإقامة ذكر الله.٩– الذكر عبادة الكائنات.

١٠ – الله تعالى يصلي هو وملائكته على أهل الذكر.١١ – الذكر سبب لراحة البال وطمأنينة القلب. ١٢ – بالذكر تُفتح أبواب السماء.١٣ – الذكر سبب لإجابة الدعاء.

١٤ – الملائكة تتنافس على رفع الذكر.١٥ – كثرة الذكر أمانٌ من النفاق.

١٦ – الذكر أمانٌ من اللعن.١٧ – الذكر أفضل من الدعاء.

١٨ – الذكر يزيل الهم والغم، ويجلب للقلب الفرح والسرور.

١٩ – الذكر مفرج للكرب والهم. ٢٠ – الذكر حياة للقلوب والأبدان.

٢١ – الذكر يعطي قوة للذاكر في بدنه. ٢٢ – الذكر يورث جلاء القلب من صداه.

٢٣ – الذكر شفاءٌ لقسوة القلب. ٢٤ – الذكر يحفظ على الإنسان جوارحه.

٢٥ – الذكر أفضل من عتق الرقاب. ٢٦ – الذكر سبب لاشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش وغير ذلك من آفات اللسان.

٢٧ – إذا صلى الرجل هو وأهله في جوف الليل كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

٢٨ – دوام ذكر الله تعالى يوجب الأمان من نسيانه. ٢٩ – لا يخيب الذاكر مع الذكر.

٣٠– الذكر ينوب عن الطاعات ويقوم مقامها. ٣١– الذكر يطرد الشيطان.

٣٢– الله يعطي على الذكر ما لا يعطي على غيره. ٣٣– الذكر يجمع للعبد دنياه وآخرته.

٣٤– أهل الذكر هم أهل الكرم. ٣٥– أهل الذكر يباهي الله بهم الملائكة.

٣٦– الذكر يجعل صاحبه له السبق في الدنيا والآخرة. ٣٧– الذكر يغفر الله به الذنوب.

٣٨– الذكر يكتب الله به الحسنات. ٣٩– الذكر سبب للنجاة من عذاب الله.

٤٠ – الذكر أمانٌ من الحسرةِ يوم القيامة. ٤١ – الذكر يُثَقِّل الموازين.

٤٢ – أهل الذكر في ظل عرش الرحمن. ٤٣ – الذكر سبيل للفوز بالجنة.

٤٤– الذكر غِراسُ الجنة. ٤٥ – أهل الذكر لهم مكانة عند الله يغبطهم عليها النبيون والشهداء.

ابن القيم وفوائد الذكر

وقد ذكر ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "الوابل الصيب من الكلم الطيب" فوائد كثيرة لذكر الله:

إحداها: أنه يَطردُ الشيطانَ ويَقْمعُه ويكسِرُه. الثانية: أنه يُرضي الرحمنَ عز وجل.

الثالثة: أنه يُزيلُ الهمَّ والغمَّ عن القلب. الرابعة: أنه يجلبُ للقلب الفرحَ والسرور.

الخامسة: أنه يُقوِّي القلبَ والبدن. السادسة: أنه ينوِّرُ الوجهَ والقلب.

السابعة: أنه يجلبُ الرزقَ. الثامنة: أنه يكسو الذاكرَ المهابةَ والحلاوةَ والنضرة.

التاسعة: أنه يورِّثه المحبةَ التي هي قُطبُ رَحى الإسلام.

العاشرة: أنه يورثه المراقبة، حتى يُدخِلَه في باب الإحسان.

الحادية عشرة: أنه يورِّثُه الإنابةَ، وهي الرجوعُ إلى الله عز وجل.

الثانية عشرة: أنه يورِّثه القُربَ منه، فعَلَىَ قَدْرِ ذِكره لله يكونُ قُربُه منه.

الثالثة عشرة: أنه يَفتحُ له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يورِّثُه الهيبةَ لربه ﷻ وإجلالَه.

الخامسة عشرة: أن يورِّثه ذِكرَ الله تعالى له، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا.

السادسة عشرة: أنه يورِّثُ حياةَ القلب. *قال شيخ الإسلام ابن تيمية:* " الذكرُ للقلب مِثلُ الماءِ للسمك، فكيف يكون حالُ السمك إذا فارق الماءَ؟ ".

السابعة عشرة: أنه قوتُ القلب والروح، فإذا فَقَده العبدُ؛ صار بمنزلة الجسم إذا حِيل بينه وبين قُوتِه.

* كان شيخ الإسلام ابن تيمية يُصلِّي الفجر، ثم يجلسُ يَذكُر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم يلتفتُ إلى شيخ الإسلام ابن القيم قائلا: " هذه غدوتي، لو لم أتغدَّ الغداء؛ سقطت قوتي ".

الثامنة عشرة: أنه يورِّث جِلاءَ القلبِ من صداه.

التاسعة عشرة: أنه يَحُطُّ الخطايا ويُذهبُها، فإنه من أعظم الحسنات.

العشرون: أنه يُزيل الوحشةَ بين العبد وبين ربه.

الحادية والعشرون: أن ما يَذكرُ به العبدُ ربَّه من جلاله وتسبيحه، وتحميده يَذكُر بصاحبه عند الشدة.

الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرَّف إلى الله تعالى بذكره في الرَّخَاءِ، عَرِفَهُ في الشِّدة.

الثالثة والعشرون: أنه يُنجِي من عذاب الله تعالى.

الرابعة والعشرون: أنه سببُ تنزيلِ السكينة، وغَشَيانِ الرحمة، وحفوف الملائكة.

الخامسة والعشرون: أنه سببُ اشتغالِ اللسان عن الغِيبة والنميمة، والكذب، والفحش، والباطل.

السادسة والعشرون: أن مجالسَ الذكرِ مجالسُ الملائكة، ومجالسَ الغفلة مجالسُ الشياطين فليتخيَّرِ العبدُ أعجبَهما إليه، وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

السابعة والعشرون: أنه يُسعِدُ الذاكرَ بذكره، ويَسعَدُ به جليسُه، وهذا هو "المبارَك" أينما كان.

الثامنة والعشرون: أنه يُؤمِّنُ العبدَ من الحَسْرَة يوم القِيامة.

التاسعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخَلوة سببٌ لإظلالِ الله تعالى العبد يوم الحرِّ الأكبر في ظل عرشه.

الثلاثون: أن الاشتغال به سببٌ لعطاءِ الله للذاكرِ أفضلَ ما يُعطي السائلين.

الحادية والثلاثون: أنه أَيسرُ العبادات، وهو من أجلها وأفضلها.

الثانية والثلاثون: أنه غِراس الجنة.

الثالثة والثلاثون: أنَّ العطاء والفضل الذي رُتِّب عليه لم يُرتَّبْ على غيره من الأعمال.

الرابعة والثلاثون: أن دَوام ذكرِ الله ﷻ يُوجِبُ الأمانَ من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد.

الخامسة والثلاثون: أن الذكر يُسيِّرُ العبدَ وهو في فراشه، وفي سُوقه، وفي حال صحته وسقمه وليس شيءٌ يعمُّ الأوقاتَ والأحوالَ مِثلَه، حتى إنه يُسيِّر العبدَ وهو نائم على فراشه، فَيسبقُ القائمَ مع الغفلة.

السادسة والثلاثون: أن الذكر نورٌ للذاكر في الدنيا، ونورٌ له في قبره، ونورٌ له في معادِه ويسير بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوبُ والقبور بمثل ذكر الله تعالى.

السابعة والثلاثون: أن الذكر رأسُ الأصول، ومنشورُ الولاية، فمَن فُتح له فيه؛ فقد فُتح له بابُ الدخول إلى الله ﷻ فلْيَتطهرْ، ولْيَدخلْ على ربه ﷻ يجدْ عنده كل ما يريد.

الثامنة والثلاثون: في القلب خُلَّةٌ وفاقةٌ لا يَسُدُّها شيءٌ ألبته إلا الذكر.

التاسعة والثلاثون: أن الذكر يُجَمِّعُ المتفرق، ويُفرِّقُ المجتمع، ويُقَرِّبُ البعيد، ويُبعِّد القريب. يجمعُ ما تَفَرَّقَ على العبد من قلبه وإرادته، وهمومه، وعُزومِه، ويفرِّقُ ما اجتمع عليه من الهموم، والغموم، والأحزان، وذنوبه، وخطاياه، وأوزاره، وما اجتمع عليه من جُندِ الشيطان، ويُقَرِّبُ إلى الآخرة، ويُبعد عنه الدنيا.

الأربعون: الذكر يُنبِّهُ القلبَ من نومه، ويُوقِظُه من سِنَتِهِ، فالغفلة نومٌ ثقيل.

الحادية والأربعون: أن الذكر شجرةٌ تُثمِرُ المعارفَ والأحوالَ التي شَمَّر إليها السالكون.

فالذكر يُثمرُ المقاماتِ كلَّها من اليقظةِ إلى التوحيد، وهو أصلُ كلِّ مقامٍ، وقاعدتُه.

الثانية والأربعون: أن الذاكر قريبٌ من مذكوره، ومذكورُه معه، وهذه المعيَّةُ خاصةٌ، فهي معيَّةٌ بالقرب، والولاية، والمحبةِ، والنُّصرةِ، والتوفيق.

الثالثة والأربعون: أن لا ذكر يعدِلُ عِتقَ الرقاب، ونفقة الأموال، والحملَ على الخيل في سبيل الله، ويعدلُ الضربَ بالسيف في سبيل الله ﷻ.

الرابعة والأربعون: أن الذكر رأس الشكر، فما شكر الله تعالى مَن لمْ يذكره.

الخامسة والأربعون: أن أكرمَ الخلقِ على الله تعالى من المتَّقين مَنْ لا يزال لسانُه رَطْبًا بذكره.

السادسة والأربعون: أن في القلب قَسوةٌ لا يُذيبُها إلا الذكر.

السابعة والأربعون: أن الذكر شفاء القلب ودواؤه. قال مكحول: " ذكر الله تعالى شفاء، وذِكرُ الناس داء".

إذا مَرِضْنا تداوَيْنا بذِكرِكُمُ   ونترُكُ الذِّكرَ أحيانًا فننتكسُ

الثامنة والأربعون: أن الذكر أصلُ موالاةِ الله ﷻ ورأسُها. قال حسَّان بن عطية: " ما عادى عبدٌ ربه بشر أشد عليه من أن يكرَه ذكره أوْ من يذكره".

التاسعة والأربعون: الذكر جلاب للنعم، رافع للنقم.

الخمسون: أن الذكر يُوجبُ صلاة الله ﷻ وملائكته على الذاكر، ومَن صلى الله تعالى عليه وملائكته، فقد أفلح كلَّ الفلاح. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(٤٣)} (الأحزاب)

الحادية والخمسون: أن من شاء أن يسكُنَ رياضَ الجنةِ في الدنيا، فليستَوطنْ مجالسَ الذكر، فإنها رياضُ الجنة.

* *وقد ذكر ابن أبي الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:* " يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ". قلنا: يا رسول الله! وما رياض الجنة؟ قال:" مَجَالِسُ الذِّكرِ"، ثم قال:" اغْدُوا ورُوحوا واذكُروا، فَمَنْ كان يُحبُّ أن يَعلمَ منزلته عند الله، فلينظُرْ كيفَ منزلةُ اللهِ ﷻ عِندَهُ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنزِلُ العبدَ منهُ حيثُ أنزلَهُ مِن نَفسِهِ". ك

الثانية والخمسون: أنَّ الله ﷻ يُباهي بالذاكرين ملائكته.

الثالثة والخمسون: أنَّ مُدمِن الذكرِ يَدخلُ الجنةَ وهو يضحك.

الرابعة والخمسون: أنَّ جميع الأعمال إنما شُرعت لإقامةِ ذكر الله.

الخامسة والخمسون: أنَّ أفضل أهل كل عملٍ أكثرُهم فيه ذكرًا لله ﷻ، فأفضل الصُّوام أكثرُهم ذكرا لله في صومهم.

السادسة والخمسون: أنَّ إدامته تنوبُ عن التطوعات وتقومُ مقامها، سواء كانت بدنيةً، أو ماليةً كحج التطوع، كما في حديث:" ذهب أهلُ الدثورِ بالأجُور...".

السابعة والخمسون: أنَّ ذكر الله من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها للعبد، ويُسهِّلها عليه ويُلذِّذُها له.

الثامنة والخمسون: أنَّ ذِكرَ الله ﷻ يُسهِّل الصعبَ، ويُيَسِّرُ العسير، ويُخفف المشاقَّ ويُفرِّجُ الغمَّ والهم.

التاسعة والخمسون: أنَّ ذكر الله ﷻ يُذهبُ من القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن.

الستون: أنَّ الذكر يُعطي الذاكرَ قوةً، حتى إنه لَيفعلُ مع الذكر ما لم يَظنُّ فِعله بدونه.

* وقد عَلَّمَ النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليا -رضي الله عنهما- أن يُسبِّحا كل ليلةٍ إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويَحمَدَا ثلاثًا وثلاثين، ويُكبِّرا أربعًا وثلاثين، لما سألته الخادمَ وشَكَتْ إليه ما تُقاسيه من الطَّحنِ والسَّعيِ والخِدمة، فعلَّمها ذلك وقال: " إنه خير لكما من خادم". (والحديث عند البخاري ومسلم)

الحادية والستون: أنَّ عُمَّال الآخرة كلهم في مضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار.

الثانية والستون: أنَّ الذكر سبب لتصديق الرب عبده، فإنه أخبر عن الله تعالى، بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد صدَّقه ربُّه، ومن صدَّقه الله تعالى لم يُحشر مع الكاذبين ورُجي له أن يُحشر مع الصادقين.

* *روى أبو إسحاق عن الأغرِّ أبي مسلم شهِد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما- أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنّه قال:* " إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ"، قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " صَدَقَ عَبْدِي؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا، وَأَنَا أَكْبَرُ". وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ"، قَالَ: " صَدَقَ عَبْدِي؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا وَحْدِي". وَإِذَا قَالَ: " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وحده لا شريك له، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، ولا شريك لي. وإذا قال: لا إله إلا الله لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ"،

قَالَ: " صَدَقَ عَبْدِي؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا، لِيَ الْمُلْكُ، وَلِيَ الْحَمْدُ". وَإِذَا قَالَ: " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ"، قَالَ: " صَدَقَ عَبْدِي؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِي". قال أبو إسحاق: ثم قال الإغرُّ شيئًا لم أفهمه، قلت لأبي جعفر: ما قال؟ قال: "مَنْ رُزِقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ". (رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان بسند صحيح)

الثالثة والستون: أنَّ دُور الجنة تُبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكرُ عن الذكر أمسكت الملائكةُ عن البناء.

الرابعة والستون: أنَّ الذكرَ سدٌّ بين العبد وبين جهنم.

الخامسة والستون: أنَّ الملائكة تستغفر للذاكر.

السادسة والستون: أنَّ الجبالَ والقِفارَ تَتباهى وتَستبشرُ بمن يَذكرُ الله عليها.

السابعة والستون: أنَّ كثرةَ ذكرِ الله أمانٌ من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله ﷻ.. قال تعالى في شأنهم: {وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَّ إِلَّا قَلِيلًا} (النساء: ١٤٢)

الثامنة والستون: أنَّ للذكر من بين الأعمال لذةٌ لا يُشبهها شيء. قال مالكُ بن دينار: " ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثلِ ذكرِ الله ﷻ".

التاسعة والستون: أنَّه يكسُو العبدَ نُضرة في الدنيا، ونورًا في الآخرة.

السبعون: أنَّ في دوامِ الذكر في الطريق، والبيت، والحَضَر، والسفر، والبِقاع، تكثير لشهود العبدِ يوم القيامة، فإن البُقعةَ، والدارَ، والجبلَ، والأرضَ، تشهدُ للذاكر يوم القيامة.

والذاكر لله ﷻ في سائر البقاعُ مكثِّرٌ شهودَه ، ولعلهم أو أكثرهم أن يقبلوه يوم القيامة، يومَ قيام الأشهاد، وأداء الشهادات، فيفرحُ ويَغتبطُ بشهادتهم". اهـ

فاللهم أحيي بالذكر قلوبًا أعيتها الذنوب، وقوِّ به أبدانًا أنهكتها الشهوات، واشفي به أنفسًا أضاعتها الأهواء واجعله قائدًا للجنة يسوق القلوب نحو علام الغيوب في دار كرامته، ومواطن أوليائه. آمين

* وقوله ﷺ « وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ » ت . فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه. وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره، قال تعالى: { وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا٢٨ }

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي. فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً.

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف أي قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق.

وكلها أقوال متقاربة، والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه فإن وجده كذلك فليبعد منه.

وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت. وفي المسند مرفوعاً «أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال مجنون» .

❁ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه.

ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» .

وفي الترمذي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال «من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك، أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار.

ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار. ومن قالها أربعاً أعتقه الله تعالى من النار» .

وفيه عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال «من قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، كان حقاً على الله أن يرضيه» وفي الترمذي «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة» .

مفردة هدى

الهُدَى بضَمّ الهاءِ وفَتْحِ الدّال: الرَّشادُ، والدَّلالةُ، يذكَّر ويُؤَنَّث.

* قال تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} والمعَنى أَرْشِدْنا، وقيل: أَي قَدِّمنا إِليه، وقيل: ثَبِّتْنا عليه؛ وقيل: وَفّقنا؛ وقيل: ارزُقْنا، وكلُّها أَقوالٌ متقاربة.

قال ابنُ عَطِيَّة: الهِدايةُ فِي اللُّغة: الإِرشاد لكنَّها تتصرّف على وُجوه يُعبّر عنها المفسّرون بغير لَفْظ الإِرشاد، وكلُّها إذا تُؤُمِّلت رجعت إِليه. انتهى كلامُه، وهو صحيح، ولم يذكر أَهل اللغة فيها إلاَّ أَنَّها بمعنى الإِرشاد، والأَصل عدمُ الاشتراك. قال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)} [الشورى]

وأَصلُ هَدَى أَن يَصل ثاني مَفْعُولَيْه بإِلى أَو اللاَّم، قال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} ، {اجتباه وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} ، {الحمد للهَّ الذي هَدَانَا لهذا} . وقد يُتَّسع فيه فيُحْذَف الحرفُ ويُعَدَّى بنفسه، ومنه: {اهدنا الصراط المستقيم} ، {وَهَدَيْنَاهُ النجدين} .

وقال الراغب: الهِدَايَةُ: دَلالةٌ بُلْطف، ومنه الهَدِيَّة. وهَوادِي الوَحْش أَي المتقدِّمات الهادِيَةُ لغيرِها. وخُصَّ ما كان دلالةً بَهَدَيْتُ وما كان إِعطاءً بأَهْدَيْتُ، نحو أَهْدَيْتُ الهديَّةَ، وهَدَيْتُ إِلى البَيْت.

إِن قيل كيف جعلت الهداية دَلالةً بلُطْفِ والله تعالَى يقول: {فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم} ؟ قيل: ذلك على سبيل التَهَكُّم مبالغةً فِي المَعْنَى نحو قوله: {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}

وهِدايةُ الله تعالى للإِنسان على أَربعةِ أَضرب

❁ الأَوّل: الهِداية التي عَمَّ بها كُلَّ مكلَّفٍ من العَقْل والفِطْنَة والمَعارف الضروريّة، بل عمّ بها كلَّ شيءٍ حَسَبَ احتمالِه، كما قال تعالى: {رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى} . {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)} [الأعلى]

❁ الثاني: الهِداية التي جُعلت للنَّاسِ بدُعائه إِيّاهم على أَلْسِنَةِ الأَنبياءِ وإِنْزالِ القرآن ونحوِ ذلك،

وهو المقصودُ بقوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} . ومثله{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)} [الشورى]

❁الثالث: التَّوفيقُ الذى يختصّ به من اهْتَدى، وهو المعنِيُّ بقوله: {والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى} ، وقوله: {وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ} .

❁ الرّابع: الهدايَةُ في الآخرة إلى الجنَّة، وهو المعنىُّ بقوله: {الحمد للهِّ الذي هَدَانَا لهذا} .

وهذه الهداياتُ الأَربعُ مُتَرَتِّبة فإِنَّ من لم تَحْصُلْ له الأُولَى لا تَحْصُلُ له الثانية، بل لا يَصِحُّ تكليفُه. ومن لم تَحْصُلْ له الثانيةُ لا تحصل له الثالثة والرابعةُ.

ألفاظ الهدى

❁ والإِنسان لا يَقْدِرُ أَن يَهْدِىَ أَحداً إِلا بالدُّعاءِ وتعريف الطُّرُق دون سائِر الهِدايات، وإِلى الأَوَّل أَشار بقوله: {وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} ، وبقوله: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} أَي داع، وإِلى سائِر الهِدايات أَشار بقوله: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} .

❁ وكُلّ هدايةٍ ذَكَرَ الله تعالى أَنَّه منَع الكافِرين والظَّالِمِين فهي الهِدايَةُ الثالثة، التي هي التَّوْفيق الذى يختصّ به المهتدون، والرّابعة التي هي الثوابُ في الآخرة، وإِدخالُ الجنَّة المشار إِليها بقوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ...} إِلى قوله: {والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين} .

❁ وكلّ هِداية نَفاها عن النبي ﷺ وعن البشر وذكر أَنَّهم غيرُ قادِرين عليها فهي ماعَدا المُخْتصّ به من الدّعاء وتعريفِ الطريق، وذلك كإِعطاءِ العَقْل والتوفيق، وإِدخال الجنَّة، وإِلى هذا المعنَى أَشار بقوله: {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} . وقوله: {وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد} أَي طالبُ الهُدَى ومُتَحرِّيه هو الَّذى يُوَفِّقه ويَهْديه إِلى طريق الجَنَّة لا مَنْ ضادَّهُ فتحرَّى طريقَ الضَلالَة والكُفْر كقوله: {والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين} ، وقوله: {إِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} الكاذِبُ الكَفَّار هو الَّذى لا يَقْبلُ هِدايَتَه؛ فإِنَّ ذلك راجعٌ إِلى هذا وإِنْ لم يكن لفظُه موضوعاً لذلك، ومن لم يَقْبل هِدايَتَه لم يَهْدِه كقولك: من لم يَقْبل هَدِيَّتِي لم أُهْدِ لَهُ، ومن لم يقبل

عَطِيَّتِي لم أُعْطِه، ومن رَغِب عنِّي لم أَرْغَبْ فيه. وقولُه {أَفَمَن يهدي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى} فقوله: لا يَهِدِّي أَي لا يَهْدِي غَيْره ولكن يُهْدَى، أَي لا يعلم شيئاً ولا يَعْرِفُ. وقرئ إِلاَّ أَن يُهَدَّى أَي لا هِدايةَ له ولو هُدِىَ أَيضاً لم يَهْتَد لأَنَّها مَواتٌ من حِجَارة ونحوها. وظاهرُ اللَّفظ أَنَّه إِذا هُدِىَ اهْتَدَى لإِخْراج الكلام على أَنها أَمْثالُكم كقوله تعالى: {إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} وإِنَّما هي مَواتٌ، وقد قال في موضِع آخَرَ: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السماوات والأرض شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ}.

❁ وقوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل}، وقوله: {وَهَدَيْنَاهُ النجدين}، وقوله: {وَهَدَيْنَاهُمَا الصراط المستقيم} إِشارةٌ إِلى ما عَرَّفَ من طريق الخَيْر والشرّ، وطريقِ الثَّواب والعِقاب، والعَقْل والشَّرْع.

❁ وقولُه: {وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ} إِشارةٌ إِلى التَّوْفيق المُلْقَى في الرُّوْع فيما يَتَحرّاه الإِنسانُ، وإِياه عَنَى بقوله: {والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى}.

❁ وقولُه: {اهدنا الصراط المستقيم} فقد قيلَ عنى به الهِدايَة العامَّة، التي هي العقلُ وسنّة الأَنبياءِ، وأُمِرْنا بأَن نُقول ولكن بأَلْسِنَتِنا، وإِن كان قد فَعَلَ، ليُعْطِيَنا ثَواباً، كما أُمِرْنا بأَن نَقُولَ: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمّد وإِنْ كان قد صَلَّى الله عليه بقولُه: {إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي}. وقيل إِنَّ ذلك دُعاءٌ بحفْظِنا عن اسْتِغْواء الغُواةِ واسْتِهْواء الشَّهَوات. وقيل: هو سُؤالٌ للتَّوْفيق المَوْعُود في قوله: {والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى}.

❁ والهِدايةُ والهُدَى في مَوْضُوعِ اللُّغة واحدٌ كما تقدَّم، لكن قد خَصَّ الله لَفْظَ الهُدَى. بما تَوَلاَّه وأَعْطاه، واخْتَصَّ هو به دون ما هو إِلى الإِنسان، نحو: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، {قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى} وغيرها.

❁ والاهْتِداءُ يختصُّ بما يَتَحرّاه الإِنسانُ على طريقِ الاختيارِ إِمّا في الأُمور الدنيويّة أَو الأُخرويّة، قال تعالى: {وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا} ويُقال ذلك لِطَلَب الهِدايَة نحو قوله: {قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المهتدين} ولِتَحَرِّي الهِداية نحو قوله: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب والفرقان

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} .

❁ ويُقالُ المُهْتَدِى لِمَنْ يَقْتدى بِعَالِمٍ نَحْو: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} ، تنبيهاً أَنَّهم لا يعلمون بأَنْفُسِهم ولا يَقتَدون بعالِمٍ.

❁ وقولُه: {فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} فالاهْتِداءُ ها هُنا يَتَناول وجُوه الاهتداءِ من طَلَبِ الهِداية ومن الاقْتِداءِ ومن تَحَرِّيها.

❁ وقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهتدى} معناه ثمّ أَدام طَلَبَ الهِداية ولم يَفْتُرْ عن تَحَرِّيه ولم يرجع إِلى المعصية.

❁ وقوله: {أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون} ، أَي الذين تَحَرُّوا الهداية وقَبِلُوها وعملوا بها، وكذلك قوله: {يا أيه الساحر ادع لَنَا رَبَّكَ ...} إلى قوله {إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ} .

❁ والهدْيُ مختصٌّ بما يُهْدَى إِلى البَيْت، قال الأَخفش: واحِدُه هَدِيَّةٌ، قال: ويُقال للأُنْثَى هَدْىٌ كأَنَّه مصدرٌ وُصف به، قال الله تعالى: {لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله وَلاَ الشهر الحرام وَلاَ الهدي} .

❁ والهَدِيَّة مختصَّه باللُّطَفِ الَّذِى يُهْدَى بعضُنا إِلى بَعْض، قال تعالى {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ}

❁ والمِهْدَى: الطبقُ الَّذى يُهْدَى عليه. والمِهْداءُ من يُكْثِر إِهداءَ الهَدِيَّة .

❁ والهَدِىُّ يُقال فِي الهَدْيِ وفى العَرُوس. يقال: هَدَيْتُ العَرُوسَ إِلى زَوْجِها هِداءً.

❁ وما أَحْسَنَ هِدْيَةَ فُلانٍ [وهَدْيَهُ] ، أَي طريقتَه.

❁ وفلانٌ يُهادِى بين اثنَيْن: إِذا مَشَى بينهما مُعْتَمداً عليهما.

❁ وتَهادَت المرأَةُ: إِذا مَشَتْ مَشْىَ الهَدْى.

من كتاب شفاء العليل

وفي كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل الباب الرابع عشر لابن القيم : في الهدى والضلال ومراتبها والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم :

هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال وكل نعمة دون نعمة الهدى وكل مصيبة دون مصيبة الضلال وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد وأن العبد هو الضال أو المهتدي فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبه، المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل، المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

بيان المراتب الأربعة

* فصل: فأما المرتبة الأولى فقد قال سبحانه: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} فذكر سبحانه أربعة أمور عامة الخلق والتسوية والتقدير والهداية وجعل التسوية من تمام الخلق والهداية من تمام التقدير قال عطاء "خلق فسوى أحسن ما خلقه وشاهده قوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال فالخلق الإيجاد والتسوية إتقانه وإحسان خلقه" وقال الكلبي "خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين" وقال مقاتل" خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق" وقال أبو إسحاق "خلق الإنسان

مستويا" وهذا تمثيل وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} وقال: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير فتأمل ذلك فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها وتمام هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ : "والشر ليس إليك" والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه سبحانه في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له

* فصل: وأما التقدير والهداية فقال مقاتل "قدر خلق الذكر والأنثى فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها" وقال ابن عباس والكلبي وكذلك قال عطاء "قدر من النسل ما أراد ثم هدى الذكر للأنثى" واختار هذا القول صاحب النظم فقال: "معنى هدى هداية الذكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها" لأن إتيان ذكران الحيوان لإناثه مختلف لاختلاف الصور والخلق والهيآت فلولا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جنسه لما اهتدى لذلك وقال مقاتل أيضا: "هداه لمعيشته ومرعاه" وقال السدي: "قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج" وقال مجاهد: "هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة" وقال الفراء: "التقدير فهدى وأضل فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر" قلت: الآية أعم من هذا كله وأضعف الأقوال فيها قول الفراء إذا المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته وهو نظير قوله: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه وما ذكر مجاهد فهو

تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه طيره ودوابه فصيحه وأعجمه وكذلك قول من قال أنه هداية الذكر لإتيان الأنثى تمثيل أيضا وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله وكذلك قول من قال هداه للمرعى فإن ذلك من الهداية فإن الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ثم عودها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب ...

هداية النمل

* فصل: وهذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها لطريق فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك وهذا من أعجب الهداية وتأمل

كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} ثم قال: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل كوادي السباع ونحوه ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم ثم قالت لا يحطمنكم سليمان وجنوده فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها ثم قالت وهم لا يشعرون فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها وأنه لموضع تعجب وتبسم

❁ وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: "نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد" وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "نزل بني من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة" وذكر هشام بن حسان: "أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل ونفعل قال فذهبن" وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال قال أبو موسى الأشعري: "إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: "خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فأذاهم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم" ولهذا الأثر عدة طرق ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره وقال الإمام أحمد حدثنا قال: "خرج سليمان بن داؤد يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنا عن سقياك ورزقك فأما أن تسقينا

وترزقنا وإما أن تهلكنا فقال ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم" ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها قال فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا قال فعلت ذلك مرارا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا قال شيخنا وقد حكيت له هذه الحكاية فقال هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة قالت ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعد ما قالت ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال أين زعمك أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي فعجب سليمان من شدة حرصها وهذا من أعجب الهداية والعطية ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علما منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحلمه وتذهب به وإن كان أكبر منها فإن عجزت عن حمله

ذهبت إلى حجرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضا حتى يتساعدوا على حمله ونقله وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها وإن وجدتها شعيرا فلا ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرا ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه وجربنا نحن ذلك وأحمى صانع مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض ليبرد واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزا له وهو أبعد مكان من المحيط.

هداية الهدهد والحمام

* فصل: وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه .. ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض قال صاحب الكشاف "وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله فما عمل آدمي عملا إلا ألقى الله عليه

رداء عمله".

* فصل: وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية حتى قال الشافعي: "أعقل الطير الحمام" وبرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيما فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها والإناث عن ذكورها ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها ويتعرفون صحة طرقها ومحلها لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماما ساقطا لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها ويقولون هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متنا وأقوى بدنا وأحسن اهتداء وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ويقولون الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها وهدايته على قدر التعليم والتوطين والحمام موصوف باليمن والألف للناس ويحب الناس ويحبونه ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه ويعود إليه من مسافات بعيدة وربما صد فترك وطنه عشر حجج وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء جناحه ثم يدنو من الأنثى فيهدر لها ويقبلها ويزفها وينتفش ويرفع صدره ثم يعتريه ضرب من الوله والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه

وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقدم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان فيعملان منه أفحوصة وينسجانها نسجا متداخلا في الوضع الذي يكون بقدر حيهان الحهامة ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة لئلا يتدحرج عنها البيض ويكون حصنا للحاضن ثم يتعاودان ذلك المكان ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأول ويحدثان فيه طبعا آخر مشتقا ومستخرجا من طباع أبدانهما ورائحتهما لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تسقط من الفزع فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه فيبدآن أولا بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته علما منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء فتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتقاقها ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئا فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية لتكون لها بعض المتانة فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو ويزقانه الفرخ ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ وهو يطلب ذلك منهما حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده وإذا علما أن رئته في قويت ونمت وأنهما إن فطماه فطما تاما قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق ومنعاه ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب ثم يبتدآن العمل ابتداء على ذلك النظام والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها وفيه أخرى لا ترد يد لامس وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث وأخرى تركب من أول وهلة وأول

طلب وأخرى لها ذكر معروف بها وهي تمكن ذكرا آخر منها إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره وأخرى تعمط الذكر وتدعوه إلى نفسها وأنثى تركب أنثى وتساحقها وذكر يركب ذكرا ويعسفه وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام وفيها من لا تبيض وإن باضت أفسدت البيضة كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان أسرعت هاربة ولا تواتي غير زوجها البتة بمنزلة المرأة الحرة ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها ثم ينتقل عنها إلى غيرها وكذلك الأنثى توافق ذكرا آخر عن زوجها وتنتقل عنه وإن كانوا جميعا في برج واحد ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعايرهم كلهم حتى إذا غلب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب وفي الحديث أن النبي ﷺ: "رأى حمامة تتبع حمامة فقال شيطان يتبع شيطانه" ومنها ما يزق فراخه خاصة ومنا ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس لئلا يعرض لها من يصدها ولا يرد مياههم بل يرد المياه التي لا يردها الناس ومن هدايتها أيضا أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده وأي نوع من الأنواع ضده فيخالف فعله ليسلم منه ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل ويمر بين النسر والعقاب وبين الرخم والبازي وبين الغراب والصقر فيعرف من يقصده ومن لا يقصده وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب والحمار عند مشاهدة الأسد ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى وجلب القوت والزق على الذكر فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم والأم هي التي تحبل وتلد وترضع ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ أن رجلا كان له زوج حمام مقصوص وزوج طيار وللطيار فرخان قال ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما قال فحبسني السلطان فجأة فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام ولم أشك في

موتهما لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة وليس عندهما ما يأكلان ويشربان قال فلما خلى سبيلي لم يكن لي هم غيرهما ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت ووجدت المقصوص على أحسن حال فعجبت فما لبث أن جاء الزوج الطيار فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهم فانظر إلى هذه الهداية فإن المقصوصبن لما شاهدا تلطف الفراخ للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش فعلا كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين فزقاهما كما يزقان فرخيهما ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره قال الجاحظ: "وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة أنه لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد فعمدوا إلى باب الدار فسدوه وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ففتح الباب فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار فلما رآها الصبي حبا إليها فأمكنته من أطبائها فمصها وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت له ذلك وأدام هو الطلب ولا يستبعد هذا" وما هو أعجب منه فإن الذي هدى المولود إلى مص إبهامه ساعة يولد ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم له به عادة كأنه قد قيل له هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفا وفي هدايته للحيوان إلى مصالحة ما هو أعجب من ذلك ومن ذلك أن الديك الشاب إذا لقي حبا لم يأكله حتى يفرقه فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق كما قال المدائني "إن إياس بن معاوية مر بديك ينقر حبا ولا يفرقه فقال ينبغي أن يكون هرما فإن الديك الشاب يفرق الحب ليجتمع الدجاج حوله فتصيب منه والهرم قد فنيت رغبته فليس له همة إلا نفسه قال إياس: والديك يأخذ الحبة فهو يريها الدجاجة حتى يلقيها من فيه والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة" وذكر ابن الأعرابي قال: "أكلت حبة بيض مكاء فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها ويدنو منها حتى إذا فتحت فاها وهمت به

ألقى حسكة فأخذت بحلقها حتى ماتت" وأنشد أبو عمرو الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عيلا ومصطلما ... فربما قتل المكاء ثعبانا

مزيد من الهدايات

* ومن عجيب أمر القرد ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: "رأيت في الجاهلية قردا وقردة زينا فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا" فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: "أن رجلا بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها فقالت لم أخلق لهذا فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم قال وبينا رجل يرعى غنما له إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه فقال الذئب هذه استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم" ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان أن الرجل يسير به ويأتي به منزله من البعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل فإذا خلى جاء إليه ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به والصوت الذي يحث به على السير، ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلا الجرة فنقص وعز عليها الوصول إليه ذهبت وحملت في أفواهها ماء وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشربه والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرق بسرعة وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة فتتداوله الطير فلا يظهر حركة ولا نفسا فلا تشك أنه ميت حتى إذا نقر بمنقاره وثب عليها فضمها ضمة الموت وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصتر النهري فأكلاه كالترياق لذلك ومن عجيب أمر الثعلب أنه إذا أصاب القنفذ قلبه لظهره لأجل شوكه فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه فإذا أصابه

البول اعتراه الأسر فانبسط فيسلخه الثعلب من بطنه ويأكل مسلوخه وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورا تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} قال أبو جعفر الباقر والله ما اقتصر على تشبههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منها فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياما تهرب به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة من لحم فهي تخاف عليه الذر والنمل فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد وقال ابن الأعرابي: "قيل لشيخ من قريش من علمك هذا كله وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب قال: علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعا نصيبهما من حضانتها ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد" وقيل لآخر: "من علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مرارا عديدة حتى تستمر صاعدة" وقيل لآخر: "من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به قال من علم الطير تغدو خماصا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض" وقيل لآخر: "من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته فقال الذي علم السهر أن ترصد جحر الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد" وقيل لآخر: "من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون قال من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمال وضربه فالثقل والكل على ظهره ومرارة الجوع والعطش في كبده وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه ولا يعدل به ذلك عن الصبر" وقيل لآخر: "من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل قال من علم الديك يصادف الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل يستدعي

الدجاج ويطلبهن طلبا حثيثا حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به وإذا وضع له الحب الكثير فرقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج لأن طبعه قد ألف البذل والجود فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام" وقيل لآخر: "من علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله قال من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها وهي أكثر من أن تذكر" ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب عفى أثر مشيته بذنبه ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفخ في منخريه لأن اللبؤة تضعه جروا كالميت فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع ومن علم الأسد أن يخضع للبر ويذل له إذا اجتمعا حتى ينال منه له ومن عجيب أمره أنه إذا استعصى عليه شيء من السباع دعا الأسد فأجابه إجابة المملوك لمالكه ثم أمره فربض بين يديه فيبول في أذنيه فإذا أراد السباع ذلك أذعنت له بالطاعة والخضوع ومن علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظن الظان أنه ميتة فيقع عليه فيثب على من انقضى عمره منها ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم ومن علم الدب إذا أصابه كلم أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق فتأتي ما وسطها تضعه فيه فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر ومن علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره والذكر من الأنثى فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد وثبة ويدع الأنثى على نقصان عدوها لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطا أو شوطين حقن ببوله وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن

وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو فيقل عدوه فيدركه كالكلب وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج فيدوم عدوها ومن علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها علما منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوبا بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومن علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط فأومئ بيدي كأني أرميه فلا يطير وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئا فلا يتحرك فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش وأن يقيما له حروفا تشبه الحائط ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى ثم يقلبان البيض في الأيام ومن قسم بينهما الحضانة والكد فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى وأكثر ساعات جلب القوت على الأب وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام فنفخا فيه نفخا متداركا حتى تتسع حوصلته ثم يزقانه اللعاب أو شيئا قبل الطعام وهو كاللبا للطفل ثم يعلمانه احتياج الحوصلة إلى دباغ فيزقانه من أصل الحيطان من شيء بين الملح والتراب تندبغ به الحوصلة فإذا اندبغت زقاه الحب فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق على التدريج فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه ومن علمهما إذا أراد السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء فتتطارد له الأنثى قليلا لتذيقه حلاوة المواصلة ثم تطيعه في نفسها ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها وتعرض محاسنها ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مشاهد بالعيان ومن علم المرسلة منها إذا سافرت ليلا أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب

الريح ومطلع الشمس ومغربها فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت فإذا عرفت الطريق مرت كالريح ومن علم اللبب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمع نفسه فيرى الذبابة أنه لاه عنها ثم يثب عليها وثوب الفهد ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة وتجعل في أعلاها خيطا ثم تتعلق به فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها ومن علم الظبي أنه لا يدخل كناسة إلا مستدبرا ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه ومن علم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود ثم يشير إليها بالرجوع وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبوابا عديدة ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزا رقيقا فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو وهذا باب واسع جدا ويكفي فيه قوله سبحانه: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقد قال النبي ﷺ: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" وهذا يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون إخبارا عن أمر غير ممكن فعله وهو أن الكلاب أمة لا يمكن إفناؤها لكثرتها في الأرض فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت بقتلها والثاني: أن يكون مثل قوله: "أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح" فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة فإعدامها وإفناؤها يناقض ما خلقت لأجله والله أعلم بما أراد رسوله قال ابن عباس في رواية عطاء: ":

{إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} يريد يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني" مثل قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} ومثل قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} ويدل على هذا قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوُابّ} وقوله: {وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ} ويدل عليه قوله تعالى: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} ويدل عليه قوله: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} وقوله: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ} وقول سليمان: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} وقال مجاهد: "أمم أمثالكم أصناف مصنفة تعرف بأسمائها" وقال الزجاج: "أمم أمثالكم في أنها تبعث" وقال ابن قتيبة: "أمم أمثالكم في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك" وقال سفيان بن عيينة: "ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم" فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من ينبح نباح الكلب ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام عافته فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمه لم يحفظ واحدة منها وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه قال الخطابي: "ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة" وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعا لظاهره وجب المصير إلى باطنه وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة وعدم من جهة النطق والمعرفة فوجب أن يكون منصرفا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق وإذا كان الأمر كذلك فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك انتهى كلامه والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبا محتالا وبعضها متوكلا غير محتال وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقا مضمونا وأمرا مقطوعا وبعضها يدخر وبعضها لا تكسب له وبعض الذكورة يعول ولده وبعضها لا يعرف ولده البتة وبعض الإناث

تكفل ولدها لا تعدوه وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها وبعضها يتمها من قبل آبائها وبعضها لا يلتمس الولد وبعضها يستفرغ الهم في طلبه وبعضها يعرف الإحسان ويشكره وبعضها ليس ذلك عنده شيئا وبعضها يؤثر على نفسه وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحدا يدنو منه وبعضها يحب السفاد ويكثر منه وبعضها لا يفعله في السنة إلا مرة وبعضها يقتصر على أنثاه وبعضها لا يقف على أنثى ولو كانت أمه أو أخته وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها وبعضها لا ترد يد لامس وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار وبعضها لا يأكل إلا الطيب وبعضها لا يأكل إلا الخبائث وبعضها يجمع بين الأمرين وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها وبعضها يؤذي من لا يؤذيها وبعضها حقود لا تنسى الإساءة وبعضها لا يذكرها البتة وبعضها لا يغضب وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده وبعضها يقبل التعليم بسرعة وبعضها مع الطول وبعضها لا يقبل ذلك بحال وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلى إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته فإن فيها أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأني لما تريده ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثا ولم يترك سدى وأن له سبحانه في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهانا قاطعا يدل على أنه رب كل شيء ومليكه وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

الهداية العامة

* فصل: فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلام على الهداية العامة التي هي قرينة

الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده قال تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: {فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} قال مجاهد: "أعطى كل شيء خلقه لم يعط الإنسان خلق البهائم ولا البهائم خلق الإنسان" وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى قال عطية ومقاتل: "أعطى كل شيء صورته" وقال الحسن وقتادة: "أعطى كل شيء صلاحه" والمعنى أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين فيكون نظير قوله: {قَدَّرَ فَهَدَى} وقال الكلبي والسدي: "أعطى الرجل المرأة والبعير الناقة والذكر الأنثى من جنسه" ولفظ السدي: "أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع" وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء قال الفراء: "أعطى الذكر من الناس امرأة مثله والشاة شاة والثور بقرة ثم ألهم الذكر كيف يأتيها" قال أبو إسحاق: "وهذا التفسير جائز لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكرا قد أتى أنثى قبله فألهمه الله ذلك وهداه إليه" قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه وقوله أعطى كل شيء يأبى هذا التفسير فإن حمل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن ومن لم يتزوج من بني آدم ومن لم يسافد من الحيوان وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقا له وأين نظير هذا في القرآن وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه وذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى} فحمل قوله: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} على هذا المعنى غير صحيح فتأمله وفي الآية قول آخر قاله الضحاك قال: "أعطى كل شيء خلقه أعطى اليد البطش والرجل المشي واللسان النطق والعين البصر والأذن السمع" ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له والخلق على هذا بمعنى المفعول أي أعطى كل

عضو مخلوقه الذي خلقه له فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء وهذا المعنى وإن كان صحيحا في نفسه لكن معنى الآية أعم والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به ثم هداه لما خلق له ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى} أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان والمعنى لو كان ما تقوله حقا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين وهذا شأن كل مبطل ولهذا صار هذا ميزانا في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتاب الأعمال وقال الكلبي: "يعني به اللوح المحفوظ" وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها فيكون هذا من تمام قوله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فتأمله.

* فصل: وهو سبحانه في القرآن كثيرا ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} وقوله: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} وقوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}

وقوله: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} الآيات ثم قال: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه.

هداية الإرشاد والدلالة

* المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان للمكلفين وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتّباع الحق وإن كانت شرطا فيه أو جزء سبب وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضى إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع ولهذا قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} وقال: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} وقال تعالى عن قوم فرعون: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها وقال: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ونفى عنه ملك الهداية الموجبة وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} ولهذا قال ﷺ: "بعثت داعيا ومبلغا وليس إليّ من الهداية شيء وبعث إبليس مزينا ومغويا وليس إليه من الضلالة شيء" قال تعالى: {وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فجمع سبحانه بين الهداء يتبين العامة والخاصة فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلا وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلا وهذه المرتبة أخص من التي قبلها فأنها هداية تخص المكلفين وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا إلا بعد

إقامتها عليه قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} وقال: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهَّ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وقال: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهَّ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَّ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} وقال: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهَّ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ} فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه قيل حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانا وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه نعم قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور لهم وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

هداية التوفيق والاهم

* المرتبة الثالثة من مراتب الهداية هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص من التي قبلها وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى وإنكار فعل العبد وقدرته وأن يكون له تأثير في الفعل البتة فلم يهتدوا لقول هؤلاء بل زادهم ضلالا على ضلالهم وتمسكا بما هم عليه وهذا شأن المبطل إذا دعي مبطلا آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل كالنصراني إذا دعي اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب وأن المسيح إله تام غير مخلوق إلى أمثال ذلك من الباطل

الذي هو عليه وهذه المرتبة تستلزم أمرين أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي قال تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد ولهذا قال تعالى: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ} وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير الله وأن الله سبحانه إذا أضل عبدا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: {مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ} وقال تعالى: {مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات} وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} وقال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} وقال: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً} وقال: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} وقال أهل الجنة: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ} ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا وقال تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} وقال تعالى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُو} وقال: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ

الْفَاسِقِينَ} وقال: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه كما أن الضلال نوعان ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه وضلال فيه فالأول ضلال عن معرفته والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها قال شيخنا: "ولما كان العبد في كل حال مفتقرا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة" انتهى كلامه ولا يتم المقصود إلا بالهداية إلى الطريق والهداية فيها فإن العبد قد يهتدي إلى طريق قصده وتنزيله عن غيرها ولا يهتدي إلى تفاصيل سيره فيها وأوقات السير من غيره وزاد المسير وآفات الطريق ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} قال: "سبيلا وسنة" وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير فالسبيل الطريق وهي المنهاج والسنة الشرعة وهي تفاصيل الطريق وحزوناته وكيفية المسير فيه وأوقات المسير وعلى هذا فقوله سبيلا وسنة يكون السبيل المنهاج والسنة الشرعة فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير وفي لفظ آخر سنة وسبيلا فيكون المقدم للمقدم والمؤخر للتالي.

* فصل: ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طبع على قلوب الكافرين وختم عليها وأنه أصمها عن الحق وأعمى أبصارها عنه كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} والوقف التام هنا ثم قال: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ

غِشَاوَةٌ} كقوله: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} وقال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} وقال تعالى: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ} : {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} : {وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} وأخبر سبحانه أن على بعض القلوب أقفالا تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها وقال: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً} فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً} وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ}

مرتبة الهداية يوم القيامة

* المرتبة الرابعة من مراتب الهداية الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} فهذه هداية بعد قتلهم فقيل المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم وقال ابن عباس سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا واستشكل هذا القول لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم سيهديهم واختاره الزجاج وقال: "يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا" قال: "وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة" وعلى هذا القول فلا بد من حمل قوله قتلوا في سبيل الله على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال.

مفردة الضلال

● الضَّلال، والضَّلالة ضدّ الهُدَى. وضلَلَتُ بعيري: إذا كان معقولاً فلم تهتد لِمكانه، وأَضللته: إذا كان مطلقًا فمرّ ولم تدرِ أَين أَخَذَ. وأَضللت خاتمي. وضلّ في الدِّين. وهو ضالٌّ، وضلّيل، وصاحب ضلال وضلالة، ومُضَلَّل. ووقع في أَضاليل وأَباطيل. وذهب دمه ضِلَّةً: هَدَرًا. وضلّ عنِّى كذا: ضاع. وضَلَلْتُه: أُنسِيته. وأَضلَّني أَمر كذا: لم أَقدر عليه. وضلّ الماءُ في اللبن، واللبنُ في الماءِ: غاب. وأُضِلّ الميّتُ: دُفِنَ. وفلان ضُلّ بن ضُلّ، وقُلّ بن قُلّ: لا يُعْرف هو وأَبوه.

● ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمدًا كان أَو سهوًا، يسيرًا كان أَو كثيرًا، فإِنَّ الطريق المستقيم الذى هو المرتضَى صعب جدًّا، ولهذا قال ﷺ: "استقيموا ولن تُحْصوا". وقيل: لن تحصوا ثوابه. وقال بعض الحكماء. كونُنا مصيبين من وجه، وكوننا ضالِّين من وجوه كثيرة، فإِنَّ الاستقامة والصّواب يجرى مجرى المقرطَس من المرمىّ، وما عداه من الجوانب كلّها ضلال.

● وإِذا كان الضلال تَرْكُ الطريق المستقيم، عمدًا كان أَو سهوًا، قليلاً كان أَو كثيرًا، صحّ أَن يستعمل لفظ الضَّلال فيمن يكون منه خطأمّا. ولذلك نُسب الضلال إِلى الأَنبياءِ وإِلى الكفار، وإِنْ كان بين الضلالَيْنِ بَوْن بعيد، قال تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى} ، أَي غير مهتد لما سيق إِليك من النبوّة. و {قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين} ، وقال: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} تنبيهًا أَنَّ ذلك منهم سهو. وقوله تعالى: {أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا} ، أَي تَنْسَى، وذلك من النِّسيان الموضوع عن الإِنسان.

أقسام الضلال

* والضَّلال من وجه آخر ينقسم قسمين: ضلال في العلوم النظريّة؛ كالضلال في معرفة الوحدانيّة ومعرفة النبوّة ونحوهما المشار إِليهما بقوله: {وَمَن يَكْفُرْ بالله وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليوم الآخر فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} . وضلال في العلوم العمليّة، كمعرفة الأَحكام الشرعيّة.

والضَّلال البعيد إشارة إلى ما هو كفر. وقوله تعالى: {بَلِ الذين لاَيُؤْمِنُونَ بالآخرة فِي العذاب والضلال البعيد} أَي في عقوبة الضلال البعيد.

● وقوله: {أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض} كناية عن الموت واستحالة البدن. وقوله: {وَلاَالضاَلّين} ، قيل: أَراد به النَّصارى.

● وقوله: {لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَيَنسَى} أَي لا يَغْفل عنه. وقولُه: {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} ، أَي في باطل وإِضلال لأَنفسهم.

* والإِضلال ضربان: أَحدهما أَن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين: إِمّا أَن يضِلّ عنك الشيء، كقولك: أَضللتُ البعير، أَي ضلّ عني؛ وإِمّا أَن يحكم بضلاله. فالضلال في هذين سبب للإِضلال.

الضَّرب الثاني: أَن يكون الإِضلال سببًا للضلال. وهو أَن يزيّن للإِنسان الباطل لِيَضِلّ، كقوله تعالى: {لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ} أَي يَتَحَرَّون أَفعالا يقصدون بها أَن تَضِلّ، فلا يحصل من فعلهم ذلك إِلاَّ ما فيه ضلال أَنفسهم.

الإضلال الإلهي

* وإِضلال الله تعالى للإِنسان على وجهين:

أَحدهما: أَن يكون سببه الضلال. وهو أَن يَضِلّ الإِنسانُ فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنَّة إِلى النار في الآخرة. وذلك الإِضلال هو حقّ وعَدْل؛ فإِنَّ الحكم على الضَّال بضلاله، والعدولَ به عن طريق الجنَّة إِلى النار حقّ وعدل.

والثاني: من إِضلال الله: هو أَنَّ الله تعالى وضع جِبِلَّة الإِنسان على هيئةٍ إِذا راعى طريقًا محمودًا كان أَو مذمومًا أَلِفه واستطابهُ، وتعسّر عليه صرفُه وانصرافه عنه. ويصير ذلك كالطبْع الذى يأبى على النَّاقل؛ ولذلك قيل: العادة طبع ثان. وهذه القوّة فينا فعلٌ إِلهىّ.

وإِذا كان كذلك، وقد ذكر في غير هذا الموضع أَن كل شيء يكون سببًا في وقوع فعل يصحّ نسبة

ذلك الفعل إليه، فصحَّ أَن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه، فيقال: أَضلَّه الله، لا على الوجه الذى يتصوّره الجَهَلة. ولِمَا قلنا جعَل الإِضلال المنسوب إلى نفسه للكافر والفاسق دون المؤمن، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن فقال: {وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} ، {والذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} . وقال في الكافرين: {والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} ، {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين} . وعلى هذا النحو تقليب الأَفئدة والأَبصار في قوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} ، والخَتْم على القلب في قوله: {خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ} ، وزيادة المرض في قوله: {فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً} .

وقد توسع ابن القيم رحمه الله في الضلال في باب الهدى ارجع إليه .

بصيرة في الحفظ

حِفِظت الشيء حِفظاً بالكسر أَي حرسته، وقوله تعالى: {فالله خَيْرٌ حَافِظاً} أَي حفظُ الله خير حفظ . وقوله تعالى {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله} أَي ذلك الحفظ بأَمر الله.

* والحِفظ يقال تارة لهيئة النَّفس الَّتي بها يثبت ما يؤدّى إِليه الفهم، وتارة لضبط الشيء في النَّفس. ويُضادّه النِّسيان، وتارة لاستعمال تلك القوّة، فيقال: حفظت كذا حفظاً، ثمّ يستعمل في كلّ تفقُّد وتعهُّد ورعاية.

* قوله تعالى: {والحافظين فُرُوجَهُمْ والحافظات} كناية عن العِفَّة و {حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله} أَي يحفظن عهد الأَزواج عند غيبتهم بسبب أَنَّ الله يحفظهنّ أَن يطلع عليهنّ. وقرئ بنصب الجلالة أَي بسبب رعايتهنّ حقّ الله لا (لرياءِ وتصنُّع) منهنّ. ((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ : " خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ وَإِذَا غِبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ " . قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) إِلَى آخِرِهَا .)

* وقوله {فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} أَي حافظاً؛ كقوله {وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ}

* {وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} أَي حافظ لأَعمالهم، أَو بمعنى مفعول أَي محفوظ لا يَضِيع، كقوله تعالى: {عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى} .

* والحَفَظَة، الملائكة الَّذين يكتبون أَعمال بنى آدم، وجمع الرّجل الحافظ الحافظون والحُفَّاظ والحَفَظَة.

* والحفيظ: الموكِّل بالشيء يحفظه.

* والحفيظ في صفات الله تعالى: الَّذى لا يَعْزُب عنه مثقالُ ذَرَّة في الأَرض ولا في السّماءِ، وقد حفظ على عباده ما يعملون من خير وشرّ، وقد حفظ السماوات والأَرض {وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}

* والحِفاظ المحافظة على العهد، والوفاء بالعَقْد، والتَّمسّك بالودّ. والحِفاظ أَيضاً أَن يحفظ كلّ

واحد الآخر.

* وقوله تعالى: {والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} فيه تنبيه أَنَّهم يحفظون الصّلاة بمراعاة أَوقاتها، ومراعاة أَركانها، والقيام بها فى غاية ما يكون من الطَّوق، وأَنَّ الصّلاة تحفظهم الحفظ الَّذى نبّه عليه فى قوله: {إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر} .((قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ إِنَّ أَبَا قَتَادَةَ بْنَ رِبْعِيٍّ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ وَعَهِدْتُ عِنْدِي عَهْدًا أَنَّهُ مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ فَلَا عَهْدَ لَهُ عِنْدِي))مج

* وأَهل الحِفِيظة والحفائظ هم المحامون من وراءِ إِخوانهم، المتعاهدون لعوْراتهم، الذابّون عنها.

* والتحفُّظ هو قلَّة الغَفْلة. وحقيقته إِنَّما هو تكلُّف الحفظ لضعف القوّة الحافظة.

* والحفيظةُ: الغَضَب الَّذى يَحمل على المحافظة ، ثمّ استعمل في الغضب المجرّد. والمُحْفِظات: الأُمور الَّتي تُحفِظ الرّجل أَي تُغضبه إِذا وُتِر في حَمِيمه وجارِه. قال القطامىّ:

أَخوك الذى لا تملك الحِسَّ نفسُه ... وترفَضُّ عند المحفِظات الكتائفُ

يقول: إِذا استوحش الرّجُلُ من ذي قرابته فاضطغَن عليه لإِساءَة بدت منه فأَوحشه ثمّ رآه يضام زال عن قلبه ما أَلَمَّ به من الحِقد وغضِب له ونصره وانتقم له من ظالمه. قال قُرَيط بن أُنَيف:

إِذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ ... عند الحَفِيظة إِن ذو لُوثة لانا

وقال:

وما العفو إِلاَّ لامرئ ذى حفيظة ... متى يُعْفَ عن ذنب امرئ السَّوءِ يَلْجَج

الروح

* الرّوح – بالضم –: ما به حياة الأَنفس يؤَنث ويذكّر، والقرآن، والوَحْى، وجبريل، وعيسى عليهما السَّلام، والنفخ، وأَمر النبوَّة، وحكم الله تعالى، وأَمره، ومَلَكٌ وجهه كوجه الإِنسان وجسده كجسد الملائكة.

* والرَّوْح – بالفتح –: الراحة، والرّحمة، ونَسيم الريح. وقيل: الرُّوح والرَّوح في الأَصل واحد، وجُعل اسما للنَفَسَ ، وذلك لكون النَّفَس بعض الرُوح، فهو كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإِنسان بالحيوان، وجُعل اسما للجزءِ الَّذى به تحصل الحياة والتحريك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضَار، وهو المذكور في قوله: {قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي} ، وقولِه: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي} ، وإِضافته تعالى إِلى نفسه إِضافة مِلْك، وتخصيصه بالإِضافة تشريف له وتعظيم كقوله: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} .

* وسُمِّى أَشراف الملائكة أَرواحًا، وسمّى به عيسى عليه السلام: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} ، وذلك لِمَا كان له من إِحياءِ الأَموات.

* وسمّى القرآن رُوحاً فى قوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا} وذلك لكون القرآن سبباً للحياة الأُخرويّة الموصوفة في قوله تعالى: {وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان} .

* والرَّوح: التَّنفس. وقد أَراح الإِنسان أَي تنفَّس. وقوله: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ} ، فَالرَّيحان: ما له رائحة من النبات، وقيل رِزْق، ثم يقال للحبِّ المأكون رَيْحان في قوله تعالى: {والحب ذُو العصف والريحان} . وقيل لأَعرابي: إِلى أَين؟ فقال: أَطلب من رَيْحان الله، أَي من رِزقِه. وفى الصَّحِيح: "الأَرْواح جُنُود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، ما تنكر منها اختلف".

الروح في القرآن

* والرُّوح في القرآن ورد على سبعة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الرّحمة: {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ} أَي رحمة.

الثاني: بمعنى المَلَك الَّذى يكون في إِزاءِ جميع الخَلْق يوم القيامة: {يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة

صَفّاً} .

الثالث: بمعنى جبريل: {نَزَلَ بِهِ الروح الأمين} ، {تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا} .

الرَّابع: بمعنى الوحى والقرآن: {أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا} .

الخامس: بمعنى عيسى: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا} ، {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} .

السادس: في شأْن آدم عليه السّلام واختصاصِه بفضله: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي} .

السّابع: بمعنى اللطيفة التي فيها مَدَد الحياة: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح} ، {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس}

أقسام الروح

وجميع ما تقدّم من الكلام على الرُّوح إِنما هو تفصيل من حيث اللفظ. أَمَّا أَقسام الرّوح من حيث العِلْم فالرُّوح في الأَصل ثلاثة أَنواع: حيواني، وطبيعي، ونفساني. فمركز الرّوح الحيواني القلب، ومركز الرّوح الطَّبيعي الدم، ومحلُّ الرّوح النفساني الدماغ.

فالرّوح الحيواني يصل إِلى جميع الأَعضاءِ بواسطة العُرُوق الضَّوارب الَّتي تسمّى الشرايين.

والرُّوح الطبيعي يصل إِلى أَطراف البَدَن بواسطة الأَوردَةِ.

والرّوح النَّفساني يَنْتشر من القَرْن إِلى القَدَم بواسطة الأَعصاب.

وثمرة الرّوح الحيواني الحياةُ والرَّاحة، وثمرة الرّوح الطبيعي القوّة والقدرة، وثمرة الرّوح النفساني الحِسّ والحركة.

* وأَمَّا حقيقة الرّوح فهي لطيفة ربّانيَّة، وعُنصر من عناصر العالَمَ العلوىِّ تتصل بمدَدٍ ربَّانىّ إِلى العالم السُّفلىّ. وعلى حسب درجة الحيوانات وتفاوت الحالات التي لهم تتَّصل بهم. ولما كان الإِنسان في الصّورة والصّفة والمعنى أَكمل من جميع الحيوانات كان المتَّصل به من ذلك أَفضل الأَرواح. وليس لأَحد من العالمين وقوف على سرِّ تلك اللَّطيفة وحقيقته، والله سبحانه المنفرد بعلم ذلك. والحكمة فيه - إِن شاءَ الله تعالى - أَن يتأَمّل الإِنسان ويُسلِّطَ قوّة فهمه وفكره، ويتحقَّق أَنَّ الرُّوح الَّذى جعل الله الحياة والرَّوْح والراحة والقُوّة والقدرة والحِسّ والحركة والفهم والفكر والسّمع والبصر والنُّطْق والفصاحة والعلم والعقل والمعرفة من ثمراته ونتائجه،

(وله به) نسب وإِضافة من وجوه عدّة، وهو يباشره ويعاشره مدَّة حياته وطولَ عمره، في اليقظة والمنام والقُعُود والقيام، ودوام الموافقة والمرافقة والصّحبة، ومع ذلك لا يصل عِلمُه إِلى شيءٍ من كُنْه حقيقته ودَرْكِ معرفته، فكيف يطمع في الوصول إِلى ساحة إِدراك جلال من تنزَّه من الكمّ والكيف، وتقدّس ذاتُه عن الرَّيْنِ والرّيب، وبَعُدَتْ صفاته عن الشَّين والعيب في عزَّة جلاله، لا وقوف عليه ولا وصول إِليه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير} .

الريح

* والرِّيح معروفة، وهى – فيما قيل – الهواءُ المتحرك. وعامة المواضع الَّتي ذكر الله تعالى فيها الرِّيح بلفظ الواحد فعبارةٌ عن العذاب، وكلُّ موضع ذكر بلفظ الجمع فعبارة عن الرّحمة؛ كقوله تعالى: {إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً} ، وقوله: {وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً} .

وأَمّا قوله: {الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً} فالأَظهر فيه الرَّحمة، وقرىءَ بلفظ الجمع وهو أَصحّ.

وقد يستعار الرِّيح للغلبة نحو: {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} ، وفى الأَثر: "لولا الريح لأَنتنَ ما بين السّماء والأَرض".

* ويقال لمن لا أَصل لكلامه: كلامه ريح في فسيح

الريح في القرآن

* وقد ورد الريح في القرآن على سبعة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى القوّة والدَّولة: {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} .

الثاني: بمعنى العذاب في العقوبة: {رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، {أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم} ، {رِيحاً صَرْصَراً} .

الثالث: بمعنى نَسَمَاتِ الرحمة: {يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} .

الرَّابع: بمعنى اللاَّقحات {وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ} .

الخامس: بمعنى مسخَّرات المراكب في البحار لمنافع السُّفَّار والتُّجَّار: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ}

السّادس: بمعنى رياح النَّصر: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا} .

السّابع: بمعنى ريح المضَّرة والعذاب: {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً} ، {كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} .

وقوله تعالى: {لاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ} أَي من فَرَجِه ورحمته، وذلك بعض الرّوح.

وراحَ فلان إِلى أَهله، وإِمّا لأَنه أَتاهم في السرعة كالرِّيح، أَو لأَنَّه أَستفاد برجوعه إِليهم رَوْحًا من المسرّة. والله أَعلم.

من كتاب الروح لابن القيم

قال :الْمَسْأَلَة الْعشْرُونَ وَهِي : هَل النَّفس وَالروح شَيْء وَاحِد أَو شَيْئَانِ متغايران ؟

فأختلف النَّاس فِي ذَلِك ، فَمن قَائِل أَن مسماهما وَاحِد وهم الْجُمْهُور، وَمن قَائِل أَنَّهُمَا متغايران وَنحن نكشف سر الْمَسْأَلَة بحول الله وقوته فَنَقُول النَّفس تطلق على أُمُور

أَحدهَا : الرّوح قَالَ الْجَوْهَرِي النَّفس الرّوح يُقَال خرجت نَفسه

وَالنَّفس وَالدَّم قَالَ سَأَلت نَفسه وَفِي الحَدِيث مَا لا نفس لَهُ سَائِلَة لَا ينجس المَاء إِذا مَاتَ فِيهِ

* وَالنَّفس الْجَسَد

قلت وَالنَّفس فِي الْقُرْآن تطلق على الذَّات بجملتها كَقَوْلِه تَعَالَى {فَسَلمُوا على أَنفسكُم} وَقَوله تَعَالَى {يَوْم تَأْتِي كل نفس تجَادل عَن نَفسهَا} وَقَوله تَعَالَى {كل نفس بِمَا كسبت رهينة} وَتطلق على الرّوح وَحدهَا كَقَوْلِه تَعَالَى {يَا أيتها النَّفس المطمئنة} وَقَوله تَعَالَى أخرجُوا أَنفسكُم وَقَوله تَعَالَى {وَنهى النَّفس عَن الْهوى} وَقَوله تَعَالَى {إِن النَّفس لأمارة بالسوء}

* وَأما الرّوح فَلَا تطلق على الْبدن لَا بإنفراده وَلَا مَعَ النَّفس وَتطلق الرّوح على الْقُرْآن الَّذِي أوحاه الله تَعَالَى إِلَى رَسُوله قَالَ تَعَالَى {وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْك روحا من أمرنَا}

* وعَلى الْوَحْي الَّذِي يوحيه إِلَى أنبيائه وَرُسُله قَالَ تَعَالَى {يلقِي الرّوح من أمره على من يَشَاء من عباده لينذر يَوْم التلاق} وَقَالَ تَعَالَى {ينزل الْمَلَائِكَة بِالروحِ من أمره على من يَشَاء من عباده أَن أنذروا أَنه لَا إِلَه إِلَّا أَنا فاتقون} وسمى ذَلِك روحا لما يحصل بِهِ من الْحَيَاة النافعة فَإِن الْحَيَاة بِدُونِهِ

لَا تَنْفَع صَاحبهَا الْبَتَّةَ بل حَيَاة الْحَيَوَان البهيم خير مِنْهَا وَأسلم عَاقِبَة

* وَسميت الرّوح روحا لِأَن بهَا حَيَاة الْبدن وَكَذَلِكَ سميت الرّيح لما يحصل بهَا من الْحَيَاة وَهِي من ذَوَات الْوَاو وَلِهَذَا تجمع على أَرْوَاح

* وَمِنْهَا الرّوح وَالريحَان والاستراحة فسميت النَّفس روحا لحُصُول الْحَيَاة بهَا وَسميت نفسا إِمَّا من الشَّيْء النفيس لنفاستها وشرفها وَإِمَّا من تنفس الشَّيْء إِذا خرج فلكثرة خُرُوجهَا ودخولها فِي الْبدن سميت نفسا وَمِنْه النَّفس بِالتَّحْرِيكِ فَإِن العَبْد كلما نَام خرجت مِنْهُ فَإِذا اسْتَيْقَظَ رجعت إِلَيْهِ فَإِذا مَاتَ خرجت خُرُوجًا كليا فَإِذا دفن عَادَتْ إِلَيْهِ فَإِذا سُئِلَ خرجت فَإِذا بعث رجعت إِلَيْهِ

* فَالْفرق بَين النَّفس وَالروح فرق بِالصِّفَاتِ لَا فرق بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا سمي الدَّم نفسا لِأَن خُرُوجه الَّذِي يكون مَعَه الْمَوْت يلازم خُرُوج النَّفس وَإِن الْحَيَاة لَا تتمّ إِلَّا بِهِ كَمَا لَا تتمّ إِلَّا بِالنَّفسِ وَيُقَال فاضت نَفسه وَخرجت نَفسه وَفَارَقت نَفسه كَمَا يُقَال خرجت روحه وَفَارَقت وَلَكِن الْفَيْض الاندفاع وهلة وَاحِدَة وَمِنْه الْإِفَاضَة وَهِي الاندفاع بِكَثْرَة وَسُرْعَة لَكِن أَفَاضَ إِذا دفع بإختياره وإرادته إِذا انْدفع قسرا وقهرا فَالله سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يفيضها عِنْد الْمَوْت فتفيض هِيَ

* فصل وَقَالَت فرقة أُخْرَى من أهل الحَدِيث وَالْفِقْه والتصوف الرّوح غير النَّفس

قَالَ مقَاتل بن سُلَيْمَان للْإنْسَان حَيَاة وروح وَنَفس فَإِذا نَام خرجت نَفسه الَّتِي يعقل بهَا الْأَشْيَاء وَلم تفارق الْجَسَد بل تخرج كحبل ممتد لَهُ شُعَاع فَيرى الرُّؤْيَا بِالنَّفسِ الَّتِي خرجت مِنْهُ وَتبقى الْحَيَاة وَالروح فِي الْجَسَد فِيهِ يتقلب ويتنفس فَإِذا حرك رجعت إِلَيْهِ أسْرع من طرفَة عين فَإِذا أَرَادَ الله عز وَجل أَن يميته فِي الْمَنَام أمسك تِلْكَ النَّفس الَّتِي خرجت وَقَالَ أَيْضا إِذا نَام خرجت نَفسه فَصَعدت إِلَى فَوق فَإِذا رَأَتْ الرُّؤْيَا رجعت فَأخْبرت الرّوح ويخبر الرّوح فَيُصْبِح يعلم أَنه قد رأى كَيْت وَكَيْت .

* قَالَ أَبُو عبد الله بن مَنْدَه ثمَّ اخْتلفُوا فِي معرفَة الرّوح وَالنَّفس فَقَالَ بَعضهم النَّفس طينية نارية وَالروح نورية روحانية، وَقَالَ بَعضهم الرّوح لاهوتية وَالنَّفس ناسوتية وَأَن الْخلق بهَا ابتلى

وَقَالَت طَائِفَة وهم أهل الْأَثر أَن الرّوح غير النَّفس وَالنَّفس غير الرّوح وقوام النَّفس بِالروحِ وَالنَّفس صُورَة العَبْد والهوى والشهوة وَالْبَلَاء معجون فِيهَا وَلَا عَدو أعدى لِابْنِ آدم من نَفسه فَالنَّفْس لَا تُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا وَلَا تحب إِلَّا إِيَّاهَا وَالروح تَدْعُو إِلَى الْآخِرَة وتؤثرها وَجعل الْهوى تبعا للنَّفس والشيطان تبع النَّفس والهوى وَالْملك مَعَ الْعقل وَالروح وَالله تَعَالَى يمدهما بالهامة وتوفيقه

وَقَالَ بَعضهم الْأَرْوَاح من أَمر الله أخْفى حَقِيقَتهَا وَعلمهَا على الْخلق

وَقَالَ بَعضهم الْأَرْوَاح نور من نور الله وحياة من حَيَاة الله

* ثمَّ اخْتلفُوا فِي الْأَرْوَاح هَل تَمُوت بِمَوْت الْأَبدَان والأنفس أَو لَا تَمُوت ؟

فَقَالَت طَائِفَة الْأَرْوَاح لَا تَمُوت وَلَا تبلى وَقَالَت الْجَمَاعَة الْأَرْوَاح على صور الْخلق لَهَا أيد وأرجل وأعين وَسمع وبصر ولسان وَقَالَت طَائِفَة لِلْمُؤمنِ ثَلَاثَة أَرْوَاح وللمنافق وَالْكَافِر روح وَاحِدَة وَقَالَ بَعضهم للأنبياء وَالصديقين خمس أَرْوَاح وَقَالَ بَعضهم الْأَرْوَاح روحانية خلقت من الملكوت فَإِذا صفت رجعت إِلَى الملكوت

* قلت أما الرّوح الَّتِي تتوفى وتقبض فَهِيَ روح وَاحِدَة وَهِي النَّفس

وَأما مَا يُؤَيّد الله بِهِ أولياءه من الرّوح فَهِيَ روح أُخْرَى غير هَذِه الرّوح كَمَا قَالَ تَعَالَى {أُولَئِكَ كتب فِي قُلُوبهم الْإِيمَان وأيدهم بِروح مِنْهُ} وَكَذَلِكَ الرّوح الَّذِي أيد بهَا روحه الْمَسِيح ابْن مَرْيَم كَمَا قَالَ تَعَالَى إِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى ابْن مَرْيَم اذكر نعمتي عَلَيْك وعَلى والدتك إِذْ أيدتك بِروح الْقُدس وَكَذَلِكَ الرّوح الَّتِي يلقيها على من يَشَاء من عباده هِيَ غير الرّوح الَّتِي فِي الْبدن

وَأما القوى الَّتِي فِي الْبدن فَإِنَّهَا تسمى أَيْضا أرواحا فَيُقَال الرّوح الباصر وَالروح السَّامع وَالروح الشَّام فَهَذِهِ الْأَرْوَاح قوى مودعة فِي الْبدن تَمُوت بِمَوْت الْأَبدَان وَهِي غير الرّوح الَّتِي لَا تَمُوت بِمَوْت الْبدن وَلَا تبلى كَمَا يبْلى وَيُطلق الرّوح على أخص من هَذَا كُله وَهُوَ قُوَّة الْمعرفَة بِاللَّه والإنابة إِلَيْهِ ومحبته وانبعاث الهمة إِلَى طلبه وإرادته وَنسبَة هَذِه الرّوح إِلَى الرّوح كنسبة الرّوح إِلَى الْبدن فَإِذا فقدتها الرّوح كَانَت بِمَنْزِلَة الْبدن إِذا فقد روحه وَهِي الرّوح الَّتِي يُؤَيّد بهَا أهل وَلَايَته وطاعته وَلِهَذَا يَقُول النَّاس فلَان فِيهِ روح وَفُلَان مَا فِيهِ روح وَهُوَ بو وَهُوَ قَصَبَة فارغة

وَنَحْو ذَلِك

* فللعلم روح وللإحسان روح وللإخلاص روح وللمحبة والإنابة روح وللتوكل والصدق روح وَالنَّاس متفاوتون فِي هَذِه الْأَرْوَاح أعظم تفَاوت فَمنهمْ من تغلب عَلَيْهِ هَذِه الْأَرْوَاح فَيصير روحانيا وَمِنْهُم من يفقدها أَو أَكْثَرهَا فَيصير أرضيا بهيميا وَالله الْمُسْتَعَان

النفس واحدة أم ثلاث

* الْمَسْأَلَة الْحَادِيَة وَالْعشْرُونَ وَهِي هَل النَّفس وَاحِدَة أم ثَلَاث فقد وَقع فِي كَلَام كثير من النَّاس أَن لِابْنِ آدم ثَلَاث انفس نفس مطمئنة وَنَفس لوامة وَنَفس أَمارَة وَأَن مِنْهُم من تغلب عَلَيْهِ هَذِه وَمِنْهُم من تغلب عَلَيْهِ الْأُخْرَى ويحتجون على ذَلِك بقوله تَعَالَى {يَا أيتها النَّفس المطمئنة} وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى {لَا أقسم بِيَوْم الْقِيَامَة وَلَا أقسم بِالنَّفسِ اللوامة} وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى {إِن النَّفس لأمارة بالسوء}

* وَالتَّحْقِيق أَنَّهَا نفس وَاحِدَة وَلَكِن لَهَا صِفَات فتسمى بإعتبار كل صفة باسم فتسمى مطمئنة بإعتبار طمأنينتها إِلَى رَبهَا بعبوديته ومحبته والإنابة إِلَيْهِ والتوكل عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ والسكون إِلَيْهِ فَإِن سمة محبته وخوفه ورجائه مِنْهَا قطع النّظر عَن محبَّة غَيره وخوفه ورجائه فيستغني بمحبته عَن حب مَا سواهُ وبذكره عَن ذكر مَا سواهُ وبالشوق إِلَيْهِ وَإِلَى لِقَائِه عَن الشوق إِلَى مَا سواهُ

* فالطمأنينة إِلَى الله سُبْحَانَهُ حَقِيقَة ترد مِنْهُ سُبْحَانَهُ على قلب عَبده تجمعه عَلَيْهِ وَترد قلبه الشارد إِلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ جَالس بَين يَدَيْهِ يسمع بِهِ ويبصر بِهِ ويتحرك بِهِ ويبطش بِهِ فتسرى تِلْكَ الطُّمَأْنِينَة فِي نَفسه وَقَلبه ومفاصله وقواهُ الظَّاهِرَة والباطنة تجذب روحه إِلَى الله ويلين جلده وَقَلبه ومفاصله إِلَى خدمته والتقرب إِلَيْهِ وَلَا يُمكن حُصُول الطُّمَأْنِينَة الْحَقِيقِيَّة إِلَّا بِاللَّه وبذكره وَهُوَ كَلَامه الَّذِي أنزلهُ على رَسُوله كَمَا قَالَ تَعَالَى {الَّذين آمنُوا وتطمئن قُلُوبهم بِذكر الله أَلا بِذكر الله تطمئِن الْقُلُوب} فَإِن طمأنينة الْقلب سكونه واستقراره بزَوَال القلق والانزعاج وَالِاضْطِرَاب عَنهُ وَهَذَا لَا يَتَأَتَّى بِشَيْء سوى الله تَعَالَى وَذكره الْبَتَّةَ وَأما مَا عداهُ فالطمأنينة إِلَيْهِ غرور والثقة بِهِ عجز قضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَضَاء لَا مرد لَهُ أَن من اطْمَأَن إِلَى شَيْء سواهُ أَتَاهُ القلق والانزعاج وَالِاضْطِرَاب من جِهَته كَائِنا من كَانَ بل لَو اطْمَأَن العَبْد إِلَى علمه وحاله وَعَمله سبله وزايله

وَقد جعل سُبْحَانَهُ نفوس المطمئنين إِلَى سواهُ أغراضها بسهام الْبلَاء ليعلم عباده وأولياؤه أَن الْمُتَعَلّق بِغَيْرِهِ مَقْطُوع والمطمئن إِلَى سواهُ عَن مَصَالِحه ومقاصده مصدود وممنوع وَحَقِيقَة الطُّمَأْنِينَة الَّتِي تصير بهَا النَّفس مطمئنة أَن تطمئِن فِي بَاب معرفَة أَسْمَائِهِ وَصِفَاته ونعوت كَمَا لَهُ إِلَى خَبره الَّذِي أخبر بِهِ عَن نَفسه وأخبرت بِهِ عَنهُ رسله فتتلقاه بِالْقبُولِ وَالتَّسْلِيم والإذعان وانشراح الصَّدْر لَهُ وَفَرح الْقلب بِهِ فَإِنَّهُ معرف من معرفات الرب سُبْحَانَهُ إِلَى عَبده على لِسَان رَسُوله فَلَا يزل الْقلب فِي أعظم القلق وَالِاضْطِرَاب فِي هَذَا الْبَاب حَتَّى يخالط الْإِيمَان بأسماء الرب تَعَالَى وَصِفَاته وتوحيده وعلوه على عَرْشه وتكلمه بِالْوَحْي بشاشة قلبه فَينزل ذَلِك عَلَيْهِ نزُول المَاء الزلَال على الْقلب الملتهب بالعطش فيطمئن إِلَيْهِ ويسكن إِلَيْهِ ويفرح بِهِ ويلين لَهُ قلبه ومفاصله حَتَّى كَأَنَّهُ شَاهد الْأَمر كَمَا أخْبرت بِهِ الرُّسُل بل يصير ذَلِك لِقَلْبِهِ بِمَنْزِلَة رُؤْيَة الشَّمْس فِي الظهيرة لعَينه فَلَو خَالفه فِي ذَلِك من بَين شَرق الأَرْض وغربها لم يلْتَفت إِلَى خلافهم وَقَالَ إِذا استوحش من الغربة قد كَانَ الصّديق الْأَكْبَر مطمئنا بِالْإِيمَان وَحده وَجَمِيع أهل الأَرْض يخالفهُ وَمَا نقص ذَلِك من طمأنينة شَيْئا فَهَذَا أول دَرَجَات الطُّمَأْنِينَة ثمَّ لَا يزَال يقوى كلما سمع بِآيَة متضمنة لصفة من صِفَات ربه وَهَذَا أَمر لَا نِهَايَة لَهُ فَهَذِهِ الطُّمَأْنِينَة أصل أصُول الْإِيمَان الَّتِي قَامَ عَلَيْهِ بناؤُه ثمَّ يطمئن إِلَى خَبره عَمَّا بعد الْمَوْت من أُمُور البرزخ وَمَا بعْدهَا من أَحْوَال الْقِيَامَة حَتَّى كَأَنَّهُ يُشَاهد ذَلِك كُله عيَانًا وَهَذَا حَقِيقَة الْيَقِين الَّذِي وصف بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهل الْإِيمَان حَيْثُ قَالَ {وبالآخرة هم يوقنون} فَلَا يحصل الْإِيمَان بِالآخِرَة حَتَّى يطمئن الْقلب إِلَى مَا أخبر الله سُبْحَانَهُ بِهِ عَنْهَا طمأنينته إِلَى الْأُمُور الَّتِي لَا يشك فِيهَا وَلَا يرتاب فَهَذَا هُوَ الْمُؤمن حَقًا بِالْيَوْمِ الآخر كَمَا فِي حَدِيث حَارِثَة أَصبَحت مُؤمنا فَقَالَ رَسُول الله إِن لكل حق حَقِيقَة فَمَا حَقِيقَة إيمانك قَالَ عزفت نَفسِي عَن الدُّنْيَا وَأَهْلهَا وَكَأَنِّي أنظر إِلَى عرش رَبِّي بارزا وَإِلَى أهل الْجنَّة يتزاورون فِيهَا وَأهل النَّار يُعَذبُونَ فِيهَا فَقَالَ عبد نور الله قلبه

* فصل والطمأنينة إِلَى أَسمَاء الرب تَعَالَى وَصِفَاته نَوْعَانِ طمأنينة إِلَى الْإِيمَان بهَا وإثباتها واعتقادها وطمأنينة إِلَى مَا تَقْتَضِيه وتوجبه من آثَار الْعُبُودِيَّة مِثَاله الطُّمَأْنِينَة إِلَى الْقدر وإثباته

وَالْإِيمَان بِهِ يَقْتَضِي الطُّمَأْنِينَة إِلَى مَوَاضِع الأقدار الَّتِي لم يُؤمر العَبْد بدفعها وَلَا قدرَة لَهُ على دَفعهَا فَيسلم لَهَا ويرضى بهَا وَلَا يسْخط وَلَا يشكو وَلَا يضطرب إيمَانه فَلَا يأسى على مَا فَاتَهُ وَلَا يفرح بِمَا أَتَاهُ لِأَن الْمُصِيبَة فِيهِ مقدرَة قبل أَن تصل إِلَيْهِ وَقبل أَن يخلق كَمَا قَالَ تَعَالَى مَا أَصَاب من مُصِيبَة فِي الأَرْض وَلَا فِي أَنفسكُم إِلَّا فِي كتاب من قبل أَن نبرأها إِن ذَلِك على الله يسير لكيلا تأسوا على مَا فاتكم وَلَا تفرحوا بِمَا آتَاكُم قَالَ تَعَالَى {مَا أَصَاب من مُصِيبَة إِلَّا بِإِذن الله وَمن يُؤمن بِاللَّه يهد قلبه} قَالَ غير وَاحِد من السّلف هُوَ العَبْد تصيبه الْمُصِيبَة فَيعلم أَنَّهَا من عِنْد الله فيرضى وَيسلم فَهَذِهِ طمأنينة إِلَى أَحْكَام الصِّفَات وموجباتها وآثارها فِي الْعَالم وهى قدر زَائِد على الطُّمَأْنِينَة بِمُجَرَّد الْعلم بهَا واعتقادها وَكَذَلِكَ سَائِر الصِّفَات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع وَالْبَصَر وَالرِّضَا وَالْغَضَب والمحبة فَهَذِهِ طمأنينة الْإِيمَان

* وَأما طمأنينة الْإِحْسَان فَهِيَ الطُّمَأْنِينَة إِلَى أمره امتثالا وإخلاصا وَنصحا فَلَا يقدم على أمره إِرَادَة وَلَا هوى وَلَا تقليدا فَلَا يساكن شُبْهَة تعَارض خَبره وَلَا شَهْوَة تعَارض أمره بل إِذا مرت بِهِ أنزلهَا منزلَة الوساوس الَّتِي لِأَن يخر من السَّمَاء إِلَى الأَرْض أحب إِلَيْهِ من أَن يجدهَا فَهَذَا كَمَا النَّبِي صَرِيح الْإِيمَان وعلامة هَذِه الطُّمَأْنِينَة أَن يطمئن من قلق الْمعْصِيَة وانزعاجها إِلَى سُكُون التَّوْبَة وحلاوتها وفرحتها ويسهل عَلَيْهِ ذَلِك بِأَن يعلم أَن اللَّذَّة والحلاوة والفرحة فِي الظفر بِالتَّوْبَةِ وَهَذَا أَمر لَا يعرفهُ إِلَّا من ذاق الْأَمريْنِ وباشر قلبه آثارهما فللتوبة طمأنينة تقَابل مَا فِي الْمعْصِيَة من الانزعاج والقلق وَلَو فتش العَاصِي عَن قلبه لوجده حشْوَة المخاوف والانزعاج والقلق وَالِاضْطِرَاب وَإِنَّمَا يوارى عَنهُ شُهُود ذَلِك سكر الْغَفْلَة والشهوة فَإِن لكل شَهْوَة سكرا يزِيد على سكر الْخمر وَكَذَلِكَ الْغَضَب لَهُ سكر أعظم من سكر الشَّرَاب وَلِهَذَا ترى العاشق والغضبان يفعل مَا لَا يَفْعَله شَارِب الْخمر وَكَذَلِكَ يطمئن من قلق الْغَفْلَة والإعراض إِلَى سُكُون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وَتعلق الرّوح بحبه ومعرفته فَلَا طمأنينة للروح بِدُونِ هَذَا أبدا وَلَو أنصفت نَفسهَا لرأتها إِذا فقدت ذَلِك فِي غَايَة الانزعاج والقلق وَالِاضْطِرَاب وَلَكِن يواريها السكر فَإِذا كشف الغطاء تبين لَهُ حَقِيقَة مَا كَانَ فِيهِ

* فصل فَإِذا اطمأنت من الشَّك إِلَى الْيَقِين وَمن الْجَهْل إِلَى الْعلم وَمن الْغَفْلَة إِلَى الذّكر وَمن الْخِيَانَة إِلَى التَّوْبَة وَمن الرثاء إِلَى الْإِخْلَاص وَمن الْكَذِب إِلَى الصدْق وَمن الْعَجز إِلَى الْكيس وَمن صولة الْعجب إِلَى ذلة الاخبات وَمن التيه إِلَى التَّوَاضُع وَمن الفتور إِلَى الْعَمَل فقد باشرت روح الطُّمَأْنِينَة وأصل ذَلِك كُله ومنشؤه من الْيَقَظَة فَهِيَ أول مَفَاتِيح الْخَيْر فَإِن الغافل عَن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بِمَنْزِلَة النَّائِم بل أَسْوَأ حَالا مِنْهُ فَإِن الْعَاقِل يعلم وعد الله ووعيده وَمَا تتقاضاه أوَامِر الرب تَعَالَى ونواهيه وَأَحْكَامه من الْحُقُوق لَكِن يَحْجُبهُ عَن حَقِيقَة الْإِدْرَاك ويقعده عَن الِاسْتِدْرَاك سنة الْقلب وَهِي غفلته الَّتِي رقد فِيهَا فطال رقوده وركد وأخلد إِلَى نوازع الشَّهَوَات فاشتد إخلاده وركوده وانغمس فِي غمار الشَّهَوَات واستولت عَلَيْهِ الْعَادَات ومخالطة أهل البطالات وَرَضي بالتشبه بِأَهْل إِضَاعَة الْأَوْقَات فَهُوَ فِي رقاده مَعَ النائمين وَفِي سكرته مَعَ المخمورين فَمَتَى انْكَشَفَ عَن قلبه سنة هَذِه الْغَفْلَة بزجرة من زواجر الْحق فِي قلبه اسْتَجَابَ فِيهَا لواعظ الله فِي قلب عَبده الْمُؤمن أَو همة عَلَيْهِ آثارها معول الْفِكر فِي الْمحل الْقَابِل فَضرب بمعول فكره وَكبر تَكْبِيرَة أَضَاءَت لَهُ مِنْهَا قُصُور الْجنَّة فَقَالَ

أَلا يَا نفس وَيحك ساعديني ... يسْعَى مِنْك فِي ظلم اللَّيَالِي
لَعَلَّك فِي الْقِيَامَة أَن تفوزي ... بِطيب الْعَيْش فِي تِلْكَ العلالي

فأثارت تِلْكَ الفكرة نورا رأى فِي ضوئه مَا خلق لَهُ وَمَا سيلقاه بَين يَدَيْهِ من حِين الْمَوْت إِلَى دُخُول دَار الْقَرار وَرَأى سرعَة انْقِضَاء الدُّنْيَا وَعدم وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أَنْوَاع المثلات فَنَهَضَ فِي ذَلِك الضَّوْء على سَاق عزمه قَائِلا {يَا حسرتى على مَا فرطت فِي جنب الله} فاستقبل بَقِيَّة عمره الَّتِي لَا قيمَة لَهَا مستدركا بهَا مَا فَاتَ محييا بهَا مَا أمات مُسْتَقْبلا بهَا مَا نقدم لَهُ من العثرات منتهزا فرْصَة إِلَّا مَكَان الَّتِي إِن فَاتَت فَاتَه جَمِيع الْخيرَات

ثمَّ يلحظ فِي نور تِلْكَ الْيَقَظَة وفور نعْمَة ربه عَلَيْهِ من حِين اسْتَقر فِي الرَّحِم إِلَى وقته وَهُوَ يتقلب فِيهَا ظَاهرا وَبَاطنا لَيْلًا وَنَهَارًا ويقظة ومناما سرا وَعَلَانِيَة فَلَو اجْتهد فِي إحصاء أَنْوَاعهَا لما قدر وَيَكْفِي أَن أدناها نعْمَة النَّفس وَللَّه عَلَيْهِ فِي كل يَوْم أَرْبَعَة وَعِشْرُونَ ألف نعْمَة فَمَا ظَنك بغَيْرهَا

ثمَّ يرى فِي ضوء ذَلِك النُّور أَنه آيس من حصرها وإحصائها عَاجز عَن أَدَاء حَقّهَا وَإِن الْمُنعم بهَا إِن طَالبه بحقوقها استوعب جَمِيع أَعماله حق نعْمَة وَاحِدَة مِنْهَا فيتيقن حِينَئِذٍ أَنه لَا مطمع لَهُ فِي النجَاة إِلَّا بعَفْو الله وَرَحمته وفضله

ثمَّ يرى فِي ضوء تِلْكَ الْيَقَظَة أَنه لَو عمل أَعمال الثقلَيْن من الْبر لاحتقرها بِالنِّسْبَةِ إِلَى جنب عَظمَة الرب تَعَالَى وَمَا يسْتَحقّهُ بحلال وَجهه وَعظم سُلْطَانه وَهَذَا لَو كَانَت أَعماله مِنْهُ فَكيف وَهِي مُجَرّد فضل الله ومنته وإحسانه حَيْثُ يسرها لَهُ وأعانه وهيأه لَهَا وشاءها مِنْهُ وَكَونهَا وَلَو لم يفعل ذَلِك لم يكن لَهُ سَبِيل إِلَيْهَا فَحِينَئِذٍ لَا يرى أَعماله مِنْهُ وَإِن الله سُبْحَانَهُ لن يقبل عملا يرَاهُ صَاحبه من نَفسه حَتَّى يرى عين توفيق الله لَهُ وفضله عَلَيْهِ ومنته وَأَنه من الله لَا من نَفسه وَأَنه لَيْسَ لَهُ من نَفسه إِلَّا الشَّرّ وأسبابه وَمَا بِهِ من نعْمَة فَمن الله وَحده صَدَقَة تصدق بهَا عَلَيْهِ وفضلا مِنْهُ سَاقه إِلَيْهِ من غير أَن يسْتَحقّهُ بِسَبَب ويستأهله بوسيلة فَيرى ربه ووليه ومعبوده أَهلا لكل خير وَيرى نَفسه أَهلا لكل شَرّ وَهَذَا أساس جَمِيع الْأَعْمَال الصَّالِحَة وَالظَّاهِرَة والباطنة وَهُوَ الَّذِي يرفعها ويجعلها فِي ديوَان أَصْحَاب الْيَمين

ثمَّ يَبْرق لَهُ فِي نور الْيَقَظَة بارقة أُخْرَى يرى فِي ضوئها عُيُوب نَفسه وآفات عمله وَمَا تقدم لَهُ من الْجِنَايَات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عَن كثير من الْحُقُوق والواجبات فَإِذا انْضَمَّ ذَلِك إِلَى شُهُود نعم الله عَلَيْهِ وأياديه لَدَيْهِ رأى أَن حق الْمُنعم عَلَيْهِ فِي نعمه وأوامره لم يبْق لَهُ حَسَنَة وَاحِدَة يرفع بهَا رَأسه فيطمئن قلبه وانكسرت نَفسه وخشعت جوارحه وَسَار إِلَى الله ناكس الرَّأْس بَين مُشَاهدَة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نَفسه وآفات عمله قَائِلا أَبُوء لَك بنعمتك على وأبوء لَك بذنبي فَأغْفِر لى فَإِنَّهُ لَا يغْفر الذُّنُوب إِلَّا أَنْت فَلَا يرى لنَفسِهِ حَسَنَة وَلَا يَرَاهَا أَهلا لخير فَيُوجب لَهُ أَمريْن عظيمين

أَحدهَا استكثار مَا من الله عَلَيْهِ

وَالثَّانِي اسْتِقْلَال مَا مِنْهُ من الطَّاعَة كائنة مَا كَانَت ثمَّ تبرق لَهُ بارقة أُخْرَى يرى فِي ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه وَأَنه رَأس مَال سعادته فيبخل بِهِ أَن يضيعه فَمَا يقربهُ إِلَى ربه فَإِن فِي إضاعته

الخسران وَالْحَسْرَة والندامة وَفِي حفظه وعمارته الرِّبْح والسعادة فيشح بأنفاسه أَن يضيعها فِيمَا لَا يَنْفَعهُ يَوْم معاده

النفس اللوامة

وَأما النَّفس اللوامة وَهِي الَّتِي أقسم بهَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْله {وَلَا أقسم بِالنَّفسِ اللوامة} فَاخْتلف فِيهَا فَقَالَت طَائِفَة هِيَ الَّتِي لَا تثبت على حَال وَاحِدَة اخذوا اللَّفْظَة من التَّلَوُّم وَهُوَ التَّرَدُّد فَهِيَ كَثِيرَة التقلب والتلون وَهِي من أعظم آيَات الله فَإِنَّهَا مَخْلُوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فِي السَّاعَة الْوَاحِدَة فضلا عَن الْيَوْم والشهر وَالْعَام والعمر ألوانا متلونة فَتذكر وتغفل وَتقبل وَتعرض وتلطف وَتكشف وتنيب وتجفو وتحب وَتبْغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطع وتتقى وتفجر إِلَى أَضْعَاف أَضْعَاف ذَلِك من حالاتها وتلونها فَهِيَ تتلون كل وَقت ألوانا كَثِيرَة فَهَذَا قَول

وَقَالَت طَائِفَة اللَّفْظَة مَأْخُوذَة من اللوم ثمَّ اخْتلفُوا فَقَالَت فرقة هِيَ نفس الْمُؤمن وَهَذَا من صفاتها الْمُجَرَّدَة قَالَ الْحسن الْبَصْرِيّ أَن الْمُؤمن لَا ترَاهُ إِلَّا يلوم نَفسه دَائِما يَقُول مَا أردْت بِهَذَا لم فعلت هَذَا كَانَ غير هَذَا أولى أَو نَحْو هَذَا من الْكَلَام

وَقَالَ غَيره هِيَ نفس الْمُؤمن توقعه فِي الذَّنب ثمَّ تلومه عَلَيْهِ فَهَذَا اللوم من الْإِيمَان بِخِلَاف الشقي فَإِنَّهُ لَا يلوم نَفسه على ذَنْب بل يلومها وتلومه على فَوَاته

وَقَالَت طَائِفَة بل هَذَا اللوم للنوعين فَإِن كل أحد يلوم نَفسه برا كَانَ أَو فَاجِرًا فالسعيد يلومها على ارْتِكَاب مَعْصِيّة الله وَترك طَاعَته والشقي لَا يلومها إِلَّا على فَوَات حظها وهواها وَقَالَت فرقة أُخْرَى هَذَا اللوم يَوْم الْقِيَامَة فَإِن كل أحد يلوم نَفسه إِن كَانَ مسيئا على إساءته وَإِن كَانَ محسنا على تَقْصِيره

* وَهَذِه الْأَقْوَال كلهَا حق وَلَا تنَافِي بَينهَا فَإِن النَّفس مَوْصُوفَة بِهَذَا كُله وباعتباره سميت لوامة وَلَكِن اللوامة نَوْعَانِ

لوامة ملومة وَهِي النَّفس الجاهلة الظالمة الَّتِي يلومها الله وَمَلَائِكَته

ولوامة غير ملومة وَهِي الَّتِي لَا تزَال تلوم صَاحبهَا على تَقْصِيره فِي طَاعَة الله مَعَ بذله جهده فَهَذِهِ غير ملومة وأشرف النُّفُوس من لامت نَفسهَا فِي طَاعَة الله واحتملت ملام اللائمين فِي مرضاته فَلَا تأخذها فِيهِ لومة لائم فَهَذِهِ قد تخلصت من لوم الله وَأما من رضيت بأعمالها وَلم تلم نَفسهَا وَلم تحْتَمل فِي الله ملام اللوام فَهِيَ الَّتِي يلومها الله عز وَجل

* فصل وَأما النَّفس الأمارة فَهِيَ المذمومة فَإِنَّهَا الَّتِي تَأمر بِكُل سوء وَهَذَا من طبيعتها إِلَّا مَا وفقها الله وثبتها وأعانها فَمَا تخلص أحد من شَرّ نَفسه إِلَّا بتَوْفِيق الله لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى حاكيا عَن امْرَأَة الْعَزِيز وَمَا أبرىء نَفسِي إِن النَّفس لأمارة بالسوء إِلَّا مَا رحم رَبِّي إِن رَبِّي غَفُور رَحِيم وَقَالَ تَعَالَى وَلَوْلَا فضل الله عَلَيْكُم وَرَحمته مَا زكى مِنْكُم من أحد أبدا وَقَالَ تَعَالَى لأكرم خلقه عَلَيْهِ وأحبهم إِلَيْهِ {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاك لقد كدت تركن إِلَيْهِم شَيْئا قَلِيلا} وَكَانَ النَّبِي يعلمهُمْ خطْبَة الْحَاجة الْحَمد لله نحمده ونستعينه وَنَسْتَغْفِرهُ ونعوذ بِاللَّه من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنَا من يهده الله فَلَا مضل لَهُ وَمن يضلله فَلَا هادي لَهُ فالشر كامن فِي لنَفس وَهُوَ يُوجب سيئات الْأَعْمَال فَإِن خلى الله بَين العَبْد وَبَين نَفسه هلك بَين شَرها وَمَا تَقْتَضِيه من سيئات الْأَعْمَال وَإِن وَفقه وأعانه نجاه من ذَلِك كُله فنسأل الله الْعَظِيم أَن يعيذنا من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنَا وَقد امتحن الله سُبْحَانَهُ الْإِنْسَان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كَمَا أكْرمه بالمطمئنة فَهِيَ نفس وَاحِدَة تكون أَمارَة ثمَّ لوامة مطمئنة وَهِي غَايَة كمالها وصلاحها وأيد المطمئنة بِجُنُود عديدة فَجعل الْملك قرينها وصاحبها الَّذِي يَليهَا ويسددها ويقذف فِيهَا الْحق ويرغبها فِيهِ ويريها حسن صورته ويزجرها عَن الْبَاطِل ويزهدها فِيهِ ويريها قبح صورته وأمدها بِمَا علمهَا من الْقُرْآن والأذكار وأعمال الْبر وَجعل وُفُود الْخيرَات ومداد التَّوْفِيق تنتابها وَتصل إِلَيْهَا من كل نَاحيَة وَكلما تلقتها بِالْقبُولِ وَالشُّكْر وَالْحَمْد لله ورؤية أوليته فِي ذَلِك كُله ازْدَادَ مددها فتقوى على محاربة الْإِمَارَة فَمن جندها وَهُوَ سُلْطَان عساكرها وملكها الْإِيمَان وَالْيَقِين

* وَأما النَّفس الأمارة فَجعل الشَّيْطَان قرينها وصاحبها الَّذِي يَليهَا فَهُوَ يعدها ويمنيها ويقذف فِيهَا الْبَاطِل ويأمرها بالسوء ويزينه لَهَا ويطيل فِي الأمل ويريها الْبَاطِل فِي صُورَة تقلبها

وتستحسنها ويمدها بأنواع الْإِمْدَاد الْبَاطِل من الْأَمَانِي الكاذبة والشهوات الْمهْلكَة ويستعين عَلَيْهَا بهواها وإرادتها فَمِنْهُ يدْخل عَلَيْهَا كل مَكْرُوه فَمَا اسْتَعَانَ على النُّفُوس بِشَيْء هُوَ أبلغ من هَواهَا وإرادتها إِلَيْهِ وَقد علم ذَلِك إخوانه من شياطين الْإِنْس فَلَا يستعينون على الصُّور الممنوعة مِنْهُم بِشَيْء أبلغ من هواهم وإرادتهم فَإِذا أعيتهم صُورَة طلبُوا بجهدهم مَا تحبه وتهواه ثمَّ طلبُوا بجهدهم تَحْصِيله فاصطادوا تِلْكَ الصُّورَة فَإِذا فتحت لَهُم النَّفس بَاب الْهوى دخلُوا مِنْهُ فجلسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وَسبوا وفعلوا مَا يَفْعَله الْعَدو بِبِلَاد عدوه إِذا تحكم فِيهَا فهدموا معالم الْإِيمَان وَالْقُرْآن وَالذكر وَالصَّلَاة وخربوا الْمَسَاجِد وعمروا البيع وَالْكَنَائِس والحانات والمواخير وقصدوا إِلَى الْملك فأسروا وسلبوه ملكه ونقلوه من عبَادَة الرَّحْمَن إِلَى عبَادَة البغايا والأوثان وَمن عز الطَّاعَة إِلَى ذل الْمعْصِيَة وَمن السماع الرحماني إِلَى السماع الشيطاني وَمن الاستعداد للقاء رب الْعَالمين إِلَى الاستعداد للقاء إخْوَان الشَّيَاطِين فَبينا هُوَ يُرَاعى حُقُوق الله وَمَا أمره بِهِ إِذْ صَار يرْعَى الْخَنَازِير وَبينا هُوَ منتصب لخدمة الْعَزِيز الرَّحِيم إِذْ صَار منتصبا لخدمة كل شَيْطَان رجيم

وَالْمَقْصُود أَن الْملك قرين النَّفس المطمئنة والشيطان قرين الأمارة وَقد روى أَبُو الْأَحْوَص عَن عَطاء بن السَّائِب عَن مرّة عَن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله أَن للشَّيْطَان لمة بِأَبْن آدم وللملك لمة فَأَما الشَّيْطَان فيعاد بِالشَّرِّ وَتَكْذيب بِالْحَقِّ وَأما لمة الْملك فايعاد بِالْخَيرِ وتصديق بِالْحَقِّ فَمن وجد ذَلِك فَليعلم انه من الله وليحمد الله وَمن وجد الآخر فليتعوذ بِاللهِ من الشَّيْطَان الرَّجِيم ثمَّ قَرَأَ الشَّيْطَان يَعدكُم الْفقر ويأمركم الْفَحْشَاء وَقد رَوَاهُ عَمْرو عَن عَطاء بن السَّائِب وَزَاد فِيهِ عَمْرو قَالَ سمعنَا فِي هَذَا الحَدِيث أَنه كَانَ يُقَال إِذا أحس أحدكُم من لمة الْملك شَيْئا فليحمد الله وليسأله من فَضله وَإِذا أحس من لمة الشَّيْطَان شَيْئا فليستغفر الله وليتعوذ من الشَّيْطَان

* فصل فَالنَّفْس المطمئنة وَالْملك وجنده من الْإِيمَان يقتضيان من النَّفس المطمئنة التَّوْحِيد وَالْإِحْسَان وَالْبر وَالتَّقوى وَالصَّبْر والتوكل وَالتَّوْبَة والإنابة والإقبال على الله وَقصر الأمل والاستعداد للْمَوْت وَمَا بعده والشيطان وجنده من الْكفْر يقتضيان من النَّفس الأمارة ضد ذَلِك

وَقد سلط الله سُبْحَانَهُ الشَّيْطَان على كل مَا لَيْسَ لَهُ وَلم يرد بِهِ وَجهه وَلَا هُوَ طَاعَة لَهُ وَجعل ذَلِك إقطاعه فَهُوَ يَسْتَنِيب النَّفس الأمارة على هَذَا الْعَمَل والإقطاع ويتقاضى أَن تَأْخُذ الْأَعْمَال من النَّفس المطمئنة فتجعلها قُوَّة لَهَا فَهِيَ أحرص شَيْء على تَخْلِيص الْأَعْمَال كلهَا وَأَن تصير من حظوظها فأصعب شَيْء على النَّفس المطمئنة تَخْلِيص الْأَعْمَال من الشَّيْطَان وَمن الأمارة لله فَلَو وصل مِنْهَا عمل وَاحِد كَمَا يَنْبَغِي لنجابه العَبْد وَلَكِن أَبَت الأمارة والشيطان ان يدعا لَهَا عملا وَاحِدًا يصل إِلَى الله كَمَا قَالَ بعض العارفين بِاللهِّ وبنفسه وَالله لَو اعْلَم أَن لي عملا وَاحِدًا وصل إِلَى الله لَكُنْت أفرح بِالْمَوْتِ من الْغَائِب يقدم على أَهله وَقَالَ عبد الله بن عمر لَو أعلم أَن الله تقبل مني سَجْدَة وَاحِدَة لم يكن غَائِب أحب إِلَى من الْمَوْت {إِنَّمَا يتَقَبَّل الله من الْمُتَّقِينَ}

* فصل وَقد انتصبت الأمارة فِي مُقَابلَة المطمئنة فَكلما جَاءَت بِهِ تِلْكَ من خير ضاهتها هَذِه وَجَاءَت من الشَّرّ بِمَا يُقَابله حَتَّى تفسده عَلَيْهَا فَإِذا جَاءَت بِالْإِيمَان والتوحيد جَاءَت هَذِه بِمَا يقْدَح فِي الْإِيمَان من الشَّك والنفاق وَمَا يقْدَح فِي التَّوْحِيد من الشّرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه وَلَا ترْضى حَتَّى تقدم محبَّة غَيره وخوفه ورجائه على محبته سُبْحَانَهُ وخوفه ورجائه فَيكون مَاله عِنْدهَا هُوَ الْمُؤخر وَمَا لِلْخلقِ هُوَ الْمُقدم وَهَذَا حَال أَكثر هَذَا الْخلق وَإِذا جَاءَت تِلْكَ بتجريد الْمُتَابَعَة للرسول جَاءَت هَذِه بتحكيم آراء الرِّجَال وأقوالهم على الْوَحْي وَأَتَتْ من الشّبَه المضلة بِمَا يمْنَعهَا من كَمَال الْمُتَابَعَة وتحكيم السّنة وَعدم الِالْتِفَات إِلَى آراء الرِّجَال فتقوم الْحَرْب بَين هَاتين النفسين والمنصور من نَصره الله وَإِذا جَاءَت تِلْكَ بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة جَاءَت هَذِه بإضدادها وأخرجتها فِي عدَّة قوالب وتقسم بِاللهِّ مَا مرادها إِلَّا الْإِحْسَان والتوفيق وَالله يعلم أَنَّهَا كَاذِبَة وَمَا مرادها إِلَّا مُجَرّد حظها وَاتِّبَاع هَواهَا والتفلت من سجن الْمُتَابَعَة والتحكيم الْمَحْض للسّنة إِلَى قَضَاء إرادتها وشهوتها وحظوظها ولعمرو الله مَا تخلصت إِلَّا من فضاء الْمُتَابَعَة وَالتَّسْلِيم إِلَى سجن الْهوى والإرادة وضيقة وظلمته ووحشته فَهِيَ مسجونة فِي هَذَا الْعَالم وَفِي البرزخ فِي أضيق مِنْهُ وَيَوْم الميعاد الثَّانِي فِي أضيق مِنْهُمَا

وَمن أعجب أمرهَا أَنَّهَا تسحر الْعقل وَالْقلب فتأتي إِلَى أشرف الْأَشْيَاء وأفضلها وأجلها فتخرجه

فِي صُورَة مذمومة وَأكْثر الْخلق صبيان الْعُقُول أَطْفَال الأحلام لم يصلوا إِلَى حد الْفِطَام الأول عَن العوائد والمألوفات فضلا عَن الْبلُوغ الَّذِي يُمَيّز بِهِ الْعَاقِل الْبَالِغ بَين خير الخيرين فَيُؤْثِرهُ وَشر الشرين فيجتنبه فتريه صُورَة تَجْرِيد التَّوْحِيد الَّتِي هِيَ أبهى من صُورَة الشَّمْس وَالْقَمَر فِي صُورَة التنقيص المذموم وهضم العظماء مَنَازِلهمْ وحطهم مِنْهَا إِلَى مرتبَة الْعُبُودِيَّة الْمَحْضَة والمسكنة والذل والفقر الْمَحْض الَّذِي لَا ملكة لَهُم مَعَه وَلَا إِرَادَة وَلَا شَفَاعَة إِلَّا من بعد إِذن الله فتريهم النَّفس السحارة هَذَا الْقدر غَايَة تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم وَعدم تمييزهم عَن الْمَسَاكِين الْفُقَرَاء فتنفر نُفُوسهم من تَجْرِيد التَّوْحِيد أَشد النفار وَيَقُولُونَ {أجعَل الْآلهَة إِلَهًا وَاحِدًا إِن هَذَا لشَيْء عُجاب} وتريهم تَجْرِيد الْمُتَابَعَة للرسول وَمَا جَاءَ بِهِ وتقديمه على آراء الرِّجَال فِي صُورَة تنقيص الْعلمَاء وَالرَّغْبَة عَن أَقْوَالهم وَمَا فهموه عَن الله وَرَسُوله وَإِن هَذَا إساءة أدب عَلَيْهِم وَتقدم بَين أَيْدِيهم وَهُوَ مفض إِلَى إساءة الظَّن بهم وانهم قد فاتهم الصَّوَاب وَكَيف لنا قُوَّة أَن نرد عَلَيْهِم ونفوز ونحظى بِالصَّوَابِ دونهم فتنفر من ذَلِك أَشد النفار وَتجْعَل كَلَامهم هُوَ الْمُحكم الْوَاجِب الِاتِّبَاع وَكَلَام الرَّسُول هُوَ الْمُتَشَابه الَّذِي يعرض على أَقْوَالهم فَمَا وافقها قبلناه وَمَا خالفها رددناه أَو أولناه أَو فوضناه وتقسم النَّفس السحارة بِاللَّه إِن أردنَا إِلَّا إحسانا وتوفيقا أُولَئِكَ الَّذين يعلم الله مَا فِي قُلُوبهم

قَالَ الله تَعَالَى {فَإِذا قَرَأت الْقُرْآن فاستعذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم} وَقَالَ {وَإِمَّا يَنْزَغَنك من الشَّيْطَان نَزغ فاستعذ بِاللَّه إِنَّه سميع عليم} وَقَالَ {وَقل رب أعوذ بك من همزات الشَّيَاطِين وَأَعُوذ بك رب أَن يحْضرُون} وَقَالَ تَعَالَى {قل أعوذ بِرَبّ الفلق من شَرّ مَا خلق وَمن شَرّ غَاسِق إِذا وَقب وَمن شَرّ النفاثات فِي العقد وَمن شَرّ حَاسِد إِذا حسد} فَهَذَا استعاذة من شَرّ النَّفس وَقَالَ {قل أعوذ بِرَبّ النَّاس ملك النَّاس إِلَه النَّاس من شَرّ الوسواس الخناس الَّذِي يوسوس فِي صُدُور النَّاس من الْجنَّة وَالنَّاس} فَهَذَا استعاذة من قرينها وصاحبها وَبئسَ القرين والصاحب فَأمر الله سُبْحَانَهُ نبيه وَأَتْبَاعه بالاستعاذة بربوبيته التَّامَّة الْكَامِلَة من هذَيْن الخلقين الْعَظِيم شَأْنهمَا فِي الشَّرّ وَالْفساد وَالْقلب بَين هذَيْن العدوين لَا يزَال شرهما يطرقه وينتابه وَأول مَا يدب فِيهِ

السقم من النَّفس الأمارة من الشَّهْوَة وَمَا يتبعهَا من الْحبّ والحرص والطلب وَالْغَضَب ويتبعه من الْكبر والحسد وَالظُّلم والتسلط فَيعلم الطَّبِيب الغاش الخائن بمرضه فيعوده ويصف لَهُ أَنْوَاع السمُوم والمؤذيات ويخيل إِلَيْهِ بسحره أَن شفاءه فِيهَا ويتفق ضعف الْقلب بِالْمرضِ وَقُوَّة النَّفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما وَأَنه نقد حَاضر وَلَذَّة عاجلة والداعي إِلَيْهِ يَدْعُو من كل نَاحيَة والهوى ينفذ والشهوة تهون والتأسي بِالْأَكْثَرِ والتشبه بهم وَالرِّضَا بِأَن يُصِيبهُ مَا أَصَابَهُم فَكيف يستجيب مَعَ هَذِه القواطع وأضعافها لداعي الْإِيمَان ومنادي الْجنَّة إِلَّا من أمده الله بإمداد التَّوْفِيق وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته وَفتح بَصِيرَة قلبه فَرَأى سرعَة انْقِطَاع الدُّنْيَا وزوالها وَتَقَلُّبهَا بِأَهْلِهَا وفعلها بهم وَأَنَّهَا فِي الْحَيَاة الدائمة كغمس إِصْبَع فِي الْبَحْر بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ

* فصل وَالْفرق بَين خشوع الْإِيمَان وخشوع النِّفَاق أَن خشوع الْإِيمَان هُوَ خشوع الْقلب لله بالتعظيم والإجلال وَالْوَقار والمهابة وَالْحيَاء فينكسر الْقلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل وَالْحب وَالْحيَاء وشهود نعم الله وجناياته هُوَ فيخشع الْقلب لَا محَالة فيتبعه خشوع الْجَوَارِح وَأما خشوع النِّفَاق فيبدو على الْجَوَارِح تصنعا وتكلفا وَالْقلب غير خاشع وَكَانَ بعض الصَّحَابَة يَقُول أعوذ بِاللَّه من خشوع النِّفَاق قيل لَهُ وَمَا خشوع النِّفَاق قَالَ أَن يرى الْجَسَد خَاشِعًا وَالْقلب غير خاشع فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شَهْوَته وَسكن دخانها عَن صَدره فانجلى الصَّدْر وأشرق فِيهِ نور العظمة فَمَاتَتْ شهوات النَّفس للخوف وَالْوَقار الَّذِي حشي بِهِ وخمدت الْجَوَارِح وتوقر الْقلب وَاطْمَأَنَّ إِلَى الله وَذكره بِالسَّكِينَةِ الَّتِي نزلت عَلَيْهِ من ربه فَصَارَ مخبتا لَهُ والمخبت المطمئن فَإِن الخبت من الأَرْض مَا اطْمَأَن فإستنقع فِيهِ المَاء فَكَذَلِك الْقلب المخبت قد خشع وَاطْمَأَنَّ كالبقعة المطمئنة من الأَرْض الَّتِي يجْرِي إِلَيْهَا المَاء فيستقر فِيهَا وعلامته أَن يسْجد بَين يَدي ربه إجلالا وذلا وانكسارا بَين يَدَيْهِ سَجْدَة لَا يرفع رَأسه عَنْهَا حَتَّى يلقاه وَأما الْقلب المتكبر فَإِنَّهُ قد اهتز بتكبره وَربا فَهُوَ كبقعة رابية من الأَرْض لَا يسْتَقرّ عَلَيْهَا المَاء فَهَذَا خشوع الْإِيمَان وَأما التماوت وخشوع النِّفَاق فَهُوَ حَال عِنْد تكلّف إسكان الْجَوَارِح تصنعا ومراءاة وَنَفسه فِي الْبَاطِن شَابة طرية ذَات شهوات وإرادات فَهُوَ يخشع فِي الظَّاهِر وحية الْوَادي وَأسد الغابة رابض

بَين جَنْبَيْهِ ينْتَظر الفريسة

* فصل وَأما شرف النَّفس فَهُوَ صيانتها عَن الدنايا والرذائل والمطامع الَّتِي تقطع أَعْنَاق الرِّجَال فيربأ بِنَفسِهِ عَن أَن يلقيها فِي ذَلِك بِخِلَاف التيه فَإِنَّهُ خلق متولد بَين أَمريْن إعجابه بِنَفسِهِ وازدرائه بِغَيْرِهِ فيتولد من بَين هذَيْن التيه وَالْأول يتَوَلَّد من بَين خلقين كريمين إعزاز النَّفس وإكرامها وتعظيم مَالِكهَا وسيدها أَن يكون عَبده دنيا وضيعا خسيسا فيتولد من بَين هذَيْن الخلقين شرف النَّفس وصيانتها وأصل هَذَا كُله استعداد وتهيؤها وإمداد وَليهَا ومولاها لَهَا فَإِذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الْخَيْر كُله

النفس

* النَّفْسُ: الرُّوح، يقال: خرجت نَفْسُه، أَي رُوحُه ، والنَّفْسُ أَيضا الدَّمُ. والنَّفْس: الجَسَد. والنَّفْس: العَيْنُ، أَصابَتْه نَفْسٌ أَي عَيْن. والنافِسُ: العائن، "ونهى عن الرُّقَى إِلاَّ في ثلاث: النَّمْلَة والحُمَة والنَفْس".

* وقال تعالى: {ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً} قال ابن عَرَفَة: أَي بأَهل الإِيمان وأَهلِ شَرِيعَتِهم. وقوله تعالى: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} فترك ذكر الخَلْق وأُضِيف إِلى النَّفْسِ ، والنَّفْس: العِنْدُ، قال تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} أَي تعلم ما عِنْدِي ولا أَعلم ما عنْدَك، وقال ابنُ الأَنباري: أَي تعلم ما في نَفْسى ولا أَعلم ما في غَيْبك. وقيل: تعلم حَقِيقتي ولا أَعلم حقيقتك.

* ونَفْسُ الشيء: عَيْنُهُ، يؤكِّد به يقال: رأَيتُ فلانا نَفْسَه، وجاءَني المَلِكُ بنَفْسِه.

* والنَّفْسُ: قَدْرُ دَبْغَة من القَرَظِ ونحوِه، بعثتْ أَعْرابيّةٌ ابْنتَها إِلى جارَتِها فقالت: تَقُولُ لكِ أُمِّي أَعْطِيني نَفْساً أَو نَفْسيْنِ أَمْعَسُ به مَنِيئَتي فإِني أَفِدَةٌ. أَي مستعجلَةٌ لا أَتفرَّغُ لاتخاذِ الدِّباغ.

* وقال ابنُ الأَعرابىّ: النَّفْسُ: العَظَمةُ، والنَّفْسُ: الكِبْرُ، والنَّفْسُ: العِزَّةُ، والنَّفْسُ: الهِمَّةُ، والنَّفْسُ: الأَنَفَةُ.

* والنَّفْسُ بالتحريك: واحدُ الأَنْفاسِ. وفى الحديث: "أَجِدُ نَفَس رَبِّكم من قِبَلِ اليَمَن" وهو

مستعار من نَفَسِ الهَواءِ الذى يَرُدُّه المُتَنَفِّس إلى جَوْفه فيُبْرِد من حرارته ويُعدِّلها، أَو من نَفَسِ الرِّيح الَّذى يَتَنَسَّمُه فيَسْتَرْوح إليه وينفِّس عنه، أَو من نَفَس الرّوضة، وهو طِيبُ رَوَائحها الَّذى يتشمّمه فينفرج به لِمَا أَنْعَمَ به ربّ العِزَّة من التَنْفِيس والفَرَج وإزلَة الكُرْبَة. ومنه قولُه ﷺ: "لا تَسُبُّوا الرِّيح فإِنَّها من نَفَسِ الرَّحْمن" يريد بها أَنَّها تفرّج الكرب وتنشر الغَيْثَ وتُنْشِئُ السّحاب، وتُذْهِب الجَدْب. وقوله: من قِبَلِ اليمن أَراد به ما تيسّر له من أَهل المدينة على ساكنيها السّلام من النُّصْرَة والإِيواءِ، ونَفَّسَ الله الكرب عن المؤمنين بأَهْلِها، وهمَ يمانون. ويقال: أَنت في نَفَس من أَمْرِك، أَي في سَعَة، واعْمَلْ وأَنْتَ في نَفَس من عُمْرِك، أَي في فُسْحَةٍ قبْلَ الهَرَم والمَرَض ونحوهما. قال: الأَزهرّي: النَّفَسُ في هذين الحديثين اسمٌ وُضِع موضع المصدر الحقيقىّ من نَفَّس يُنَفِّس تَنْفِيساً وَنَفَساً، كما يقال: فَرَّج يُفَرِّجُ تَفْرِيجاً، وفَرَجاً، كأَنَّه قال أَجِدُ تَنْفِيس ربِّكم من قِبَل اليَمَن. وكذلك قولَه ﷺ فإِنَّه من نَفَس الرَحْمنِ، أَي من تَنْفِيس الله بها عن المَكْرُوبين.

والنَّفَسُ: الجُرْعَة، يقال: اكْرَعْ في الإِناءِ نَفَساً أَو نَفَسَيْن ولا تَزِدْ عليه. وشرابٌ غيرُ ذِي نَفَس، أي كَريه آجِن أَي متغيّر، إِذا ذاقه ذائقٌ لم يَتَنَفَّس فيه، إِنَّما هي الشَّرْبة الأُولى.

* وشَرابٌ ذو نَفَس، أَي فيه سَعَةٌ ورِىٌّ.

* وشىءٍ نَفِيسٌ ومَنْفُوسٌ: يُتَنافس فيه ويُرْغَب، ولُفلان نَفِيسٌ، أَي مالٌ كثير.

ونَفِسْتُ عليه الشيءَ: إِذا لم تَطِبْ نَفْسُك له به. ونَفِسْتُ به عَنْ فلان: بَخِلْت عليه وعنه، ومنه قوله تعالى: {وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ} .

ونَفُسَ الشيءُ نَفَاسَةً ككَرُم كَرامَةً: صارَ مرغوباً فيه. ومالٌ مُنْفِسٌ ومُنْفَسٌ: كثيرٌ نَفِيسٌ، ونَهَى رسولُ الله ﷺ عن التَنَفُّس في الإِناءِ، أَي أَنْ يَتَنَفَّس في الإِناءِ من غَيْرِ أَنْ يُبِينَه عن فَمِه. وكان ﷺ يَتَنَفَّسُ في الإِناءِ ثلاثاً، أَي يشرَبُه بثلاثة أَنْفاس فيُبِينُ فاهُ عن الإِناءِ في كلّ نَفس.

* وتَنَفَّسَ الصُّبْحَ: تَبَلَّجَ، قال الله تعالى: {والصبح إِذَا تَنَفَّسَ} .

وتَنَفَّسَت القَوْسُ: تَصَدَّعَت. وَتَنَفَّسَ النَّهار: زادَ وطالَ.

ونافَسْتُ في الشيء: إِذا رَغِبْتَ فيه على وَجْه المُباراة في الكَرَم. وتَنافَسُوا فيه، أَي رَغِبُوا، ومنه قولُه

تعالى: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون} .

* (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَ) وفي المراد «بالنّفس» هاهنا قولان: أحدهما: آدم، قاله الحسن. والثاني: جميع النفوس

* وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها : أي: لا يُؤْخذُ سواها بعملها. وقيل: المعنى: إلا عليها عقاب معصيتها، ولها ثواب طاعتها. زاد

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَجَعَلَ لَهَا نَفْسَيْنِ : نَفْسٌ فِي الصَّيْفِ وَنَفْسٌ فِي الشِّتَاءِ فَشِدَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا ، وَشِدَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ مِنْ سَمُومِهَا . وَمَعْنَى الْحَدِيثِ يُحْمَلُ عَلَى وَجْهَيْنِ . أَحَدِهِمَا أَنَّ شِدَّةَ حَرِّ الصَّيْفِ مِنْ وَهَجِ حَرِّ جَهَنَّمَ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَرُوِيَ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى أَذِنَ لِجَهَنَّمَ فِي نَفَسَيْنِ ، نَفَسٌ فِي الصَّيْفِ وَنَفَسٌ فِي الشِّتَاءِ فَهُوَ مِنْهَا . وَالْوَجْهِ الثَّانِي أَنَّ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ التَّشْبِيهِ وَالتَّقْرِيبِ ، أَيْ كَأَنَّهُ نَارُ جَهَنَّمَ أَيْ كَأَنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ فَاحْذَرُوهَا وَاجْتَنِبُوا ضَرَرَهَا وَاللهَّ أَعْلَمُ . انْتَهَى . قَالَ الْمُنْذِرِيُّ : وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ .

بصيرة في الدين

* أَمّا الدِّين فيقال للطَّاعة والجزاء واستعير للشريعة. والدّين كالملة لكنه يقال اعتباراً بالطَّاعة والانقياد للشريعة.

* وقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً} أَي طاعة وقوله {لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ} حَثّ على اتِّباع دين النبي ﷺ الَّذى هو أَوسط الأَديان وخيرها، كما قال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} . وقوله تعالى {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين} قيل يعنى في الطَّاعة، فإِنَّ ذلك لا يكون في الحقيقة إِلاَّ بالإِخلاص، والإِخلاصُ لا يتأَتَّى فيه الإِكراه. وقيل إِنَّ ذلك مختصّ بأَهل الكتاب الباذلين للجزية. وقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ} يعنى الإِسلام كقوله {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}

* وقوله {فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ} أَي غير مَجْزِيين.

وقال بعضهم: الدِّين: الجزاءُ، دِنتُه دَيْناً ودِيناً، والإِسلام [وقد] دِنتُ به، والعادة والطاعة كالدينة فيهما بالهاءِ، والذّلّ، والداءُ، والحساب، والقهر والغلبة، والسّلطان والحكم، والتَّوحيد، واسم لجميع ما يُتعبّد اللهّ به، والمِلَّة، والوَرَع، والمعصية، والإِكراه، ومن الأَمطار: ما تعاهد موضعاً فصار ذلك له عادة.

* وفى الحديث "إِن الدّين يسرٌ" وفيه "إِنَّ دين الله الحنيفية السّمحة" وقال "إِنَّ الدّين متين فأَوْغِل فيه برفق" ومن كلام العلماءِ كُلْ من كَدّ يمينيك. ولا تأْكل بدِينك وقال الشاعر:

عجبتُ لمبتاع الضَّلالة بالهدى ... وللمشترى دنياه بالدّين أَعجب

وأَعجبُ من هذين مَن باع دينه ... بدنياه سواه فهْو من ذين أَخيب

* والدّين ورد في القرآن بمعنى التَّوحيد والشهادة {إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسلام} {أَلاَ للهَّ الدين الخالص} {أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ} أَي التوحيد وله نظائر، وبمعنى الحساب والمناقشة {مالك يَوْمِ الدين} {الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين} {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين} أَي الحساب وله نظائر أَيضاً،

* وبمعنى حكم الشريعة {وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله} أَي في حكمه،

* وبمعنى الإِيالة والسّياسة {فِي دِينِ الملك} أَي في سياسته،

* وبمعنى المِلَّة {وَذَلِكَ دِينُ القيمة} أَي الملَّة المستقيمة،

* وبمعنى الإِسلام {هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق} .

* دين يقال: دِنْتُ الرّجل: أخذت منه دَيْناً، وأَدَنْتُهُ: جعلته دائنا، وذلك بأن تعطيه دينا. قال (أبو عبيد) : دِنْتُهُ: أقرضته، ورجل مَدِين، ومديون، ودِنْتُهُ: استقرضت منه

* وأَدَنْتُ مثل دِنْتُ، وأَدَنْتُ، أي: أقرضت، والتَّدَايُنُ والمداينة: دفع الدَّيْن، قال تعالى: إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى [البقرة/ ٢٨٢] ، وقال: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ [النساء]

* وقوله: أَفَغَيْرَ دِينِ اللهَّ يَبْغُونَ [آل عمران/ ٨٣] ، يعني: الإسلام، لقوله: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [آل عمران/ ٨٥] ، وعلى هذا قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ [الصف/ ٩] ، وقوله: وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ [التوبة/ ٢٩]

* والمدين والمدينة: العبد والأمة: قال (أبو زيد) : هو من قولهم: دِينَ فلان يُدَانُ: إذا حمل على مكروه ، وقيل : هو من دنته: إذا جازيته بطاعته، وجعل بعضهم المدينة من هذا الباب.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهَّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهَّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} . (الروم: ٣٠)

الإيمان والإسلام

* أما عن أصول أهل السنة والجماعة في قضية الإيمان فهي متعلقة بمعنى كلمة الإسلام والإيمان، وخلاصة الكلام في تعريف الدين أنه عبارة عن قول وعمل، قول بالقلب وقول باللسان، وعمل بالقلب وعمل باللسان والجوارح.

* والقول بالقلب هو التصديق، وأن يوقن الإنسان بأحقية هذا الذي يؤمن به ويصدقه، وقول اللسان هو النطق بالشهادتين.

* أما عمل القلب فهو ما لا يؤدى إلا بالقلب كالنية، الإخلاص، الخوف، الرجاء، المحبة، الإنابة، الإخبات، التوكل، الانقياد، الإقبال على الله، ولوازم هذه الأعمال القلبية.

* أما عمل اللسان فهو ما لا يؤدى إلا باللسان من العبادات، كالذكر، وقراءة القرآن،

والاستغفار، والتهليل، والحوقلة، والحلف، والنذر وهكذا.

* وعمل الجوارح فهو ما لا يؤدى إلا بالجوارح، كالصيام، والصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد وغير ذلك، فهذا هو جماع معنى الدين، قول وعمل، قول بالقلب وقول باللسان، وعمل بالقلب وعمل باللسان والجوارح.

الكفر

* أما الكفر فهو على أنواع أربعة مقابلة لأنواع الإيمان التي هي: قول بالقلب وقول باللسان، وعمل بالقلب، وعمل بالجوارح، فإذا انتفى التصديق الذي هو قول القلب؛ فسوف يكون هذا هو النوع الأول من الكفر، وهو كفر الجهل والتكذيب؛ لأنه انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق.

* النوع الثاني: كفر الجحود، وهو كتم الحق مع العلم بصدقه، هذا نوع آخر من الكفر، فهو يعلم أن هذا حق؛ لكنه يكتمه، وهذا هو كفر الجحود: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل:١٤].

* النوع الثالث: كفر العناد والاستكبار، فينفي في هذا الكفر عمل القلب والجوارح مع المعرفة للقلب والاعتراف باللسان، فهو يعرف أن هذا حق؛ لكن ينتفي عمل القلب من الانقياد والمحبة، والخوف والرجاء إلى آخر أعمال القلب، فينفي عمل القلب، وينتفي عن صاحبه عمل الجوارح مع وجود المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان أن هذا حق، هذا مثل كفر إبليس وأغلب اليهود لعنهم الله، ومثل كفر من ترك الصلاة عناداً واستكباراً، ويوضع السيف على رقبته ويقال له: إما أن تصلي أو تقتل فيختار القتل، فما من شك أن هذا لا يمكن أن يكون في قلبه تصديق؛ لأن الصلاة فرض من فروض الدين؛ ولأنه إذا وجد التصديق في القلب لوجد العمل، فإذا انتفى مع وجود هذه الحالة يخير بين القتل وبين الصلاة، فيختار القتل على الصلاة، فحصل هذا العناد منه بسبب غياب التصديق في قلبه.

* النوع الرابع: كفر النفاق، وفي هذا النوع ينتفي عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة، ففي النفاق تنقاد الجوارح الظاهرة؛ لأن المنافق يظهر شعائر الإسلام، يصلي ويصوم ويزكي ويفعل جميع الأفعال الظاهرة؛ لكن ينتفي عمل قلبه.

* إذاً: أنواع الكفر كل منها على حدة يخرج من الملة بالكلية، فإذا انضمت كلها ووجدت في شخص واحد فهي ظلمات بعضها فوق بعض وزيادة في الكفر، كفر الجهل والتكذيب، كفر

الجحود، كفر العناد والاستكبار، كفر النفاق.

الكفر في المفردات في غريب القرآن

* الكُفْرُ في اللّغة: ستر الشيء، ووصف الليل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزّرّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما كما قال بعض أهل

* والْكَافُورُ: اسم أكمام الثّمرة التي تَكْفُرُهَا

* وكُفْرُ النّعمة وكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ [الأنبياء] .

* عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ: " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللهَ. التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ " مسند أحمد

* وأعظم الكُفْرِ: جحود الوحدانيّة أو الشريعة أو النّبوّة، والكُفْرَانُ في جحود النّعمة أكثر استعمالا، والكُفْرُ في الدّين أكثر، والكُفُورُ فيهما جميعا قال: فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً [الإسراء/ ٩٩] ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً [الفرقان/ ٥٠] ويقال منهما: كَفَرَ فهو كَافِرٌ.

* قال في الكفران: لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [النمل/ ٤٠] ، وقال: وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ [البقرة/ ١٥٢] ، وقوله: وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ [الشعراء/ ١٩] أي: تحرّيت كفران نعمتي، وقال: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم/ ٧] ولمّا كان الكفران يقتضي جحود النّعمة صار يستعمل في الجحود، قال: وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ [البقرة/ ٤١] أي: جاحد له وساتر،

* والكَافِرُ على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانيّة، أو النّبوّة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كَفَرَ لمن أخلّ بالشّريعة، وترك ما لزمه من شكر الله عليه. قال: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ [الروم/ ٤٤] يدلّ على ذلك مقابلته بقوله: وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ [الروم/ ٤٤] ، وقال: وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ [النحل/ ٨٣] ، وقوله: وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ [البقرة/ ٤١] أي: لا تكونوا أئمّة في الكفر فيقتدى بكم، وقوله: وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ [النور/

٥٥] عني بالكافر السّاتر للحقّ، فلذلك جعله فاسقا، ومعلوم أنّ الكفر المطلق هو أعمّ من الفسق، ومعناه: من جحد حقّ الله فقد فسق عن أمر ربّه بظلمه. ولمّا جعل كلّ فعل محمود من الإيمان جعل كلّ فعل مذموم من الكفر، وقال في السّحر: وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [البقرة/ ١٠٢] وقوله: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا، إلى قوله: كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ [البقرة/ ٢٧٥- ٢٧٦] وقال: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ إلى قوله: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ [آل عمران/ ٩٧] «٢»

* والكَفُورُ: المبالغ في كفران النعمة، وقوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ [الزخرف/ ١٥]، وقال: ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ [سبأ/ ١٧] إن قيل: كيف وصف الإنسان هاهنا بالكفور، ولم يرض بذلك حتى أدخل عليه إنّ، واللّام، وكلّ ذلك تأكيد، وقال في موضع وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ [الحجرات/ ٧]، فقوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ [الزخرف/ ١٥] تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النّعمة، وقلّة ما يقوم بأداء الشّكر، وعلى هذا قوله: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ [عبس/ ١٧] ولذلك قال: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ [سبأ/ ١٣]، وقوله: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً [الإنسان/ ٣] تنبيه أنه عرّفه الطّريقين كما قال: وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ [البلد/ ١٠] فمن سالك سبيل الشّكر، ومن سالك سبيل الكفر، وقوله: وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً [الإسراء/ ٢٧] فمن الكفر، ونبّه بقوله: كانَ أنه لم يزل منذ وجد منطويا على الكفر.

* والْكَفَّارُ أبلغ من الكفور لقوله: كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ [ق/ ٢٤] وقال: وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ [البقرة/ ٢٧٦]، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ [الزمر/ ٣]، إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً [نوح/ ٢٧] وقد أجري الكفّار مجرى الكفور في قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم/ ٣٤].

* والكُفَّارُ في جمع الكافر المضادّ للإيمان أكثر استعمالا كقوله: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ [الفتح/ ٢٩]، وقوله: لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ [الفتح/ ٢٩].

* والكَفَرَةُ في جمع كافر النّعمة أشدّ استعمالا، وفي قوله: أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ [عبس/ ٤٢] ألا ترى أنه وصف الكفرة بالفجرة؟ والفجرة قد يقال للفسّاق من المسلمين.

* وقوله: جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ [القمر/ ١٤] أي: من الأنبياء ومن يجري مجراهم ممّن بذلوا النّصح في أمر الله فلم يقبل منهم.

* وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا [النساء/ ١٣٧] قيل: عني بقوله إنهم آمنوا بموسى، ثمّ كفروا بمن بعده. والنصارى آمنوا بعيسى، ثمّ كفروا بمن بعده. وقيل: آمنوا بموسى ثم كفروا بموسى إذ لم يؤمنوا بغيره، وقيل: هو ما قال: وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي إلى قوله: وَاكْفُرُوا آخِرَهُ [آل عمران/ ٧٢] «١» ولم يرد أنّهم آمنوا مرّتين وكفروا مرّتين، بل ذلك إشارة إلى أحوال كثيرة. وقيل: كما يصعد الإنسان في الفضائل في ثلاث درجات ينعكس في الرّذائل في ثلاث درجات. والآية إشارة إلى ذلك، وقد بيّنته في كتاب «الذّريعة إلى مكارم الشّريعة» .

* قال الراغب في كتاب «الذريعة» : وللإنسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة أحوال: إمّا أن يكون في ابتدائها، فيقال: هو عبدها وابنها، ولهذا قال بعضهم: من لم يخدم العلم لم يرعه. والثاني: أن يتوسطها فيقال: هو أخوها وصاحبها. والثالث: أن ينتهي فيها بقدر وسعه، ويتصرف فيها كما أراد، فيقال: هو ربّها وسيدها.

* ويقال: كَفَرَ فلانٌ: إذا اعتقد الكفر، ويقال ذلك إذا أظهر الكفر وإن لم يعتقد، ولذلك قال: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ [النحل/ ١٠٦] ويقال: كَفَرَ فلان بالشّيطان: إذا كفر بسببه، وقد يقال ذلك إذا آمن وخالف الشّيطان، كقوله: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ [البقرة/ ٢٥٦] وأَكْفَرَهُ إِكْفَاراً: حكم بكفره، وقد يعبّر عن التّبرّي بالكفر نحو: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ... الآية [العنكبوت/ ٢٥] ، وقوله تعالى: إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ [إبراهيم/ ٢٢] ، وقوله: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ [الحديد/ ٢٠] قيل: عنى بالكفّار الزّرّاع ، لأنّهم يغطّون البذر في التّراب ستر الكفّار حقّ الله تعالى بدلالة قوله: يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ [الفتح/ ٢٩] ولأنّ الكافر لا اختصاص له بذلك. وقيل: بل عنى الكفار، وخصّهم بكونهم معجبين بالدّنيا وزخارفها وراكنين إليها.

* والْكَفَّارَةُ: ما يغطّي الإثم، ومنه: كَفَّارَةُ اليمين نحو قوله: ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ [المائدة/ ٨٩] وكذلك كفّارة غيره من الآثام ككفارة القتل والظّهار. قال: فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ [المائدة/ ٨٩]

* والتَّكْفِيرُ: ستره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، ويصحّ أن يكون أصله إزالة الكفر والكفران، نحو: التّمريض في كونه إزالة للمرض، وتقذية العين في إزالة القذى عنه، قال: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ [المائدة/ ٦٥] ، نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ [النساء/ ٣١] وإلى هذا المعنى أشار بقوله: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ [هود/ ١١٤] وقيل: صغار الحسنات لا تكفّر كبار السّيّئات، وقال: لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ [آل عمران/ ١٩٥] ، لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا [الزمر/ ٣٥] ويقال: كَفَرَتِ الشمس النّجومَ: سترتها، ويقال الْكَافِرُ للسّحاب الذي يغطّي الشمس والليل

* والْكَافُورُ: أكمام الثمرة. أي: التي تكفُرُ الثّمرةَ، والْكَافُورُ الذي هو من الطّيب. قال تعالى: كانَ مِزاجُها كافُوراً [الإنسان/ ٥] .

بصيرة في كفر

* كَفَر الشيءَ وكفَّره: غطَّاه، يقال: كفر السّحابُ السّماءَ، وكَفَر المتاعَ في الوعاء، وكَفَر الليلُ بظلامه. وليل كافر. ولبِس كافرَ الدُّروع، وهو ثوب يلبس فوقها. وكفرت الريحُ الرسْمَ، والفَلاَّحُ الحَبَّ، ومنه قيل للزُّراع الكُفَّار. وفارس مكفَّر ومتكفِّر. وكفَّر نفسه بالسّلاح. وتكفَّرْ بثوبك: اشتمِل به. وطائر مكفَّر: مغطًّى بالريش،

* وغابت الشمس في الكافر، أي البحر. ورجل مكفَّر: محسان لا تُشكر نعمته. وكفَّر العِلجُ للملك تكفيرا: أومأ له بالسّجود. وخرج نَوْرُ العِنب من كافوره وكُفُرَّاه: من طَلْعه.

* والكَفْر: القرية، وفى الحديث: "أَهل الكُفُور أَهل القبور. وليُفتحنَّ الشَّام كَفْرًا كَفْرًا".

* وأَكفره وكفَّره: نسبه إِلى الكُفر. وكفَّر اللهُ خطاياك.

* وقوله: {وَلاَ تكونوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أَي لا تكونوا أَئمة في الكفر فيقتدى بكم.

* وقال: {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون} ، وعنى بالكافر الساتر للحقّ، فلذلك جعله فاسقاً، ومعلوم أَن الكفر المطلق هو أَعظم من الفسق، ومعناه: من جحد حقَّ الله فقد فسق عن أَمر ربه بظلمه. ولمَّا جُعل كلُّ فعل محمود من الإِيمان جعل كلُّ مذموم من الكفر.

* والتكفير: ستر الذنب وتغطيته، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكتاب آمَنُواْ واتقوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} أَي سترناها حتى تصير كأَن لم تكن، أَو يكون المعنى نُذْهبها ونُزيلها، من باب التمريض لإِزالة المرض

* والكافور والقافور: طِيب أَبيض يوجد في أَجواف القَصَب المعروف ببلاد الهند، وهو أَنواع، قال تعالى: {كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} .

الفسق

* فَسَق يَفْسُقُ وفُسُوقًا: فَجَر، وخرج عن الحقِّ، وترك امتثال أَمر الله. ورجل فُسَق وفِسِّيق: دائم الفسق. وفسَقَت الرُطَبَة: خرجت عن قِشرها. والفِسق أَعمّ من الكفر. ويقع على كثير الذْنب وقليله ، لكن تعورف في الكثير أَكثر، وفيمن التزم حكم الشرع ثمّ أَخلّ بأَكثر أَحكامه.

* والكافر فاسق لإِخلاله بما أَلزمه العقلُ، واقتضته الفطرة السليمة، قال تعالى: {وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون} ، وقال: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الفاسقون} .

* وقوله: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً} فقابل به الإِيمان. والفاسق أَعمّ من الكافر، والظالم أَعمّ من الفاسق.

* وفي المفردات في غريب القرآن :

فَسَقَ فلان: خرج عن حجر الشّرع، وذلك من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرج عن قشره ، وهو أعمّ من الكفر. والفِسْقُ يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فَاسِقٌ، فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال الله تعالى: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ [الكهف/ ٥٠] ، فَفَسَقُوا فِيها [الإسراء/ ١٦] ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ [آل عمران/

١١٠]، وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ [النور/ ٤]، أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً [السجدة/ ١٨] وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ [النور/ ٥٥]، أي: من يستر نعمة الله فقد خرج عن طاعته، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ [السجدة/ ٢٠]، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ [الأنعام/ ٤٩]، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ [المائدة/ ١٠٨]، إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ [التوبة/ ٦٧]، كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا [يونس/ ٣٣]، أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً [السجدة/ ١٨]، فقابل به الإيمان.

* فالفاسق أعمّ من الكافر، والظالم أعمّ من الفاسق. وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ إلى قوله: وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

* وسمّيت الفأرة فُوَيْسِقَةً لما اعتقد فيها من الخبث والفسق. وقيل: لخروجها من بيتها مرّة بعد أخرى. وقال عليه الصلاة والسلام: (اقتلوا الفويسقة فإنّها توهي السّقاء وتضرم البيت على أهله) .

* قال ابن الأعرابيّ: لم يسمع الفاسق في وصف الإنسان في كلام العرب، وإنما قالوا: فسقت الرّطبة عن قشرها

فصل فِي الْفسق

وَهُوَ أَقسَام بِاعْتِبَار الْعرف وَبِاعْتِبَار التَّصْرِيح والتأويل

* فاما الْعرف الأول فِي اسْم الْفَاعِل فانه يدل أن الْفَاسِق من الْكفَّار من لَا حَيَاء وَلَا مُرُوءَة وَلَا عهد وَلَا عقد لَهُ كَمَا فسره بذلك الزَّمَخْشَرِيّ فِي بعض الْآيَات الدَّالَّة على ذَلِك فان الله تَعَالَى يَقُول فِي الْكفَّار من الْيَهُود وَغَيرهم {وَأَكْثَرهم فَاسِقُونَ} وَفِي بعض الْآيَات {وَكثير مِنْهُم فَاسِقُونَ}

* وَأما بِاعْتِبَار اسْم الْفِعْل فَفِيهِ قَوْله تَعَالَى {وَكره إِلَيْكُم الْكفْر والفسوق والعصيان} وَقَول رَسُول الله ﷺ وسباب الْمُؤمن فسوق وقتاله كفر فِي أَحَادِيث كَثِيرَة مُتَّفق على صِحَّتهَا

* وَأما الْعرف الْمُتَأَخر فالفسق يخْتَص بالكبيرة من الْمعاصِي مِمَّا لَيْسَ بِكفْر وَالْفَاسِق يخْتَص بمرتكبها وَعند الْمُعْتَزلَة لَا يُسَمّي كَافِرًا وَلَا مُؤمنا وَلَا مُسلما وَعند أهل الحَدِيث والاشعرية لَا

يُسمى كَافِرًا وَأما اسْم الإسلام فان اعْتبرنَا تَمامه وكماله لم نسمه مُؤمنا وَلَا مُسلما وان اعْتبرنَا أَقَله سميناه مُؤمنا وَمُسلمًا إلا أن تَسْمِيَته مُسلما اعْتِبَارا بالأقل من مَرَاتِب الإسلام هُوَ الْعرف الأكثر بِخِلَاف تَسْمِيَته مُؤمنا وَفِي ذَلِك من الْآيَات وَالْأَحَادِيث

* وَأما انقسام ذَلِك بِاعْتِبَار فسق التَّصْرِيح والتأويل فَهُوَ مُتَّفق عَلَيْهِ ... وَهُوَ يرجع إلى معرفَة الْكَبَائِر وَهِي منصوصة فِي أَحَادِيث كَثِيرَة وَفِي بَعْضهَا زِيَادَة على بعض وَقد جمعهَا ابْن الْحَاجِب فِي مُخْتَصر الْمُنْتَهى وَتكلم ابْن كثير على طرقها وَمِنْهُم من زَاد عَلَيْهَا مَا هُوَ أَكثر مِنْهَا قطعا عملا بِمَفْهُوم الْمُوَافقَة الْمُسَمّى فحوى الْخطاب

مِثَاله : إن قتل الْمُؤمن كَبِيرَة بِالنَّصِّ فَأولى مِنْهُ بذلك دلَالَة الْكفَّار على نقب فِي مصر عَظِيم من أَمْصَار الْمُسلمين يدْخلُونَ مِنْهُ فيقتلون جَمِيع من فِيهَا ويستحلون الْمَحَارِم من النسوان وَالصبيان وَنَحْو ذَلِك وَهَذَا قِسْمَانِ مِنْهُ مَا يكون مَعْلُوما كَمَا يعلم تَحْرِيم ضرب الْوَالِدين من تَحْرِيم التأفيف فَلَا يكون قِيَاسا وَمِنْه قِيَاس ... وَمِنْهُم من قَالَ الْكَبِيرَة مَا كَانَ فِيهِ حد من حُدُود الله تَعَالَى أَو قَالَ الله تَعَالَى فِيهِ إِنَّه عَظِيم أَو كَبِير وَمِنْهُم من قَالَ مَا توعد الله عَلَيْهِ بِخُصُوصِهِ بِالْعَذَابِ

* وَأما فسق التَّأْوِيل فَهُوَ الَّذِي أردْت أَن أذكرهُ هُنَا وَاعْلَم أن مَا دخله التَّأْوِيل مِمَّا يتَعَلَّق بالكبائر وَلم يعلم انه مِنْهَا سوى قتل الْمُسلمين وقتالهم فانه يصير ظنا من الْفُرُوع الاجتهاديات عِنْد جَمَاهِير الْعلمَاء من الْفرق أَو عِنْد جَمِيعهم كالربويات الْمُخْتَلف فِيهَا والأنكحة الْمُخْتَلف فِيهَا مِثَال ذَلِك

وَأما قتل الْمُسلمين وقتالهم وَالْبَغي على أئمتهم العادلين فَاخْتلف فِيهِ فَقَالَت الشِّيعَة والمعتزلة لَا يعْذر الْمُجْتَهد إن أَخطَأ فِيهِ وَيكون فَاسق تَأْوِيل وَقيل يعْذر مثل التَّأْوِيل فِيمَا تقدم وَسبب الِاخْتِلَاف أَمْرَانِ

أَحدهمَا تعَارض الْوَعيد على ذَلِك والوعد بِالْعَفو عَن أهل الْخَطَأ وَقد تقدم مَا فِي ذَلِك قَرِيبا فِي الْوَجْه الثَّالِث فِي الْكَلَام على تَكْفِير أهل التَّأْوِيل

وَثَانِيهمَا اخْتلَافهمْ هَل يُوجد دَلِيل قَاطع شَرْعِي وَلَيْسَ بضروري من الدّين أم لَا وَمعنى ذَلِك

أَن الْقطعِي الشَّرْعِيّ هُوَ الْمَعْلُوم لَفظه الْمَعْلُوم

* ● وفي لسان العرب الفِسْق: الْعِصْيَانُ وَالتَّرْكُ لأَمر اللَّهَّ عَزَّ وَجَلَّ وَالْخُرُوجُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ. أي فَجَر، وَقِيلَ: الفُسوق الْخُرُوجُ عَنِ الدِّينِ، وَكَذَلِكَ الْمَيْلُ إِلى الْمَعْصِيَةِ كَمَا فَسَقَ إِبليسُ عَنْ أَمر رَبِّهِ. وفَسَق عَنْ أَمر رَبِّهِ أَي جَارَ وَمَالَ عَنْ طَاعَتِهِ قال الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، خَرَجَ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ إِذا خَرَجَتِ الرُّطَبَةُ مِنْ قِشْرِهَا: قَدْ فَسَقَت الرُّطَبَةُ مِنْ قِشْرِهَا، وكأَن الْفَأْرَةَ إِنما سُمِّيَتْ فُوَيْسِقةً لِخُرُوجِهَا مِنْ جُحْرها عَلَى النَّاسِ. والفِسْقُ: الْخُرُوجُ عَنِ الأَمر. وفَسَقَ عَنْ أَمر رَبِّهِ أَي خَرَجَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِمُ اتَّخَمَ عَنِ الطَّعَامِ أَي عَنْ مَأْكله.

* الأَزهري: عَنْ ثَعْلَبٍ أَنه قَالَ: قَالَ الأَخفش فِي قَوْلِهِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، قَالَ: عَنْ رَدِّهِ أَمر رَبِّهِ، نَحْوُ قَوْلِ الْعَرَبِ اتَّخَمَ عَنِ الطَّعَامِ أَي عَنْ أَكله الطَّعَامَ، فَلَمَّا رَدّ هَذَا الأَمر فَسَقَ؛ قَالَ أَبو الْعَبَّاسِ: وَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلى هَذَا لأَن الفُسُوقَ مَعْنَاهُ الْخُرُوجُ. فَسَقَ عَنْ أَمر رَبِّهِ أَي خَرَجَ، وَقَالَ ابْنُ الأَعرابي: لَمْ يُسْمع قَطُّ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي شِعْرِهِمْ فاسِقٌ، قَالَ: وَهَذَا عَجَبٌ وَهُوَ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ؛ وَحَكَى شَمِرٌ عَنْ قُطْرُبٍ: فَسَقَ فُلَانٌ فِي الدُّنْيَا فِسْقاً إِذا اتَّسَعَ فِيهَا وهَوَّنَ عَلَى نَفْسِهِ وَاتَّسَعَ بِرُكُوبِهِ لَهَا وَلَمْ يُضَيِّقْهَا عَلَيْهِ. وفَسَقَ فُلَانٌ مالهُ إِذا أَهلكه وأَنفقه. وَيُقَالُ: إِنه لفِسْقٌ أَي خُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ.

* قال أَبو الْهَيْثَمِ: وَقَدْ يَكُونُ الفُسُوق شِرْكاً وَيَكُونُ إِثماً. والفِسْقُ فِي قَوْلِهِ: أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنه الذَّبْحُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ ، أَي بِئْسَ الِاسْمُ أَن تَقُولَ لَهُ يَا يَهُودِيُّ وَيَا نَصْرَانِيُّ بَعْدَ أَن آمن أَي لا تُعَيِّرهم بَعْدَ أَن آمَنُوا، وَيَحْتَمِلُ أَن يَكُونَ كلَّ لَقب يَكْرَهُهُ الإِنسان، وإِنما يَجِبُ أَن يُخَاطِبَ المؤمنُ أَخاه بأَحبّ الأَسماء إِليه؛ هَذَا قَوْلُ الزَّجَّاجِ.

● وَرَجُلٌ فَاسِقٌ وفِسِّيقٌ وفُسَقُ: دَائِمُ الفِسْقِ. وَيُقَالُ فِي النِّدَاءِ: يَا فُسَق وَيَا خُبَث، وللأُنثى: يَا فَسَاقِ مِثْلُ قَطام، يُرِيدُ يَا أَيها الفَاسِقُ وَيَا أَيها الْخَبِيثُ، وَهُوَ مَعْرِفَةٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنهم يَقُولُونَ يَا فُسَقُ الخبيثُ فَيَنْعَتُونَهُ بالأَلف وَاللَّامِ. وفَسَّقَه: نَسَبَهُ إِلى الفِسْقِ. والفَوَاسِقُ مِنَ النِّسَاءِ: الفواجرُ.

● والفُوَيْسِقةُ: الْفَأْرَةُ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنه سَمَّى الفأْرة فُوَيْسِقةً تَصْغِيرُ فاسِقَةٍ لِخُرُوجِها مِنْ

جُحْرِها عَلَى النَّاسِ وإفسادها. وَفِي حَدِيثُ عَائِشَةَ: وسئِلَتْ عَنْ أَكل الغُراب قَالَتْ: وَمَنْ يأْكله بَعْدَ قَوْلِهِ فاسِق، قَال الخَطَّابِيُّ أَراد تَحْرِيمَ أَكلها بتَفْسِيقها. وَفِي الحديث: خَمْس فَوَاسِق يُقْتَلْنَ فِي الحِلّ وَالحَرَمِ، قَالَ: أَصل الفِسْقِ الخُرُوجُ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ وَالجُوْرِ، وَبِهِ سُمِّيَ الْعَاصِي فَاسِقًا، وإنما سُمِّيَتْ هَذِهِ الحَيَوَانَاتُ فَوَاسِقَ عَلَى الِاسْتِعَارَةِ لِخُبْثِهِنَّ، وَقِيلَ: لِخُرُوجِهِنَّ عَنِ الحُرْمَةِ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ أَي لَا حُرْمَةَ لهن بحال.

* قَالَ اللَّيْث: الفِسق: التَّرْك لأمر الله، قَالَ: وَكَذَلِكَ المَيْل عَنِ الطاعةِ إِلَى المعْصية كَمَا فسق إِبْلِيس عنْ أَمر ربه.

قتل الفواسق

* قَتْلُ الخَمْسِ الْفَوَاسِقِ: قَالُوا: رُوِّيتُمْ أَنَّهُ قَالَ: "خَمْسٌ فَوَاسَقُ، يُقْتَلْنَ فِي الحل وَالحرم الْغُرَابُ، وَالحِدْأَةُ، وَالْكَلْبُ، وَالحَيَّةُ، وَالْفَأْرَةُ" م.

قَالَ: فَلَوْ قَالَ: اقْتُلُوا هَذِهِ الخَمْسَةَ وَخَمْسَةً مَعَهَا، لجَازَ ذَلِكَ فِي التَّعَبُّدِ. فَأَمَّا أَنْ تُقْتَلَ لِأَنَّهَا فَوَاسَقُ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ الْفِسْقَ وَالْهُدَى، لَا يَجُوزُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَالْهَوَامُّ، وَالسِّبَاعُ، وَالطَّيْرُ، غَيْرُ الشَّيَاطِينِ، وَغَيْرُ الجِنِّ وَالْإِنْسِ، الَّذِينَ يَكُونُ مِنْهُمُ الْفِسْقُ وَالْهِدَايَةُ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ الْمُعْتَقَدَ أَنَّ الْهَوَامَّ وَالسِّبَاعَ وَالطَّيْرَ، لَا يَجُوزُ عَلَيْهَا عِصْيَانٌ وَلَا طَاعَةٌ مُخَالِفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَأَنْبِيَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَكُتُبِ اللَّهِ الْمُتَقَدِّمَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَنَا عَنْ نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أَيْ بِعُذْرٍ بَيِّنٍ، وَحُجَّةٍ فِي غَيْبَتِهِ وَتَخَلُّفِهِ.

* وَهَذِهِ الْفَوَاسِقُ فِسْقُهَا طَبْعِيٌّ. وَلَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا. وَالْمُكَلَّفُ إِذَا ارْتَكَبَ الْفِسْقَ هَاتِكٌ لِحُرْمَةِ نَفْسِهِ. فَهُوَ أَوْلَى بِإِقَامَةِ مُقْتَضَى الْفِسْقِ عَلَيْهِ. وَهَذَا عِنْدِي لَيْسَ بِالْهَيِّنِ. وَفِيهِ غَوْرٌ، فَلْيُتَنَبَّهْ لَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* الْفَاسِق الْمُؤمن لَا يخرج من الْإِيمَان بِفِسْقِهِ لِأَن الْخُرُوج من الْإِيمَان إِنَّمَا يكون بِزَوَال التَّصْدِيق

والتصديق بَاقٍ فَيكون مُؤمنا ، الْفَاسِق لَا يخلد فِي النَّار لِأَن الخلود للْكفَّار وَهُوَ مُؤمن مُصدق

* الْفَاسِق من أهل الْمَغْفِرَة لِأَن الله تَعَالَى عَفْو غَفُور رَحِيم وَالْعَفو وَالْمَغْفِرَة وَالرَّحْمَة إِنَّمَا يتَحَقَّق فِي رفع عُقُوبَة من هُوَ جَائِز التعذيب بِسَبَب الْجِنَايَة إِذا ثَبت جَوَاز الْمَغْفِرَة لصَاحب الْكَبِيرَة ابْتِدَاء جَازَ أَن يغْفر ذَنبه بشفاعة الشافعين لِأَن مبْنى الشَّفَاعَة بِجَوَاز الْمَغْفِرَة فَإِذا جَازَ ذَلِك ابْتِدَاء من غير شَفَاعَة فَلأَن يجوز مَعَ الشَّفَاعَة بِالطَّرِيقِ الأولى

* الْفَاسِق إِذا خرج من دُنْيَاهُ من غير تَوْبَة وَقد ختم لَهُ على الْإِيمَان لَا يجوز أَن يُقَال أَن الله تَعَالَى يعذبه لَا محَالة وَلَا أَن يُقَال يعْفُو عَنهُ لَا محَالة بل هُوَ فِي مَشِيئَة الله تَعَالَى كَمَا قَالَ {إِن الله لَا يغْفر أَن يُشْرك بِهِ وَيغْفر مَا دون ذَلِك لمن يَشَاء} إِن شَاءَ عَفا عَنهُ بفضله وَكَرمه أَو ببركة مَا مَعَه من الإيمان أَو بشفاعة الشافعين أَو يعذبه بِقدر ذَنبه ثمَّ يدْخلهُ الْجنَّة

* (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ) ، يعني: يستقبح من المؤمن أن يجمع بين الإيمان وبين الوقوع في الفسق؛ لأن الإيمان يأبى الفسق ويحرمه؛ فلا علاقة بين الجملتين إلا من وجه معين، وهو أن التنابز في حد ذاته نوع من الفسق والمعصية.

وعلى الوجه الثاني وهو أن معنى: (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ) : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق أو باليهودية بعد إيمانه وإسلامه، تكون الجملة متعلقة بقوله تعالى: (وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) .

التفريق بين كفر النوع وكفر العين

● كفر النوع لا يستلزم كفر العين، فالبدعة نفسها تكون كفراً لكن لا يكون الشخص المتلبس بها كافراً، فأهل السنة والجماعة يفرقون بين الحكم المطلق على أصحاب البدع بالمعصية أو الفسق أو الكفر وبين الحكم على شخص معين ممن ثبت إسلامه بيقين، فالشخص إذا ثبت إسلامه بيقين لا يمكن أن تنفى عنه صفة الإسلام إلا بيقين.

فمن صدر عنه إحدى هذه البدع لا يمكن الحكم عليه بأن نقول له: كافر أو فاسق أو عاص إلا بتوافر شروط، وانتفاء موانع، فلا يحكمون عليه بذلك حتى يبين له مخالفة قوله للسنة؛ وذلك

بإقامة الحجة، وإزالة الشبهة، كما يفرقون بين نصوص الوعيد المطلقة وبين استحقاق شخص بعينه هذا الوعيد في أحكام الآخرة؛ لأن التكفير نوع من الوعيد، وأي فعل يترتب عليه وعيد فقد يكون أقل من الكفر، لأن الكفر أشد الأفعال وعيداً.

● لفظ الفسق قد يطلق على الكافر وعلى المسلم العاصي نحو هذه الاية {وَالَّذين يرْمونَ الْمُحْصنَات ثمَّ لم يَأْتُوا بأَرْبعَة شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جلدَة وَلَا تقبلُوا لَهُم شَهَادَة أبدا وَأُولَئِكَ هم الْفَاسِقُونَ}

الإثم

* عَنْ النَّوَّاس بْنَ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ، سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْم، فَقَالَ: " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ " مسند أحمد

* عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْبِرِّ، وَالْإِثْم، فَقَالَ: " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَعْلَمَهُ النَّاسُ " مسند أحمد

* عن الْخُشَنِيَّ، يَقُولُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي بِمَا يَحِلُّ لِي، وَيُحَرَّمُ عَلَيَّ، قَالَ: فَصَعَّدَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَوَّبَ فِيَّ النَّظَرَ، فَقَالَ (: " الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ " مسند أحمد

* عنْ أَبِي عَبْدِ الله السُّلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ وَابِصَةَ بْنَ مَعْبَدٍ صَاحِبَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: جِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَسْأَلُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْم، فَقَالَ: " جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ، وَالْإِثْم " فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُكَ أَسْأَلُكَ عَنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ: " الْبِرُّ مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ " حم

* الإثم والآثام: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب ، وجمعه آثام، ولتضمنه لمعنى البطء

* وقوله تعالى: فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ [البقرة/ ٢١٩] أي: في تناولهما إبطاء عن الخيرات. وقد أَثِمَ إثماً وأثاماً فهو آثِمٌ وأَثِمٌ وأَثِيمٌ. وتأثَّم: خرج من إثمه، كقولهم: تحوّب وتحرّج: خرج من حوبه وحرجه، أي: ضيقه.

وتسمية الكذب إثماً لكون الكذب من جملة الإثم، وذلك كتسمية الإنسان حيواناً لكونه من جملته.

* وقوله تعالى: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [البقرة/ ٢٠٦] أي: حملته عزته على فعل ما يؤثمه، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً [الفرقان/ ٦٨] أي: عذاباً، فسمّاه أثاماً لما كان منه، وقيل: معنى: «يلق أثاماً» أي: يحمله ذلك على ارتكاب آثام، وذلك لاستدعاء الأمور الصغيرة إلى الكبيرة، وعلى الوجهين حمل قوله تعالى: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [مريم/ ٥٩] .

* والآثم: المتحمّل الإثم، قال تعالى: آثِمٌ قَلْبُهُ [البقرة/ ٢٨٣] .

* وقوبل الإثم بالبرّ، فقال ﷺ: «البرّ ما اطمأنّت إليه النفس، والإثم ما حاك في صدرك» وهذا القول منه حكم البرّ والإثم لا تفسيرهما.

* وقوله تعالى: مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [القلم/ ١٢] أي: آثم.

* وقوله: يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ [المائدة/ ٦٢] . قيل: أشار بالإثم إلى نحو قوله: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ [المائدة/ ٤٤] وبالعدوان إلى قوله: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [المائدة/ ٤٥] ، فالإثم أعمّ من العدوان.

معاني الإثم في القرآن

(الإثم) بمعنى الكذب والزور، من ذلك قوله سبحانه: { لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)} [المائدة: ٦٣] يعني: عن قول الكذب والزور؛ وذلك أنهم كانوا يحكمون فيهم بغير حكم الله، ويكتبون كتباً بأيديهم ثم يقولون: "هذا من حكم الله، وهذا من كتبه". وذكر بعض المفسرين أن (الإثم) هنا بمعنى الشرك

(الإثم) بمعنى المعصية، من ذلك قوله عز وجل{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)} [المائدة: ٢] يعني: لا تتعاونوا على ترك ما أمركم الله بفعله، بل تعاونوا على ما أمركم الله بفعله والقيام به. ووفق هذا المعنى قوله

عز وجل: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) } [الأعراف: ٣٣]

- (الإثم) بمعنى الحرام، من ذلك قوله{ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)} [المائدة: ٣] أي: غير مائل لحرام، و(الجنف) الميل، و(الإثم) الحرام. وعلى هذا المعنى أيضاً قوله عز وجل{ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)} [البقرة: ١٨٨] يعني بقوله بالإثم بالحرام، الذي قد حرمه الله عليكم ومنه أيضاً قوله سبحانه : { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)} [البقرة: ٢٠٦] أي: إذا قيل للمنافق: اتق الله وخف عذابه، استكبر ودخلته عزة وحمية بما حرم الله عليه

- (الإثم) بمعنى مغفرة الذنوب، من ذلك قوله عز وجل في النفر من منى في أيام التشريق : { فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} [البقرة: ٢٠٣] أي: أنه خارج من ذنوبه، محطوطة عنه آثامه، مغفورة له أجرامه. وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما في تفسير المراد بـ(الإثم) في هذه الآية. وذهب ابن عباس إلى أن المراد بنفي (الإثم) في الآية نفي الحرج والجُناح، أي: لا حرج عليه ولا جُناح في تعجيل النفر أو تأخيره. قال الطبري" : ولا معنى لقول من تأول قوله (فلا إثم عليه) فلا حرج عليه في نفره في اليوم الثاني، ولا حرج عليه في مقامه إلى اليوم الثالث؛ لأن الحرج إنما يوضع عن العامل فيما كان عليه ترك عمله، فيرخص له في عمله بوضع الحرج عنه في عمله؛ أو فيما كان عليه عمله، فيرخص له في تركه بوضع الحرج عنه في تركه. فأما ما على العامل عمله، فلا وجه لوضع الحرج عنه فيه إن هو عمله، وفرضه عمله؛ لأنه محال أن يكون المؤدي فرضاً عليه حرجاً بأدائه، فيجوز أن يقال: قد وضعنا عنك فيه الحرج."

- (الإثم) بمعنى العقاب والعذاب، من ذلك قوله عز وجل :{ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)} [الفرقان: ٦٨] قال القرطبي" :الأثام في كلام العرب العقاب.

أجر

* الأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، نحو قوله تعالى: إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ [يونس/ ٧٢]، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [العنكبوت/ ٢٧]، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا [يوسف/ ٥٧].

والأُجرة في الثواب الدنيوي، وجمع الأجر أجور.

* وقوله تعالى: وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ [النساء/ ٢٥] كناية عن المهور، والأجر والأجرة يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد، ولا يقال إلا في النفع دون الضر، نحو قوله تعالى: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ [آل عمران/ ١٩٩]، وقوله تعالى: فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ [الشورى/ ٤٠]. والجزاء يقال فيما كان عن عقدٍ وغير عقد، ويقال في النافع والضار، نحو قوله تعالى: وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً [الإنسان/ ١٢]، وقوله تعالى: فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ [النساء/ ٩٣].

* يقال: أَجَر زيد عمراً يأجره أجراً: أعطاه الشيء بأجرة، وآجَرَ عمرو زيداً: أعطاه الأجرة، قال تعالى: عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ [القصص/ ٢٧]، وآجر كذلك، والفرق بينهما أنّ أجرته يقال إذا اعتبر فعل أحدهما، وآجرته يقال إذا اعتبر فعلاهما، وكلاهما يرجعان إلى معنى واحدٍ، ويقال: آجره الله وأجره الله.

* والأجير: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلب الشيء بالأجرة، ثم يعبّر به عن تناوله بالأجرة، نحو: الاستيجاب في استعارته الإيجاب، وعلى هذا قوله تعالى: اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ [القصص/ ٢٦].

بصيرة في الأجر

وقد ورد في النَّصّ على أَربعة أَوجه:

الأَول: بمعنى صَدُقات الأَزواج: {فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}.

الثاني: بمعنى ثواب الطَّاعة: {وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أَجْرَهُمْ} أَي ثوابهم. ولها نظائر.

الثالث: بمعنى الجُعْل والغُرْم: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}، {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِّن

مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} .

الرّابع: بمعنى نفقة الدّايات: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} بمعنى نفقة الرّضاع.

وأَجَره كنصره: أَعطاه الشيء بأَجْره {على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ} وآجره كذلك. والفرق أَن أَجره يقال إِذا اعتبر (فعل أَحدهما، وآجره إِذاً اعتبر فعلاهما، وكلاهما يرجعان إِلى معنى. ويقال: أَجَره الله وآجره) . والاستئجار: طلب الشيء بأُجْرة، ثمّ يعبّر به عن تناول بالأُجْرة. {يا أبت استأجره} .

بصيرة في ظلم

* والظَّلام: ذَهاب النُّور. والظُّلمات: جمع ظُلمة. ويعبّر بها عن الجهل، والشرك، والفسق، كما يعبّر بالنور عن أَضدادها، قال الله تعالى: {الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور}

*وقوله: {كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات} هو كقوله: {كَمَنْ هُوَ أعمى} ، وقوله: {والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات} .

* وقوله: {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ} ، أَي البطن، والرّحم، والمَشِيمَة. ويجمع على ظُلَم أَيضًا، قال تعالى: {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر} في المنّة على العباد بالهداية عند التحيّر في الفيافي والفلوات، وفى البحار عند الأَمواج المرعبات بالليالي الحالكات، وكذا قوله تعالى: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر} . وقال تعالى في تشبيه بحار الكفر والضلالات بالبحار الموّاجة والأَمواج المهلكات: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} .

* والظُّلْم: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إِمّا بنقصان أَو زيادة، وإِمّا بعدول عن وقته أَو مكانه. ظَلَم يَظْلِم ظَلْمًا ومَظْلِمَة، فهو ظالم وظَلُومٌ. [وظَلَمَهُ] حقَّه وتظلَّمه إِيّاه. وتظلَّم: أَحال الظلم على نفسه، ومِن فلان: شكا من ظلمه.

* والظلم يقال في مجاوزة الحقّ، ويقال في الكثير والقليل، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير والذنْب الصّغير. ولذلك قيل لآدم - صلوات الله عليه وسلامه - في تعدِّيه: ظالم. وفى إِبليس: ظالم، وإِن كان بين ظلميهما من البَون ما لا يخفى.

* قال بعض الحكماءِ: الظُّلْم ثلاثة: ظلم بَيْن الإِنسان وبين الله تعالى، وأَعظمه الكفر، والشِّرْك، والنِّفاق، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} ، وإِيَّاه قَصَد بقوله: {أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين} والثاني: ظلم بيْنه وبين النَّاس، وإِيّاه قَصَد بقوله: {إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس} والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، قال تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} ، وقال: {وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين} ، أَي من الظالمين أَنفسهم، وقال لنبيّه: {فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين} . وكلّ هذه الأَقسام في الحقيقة ظلم للنفس؛ فإِنَّ الإِنسان أَوّل ما يهُمّ بالظلم فقد ظلم نفسه. فإِذًا الظالمُ أَبدا مُبتدىء بنفسه في الظلم، فلهذا قال تعالى في غير موضع: {وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولاكن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

* وقوله: {وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} ، قيل: هو الشرك، بدلالة أَنَّه لمّا نزلت هذه الآية شقَّ على أَصحاب النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: "أَلَم تَرَوْا إِلى قوله: {إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} "؟!

* وقوله: {وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً} ، أَي لم تنقص. وقوله: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ} يتناول الأَقسام الثلاثة، فما من أَحد كان منه ظلم في الدنيا إِلاَّ ولو حَصَل [له] ما في الأَرض وأَمثالُه لافتدى به يوم القيامة.

* وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى} تنبيه أَنَّ الظلم لا يُغنى ولا يُجدى، بل يُردى بدلالة قوم نوح. وقوله في موضع آخر: {وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ} ، وفى موضع آخر: {وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} . وفى الحديث: "الظُلم ظلمات يوم القيامة". وفى كلام الحكماءِ: المُلْك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم. قال:

لا تظلمنّ إِذا ما كنتَ مقتدِرًا ... فالظلم آخره يأْتيك بالندم

نامت عيونُك والمظلوم مُنْتَبِهٌ ... يدعو عليك وعينُ الله لم تَنَم

* قال ﷺ: "اتَّقِ دعوة المظلوم فإِنَّه ليس بينها وبين الله حجاب". والأَحاديث في هذا المعنى كثيرة. قال:

يا أَيها الظالم فى فِعْلِهِ ... فالظُّلم مردودٌ على مَن ظَلَمْ

إِلى مَتَى أَنت وحتَّى متى ... تَسْلُو المصيباتِ وتنسَى النِّقَمْ

* {أَلاَ إِنَّ الظالمين فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} ، {وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب} ، {وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ} ، أَي وهم موقوفون.

* وقوله: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ} قيل: عامّ، وقيل: المراد به عُقبة بن أَبى مُعيط خصوصًا. {وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ} ، قيل المراد أَبو جهل وأَشياعه. {وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ} ، قيل المراد الوليد بن المغيرة وأَتباعه.

تهذيب الأسماء واللغات قال أهل اللغة: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، قالوا هم وأصحابنا المتكلمون وهو أيضا: التصرف في غير ملك. قال أصحابنا وغيرهم: ويستحيل أن يقع الظلم من الله تعالى فإن العالم ملكه فلا يتصرف في غير ملكه، وقوله تعالى: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة} وأشباهه من الآيات الكريمة معناه: لا يتصور الظلم في حقه سبحانه وتعالى، ولا يقع منه هذا، معناه الذي يجب على كل أحد اعتقاده، وأما ما يقع في كتب المفسرين لا يعاقب بغير جرم خطأ صريح وجهل قبيح، مردود على قائله، وإن كان كبير المرتبة فلا يعتد بما يراه من ذلك. وقول الله تبارك وتعالى: {وما ربك بظلام للعبيد} هذا مما يسأل عنه كثيرًا عن الحكمة في بنائه على فعال الذي هو للكثرة، ولا يلزم من نفي الظلم الكثير نفي القليل بخلاف العكس، والجواب: من أوجه ذكر منها أبو البقاء العكبري في كتابه إعراب القرآن أربعة أوجه في سورة آل عمران

الموت

فوائد ذكر الموت

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ» ، يَعْنِي الْمَوْتَ

* عَن أَنَس؛ أَن رَسولَ الله ﷺ مَرَّ بِمَجْلِسٍ وَهُمْ يَضْحَكُونَ فَقَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ مِنَ الْعَيْشِ إلاَّ وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، ولاَ فِي سَعَةٍ إلاَّ ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ. صح

١ – الإقلاع عن الذنوب والإنابة إلى علام الغيوب ٢ – أنه يدعو إلى قصر الأمل

٣ – اغتنام الأوقات، والمسارعة لفعل الطاعات ٤ – الاتعاظ وأخذ العبرة

٥ – عدم الركون إلى الدنيا، والالتفات إلى الباقية ٦ – القناعة

٧ – يُهوِّن مصائب الدنيا ٨ – القلب يلين ويخشع، والنفس تطمئن، والجوارح تسكن:

٩ – محاسبة النفس

فوائد الموت

١ – الموت السبيل الموصل للقاء الله ﷻ ٢ – الموت سبيل لدخول الجَنَّة، والفوز بالنعيم المقيم

٣ – الموت خير للمؤمن من الفتنة ٤ – الموت راحة للمؤمن

ما ينفع الميت من كسب غيره

١ – صلاة الجنازة عليه. ٢ – الوقوف عند القبر بعد دفن الميت والدعاء والاستغفار له.

٣ – الدعاء للميت عند زيارته في المقابر. ٤ – قضاء الدين عنه.

٥ – قضاء ما عليه من نذر (نذر مالي أو صيام). ٦ – الصّدقة.

٧ – العتق والصدقة والحج. ٨ – العمرة.

ما ينفع الميت من كسبه

١ – الغرس والزرع. ٢ – إذا سنَّ الميت سُنَّة حسنة أو دعا إلى هدى.

٣ – الموت جهادًا في سبيل الله. ٤ – العلم النافع الذي نشره وأذاعه وعلى رأسه العلم الشرعي.

٥ – الصدقـة الجارية.　　　　٦ – الولد الصالح.

* فإن الله تعالى خلق الموت والحياة، كما قال سبحانه وتعالى :(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) [الملك:٢] .

ما هو الموت

* والموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها له، والحياة هي تعلق الروح بالبدن واتصالها به. هذه هي حقيقة الموت والحياة، إلا أن الله تعالى يجسد الموت يوم القيامة في هيئة كبش ثم يذبح، لما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ"يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون – (يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم للنظر) – وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل النار فيشرئبون، فيقول: هل تعرفون هذا؟. فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ :(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) [مريم:٣٩] .

* قال الإمام ابن القيم في كتاب الروح: والصواب أن يقال: أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار .

علامات الموت

* وقد ذكر الفقهاء علامات على الموت منها : (انقطاع النفس ، واسترخاء القدمين ، وعدم انتصابهما ، وانفصام الكفين وميل الأنف وامتداد جلدة الوجه ، وانخساف الصدغيين ، وتقلص الخصيتين مع تدلي الجلدة ، وبرودة البدن) وهذه العلامات جميعها ليست علامات مؤكدة على الموت ما عدا انقطاع النفس الذي ينبغي أن يستمر لفترة من الزمن ، وقد تنبه بعض الفقهاء إلى احتمالات الخطأ في تشخيص الوفاة : فقرر التريث في تشخيص الوفاة : قال الإمام النووي في

روضة الطالبين (فإن شك بأن لا يكون به علة ، واحتمال أن يكون به سكتة ، أو ظهرت إمارات فزع أو غيره ،أخّر (أي تشخيص) إلى اليقين بتغير الرائحة أو غيره) .

معنى الموت في القاموس

المَوْتُ :ضدُّ الحياة.

* ويطلق الموت ويراد به، ما يقابل العقل والإيمان، نحو ما في التنزيل العزيز: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ .الأنعام آية ١٢٢ فِإِنَّكَ لاَتُسْمِعُ الْمُوْتَى (الروم)

* كما يراد به: ما يُضعف الطبيعَة ولا يلائمها ، كالخوف والحزن، كقوله تعالى: إبراهيم آية ١٧ (وَيَأْتِيهِ الْمُوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) ، والأَحوالِ الشَّاقة كالفَقر والذلُّ والهَرَم والمعصية.

* مَوَّتَ :موَّتهُ أماتَهُ، قتله وقضى عليه-: موَّت الزلزالُ سكّانَ القرية.

*الأَزهري عن الليث :المَوْتُ خَلْقٌ من خَلق الله تعالى

* موت الدّماغ: تلف وفقدان وظائف الدِّماغ ، ويُستدلّ عليه بتوقُّف التنفّس وقدرات حيويّة أخرى وعدم الاستجابة للمنبّهات وغياب النشاط العضليّ وثبات مرسمة موجات الدِّماغ لفترة مُعيّنة من الوقت

* موت زؤام: زُؤاف؛ عاجل سريع :-الاستقلال التامّ أو الموت الزُّؤام.

* كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمُوْتِ : زَوَالُ الْحَيَاةِ عَنْ كُلِّ كَائِنٍ حَيٍّ.

* الْمُوْتُ الأَبْيَضُ :- : زَوَالُ الْحَيَاةِ عَنِ الكَائِنِ طَبِيعِيّاً-: .الْمُوْتُ الطَّبِيعِيُّ.

*الْمُوْتُ الأَحْمَرُ :- : زَوَالُ الْحَيَاةِ قَتْلاً.

*الْمُوْتُ الأَسْوَدُ :- : زَوَالُ الْحَيَاةِ خَنْقاً.

*الْمُوْتُ الزُّؤَامُ :- : زَوَالُ الْحَيَاةِ فَجْأَةً، سَرِيعاً.

* خطر الموت :يقصد بهذه العبارة تنبيه الأشخاص بعدم لمس أو الاقتراب من أي شيء مسجَّل عليه: خطر الموت

* فلانٌ بين الحياة والموت :يعاني سكرات الموت فلانٌ على فِراش الموت :يحتضر

*مَوْت الملك: (الرياضة والتربية البدنية) نقلة حجر في لعبة الشطرنج تحصر الملك وتُنْهي اللّعبة.

* الموت المدنيّ: (القانون) الحرمان من الحقوق المدنيّة نتيجة ...

* داري بِميتاءِ داره أَي بِحذائِها ويقال: لم أَدْرِ ما مِيداء الطريق ومِيتاؤُه؛ أَي لم أَدْرِ ما قَدْرُ جانبيه وبُعْدِه؛ وأَنشد إِذا اضْطَمَّ مِيتاءُ الطريقِ عليهما مَضَتْ قُدُماً مَوْجُ الجبالِ زَهُوق ويروى مِيداءُ الطريق

* وفي حديث أَبي ثَعْلبة الخُشَنِيّ: أَنه اسْتَفْتَى رسولَ الله، ﷺ في اللُّقَطة، قال: ما وَجَدْتَ في طَريقٍ مِيتاءٍ فَعَرِّفْ سَنَةً

* ماتَ :سَكَنَ، ونامَ، وبَلِيَ، مَيْتُ :الذي ماتَ،

* المَيِّتُ والمائِتُ: الذي لم يَمُتْ بعدُ الجمع :أَمْواتٌ ومَوْتى ومَيِّتون ومَيْتونَ وهي مَيِّتَةٌ ومَيْتَةٌ ومَيِّتٌ

* مَيْتَةٌ :ما لم تَلْحَقْه الذَّكاةُ، مِيْتَةٌ :للنَّوعِ.

* ما أَمْوَتَه :ما أَمْوَتَ قَلْبَه، لأَنَّ كُلَّ فعْلٍ لا يَتَزَيَّدُ، لا يُتَعَجَّبُ منه.

* مَواتُ :ما لا رُوحَ فيه، وأرضٌ لا زرع فيها

* استماتَ / استماتَ لـ يستميت ، اسْتَمِتْ ، استماتةً ، فهو مُستمِيت ، والمفعول مستماتٌ له

* استمات الشَّخصُ طاب نفسًا بالموت وثبت غير مبالٍ، طلب الموتَ -:استمات الجُنديُّ دفاعًا عن وطنه، - ما كان في الجيش إلاّ كلّ مستميت مقدام.

* ذهب في طلب الشّيءِ كلّ مذهب :-إنّه مستميت في الحصول على الجائزة، -استمات العالمُ في الدفاع عن مكتشفاته العلميّة.

* استمات للأمر: استرسل فيه :-جاهد جهاد المُستميت، -استمات لهواها، -كان مستميتًا في أداء واجبه.

* أُمِيتَتِ الكلمةُ: تُرِك استعمالُها، هُجِرت

❁ السَّبع المميتة : الغضب، والغيرة، والحَسَد، والشَّره، والشَّهوة، والكِبْر، والكسَل تعتبر مميتة للرّوح.

* أمات غرائِزَه / أمات شهواتِه: كبتها وسيطر عليها-: أمات غضبَه: سكّنه، -أمات نفسَه: قهرها وأذلّها.

أنواع الموت في القرآن

❁ الموت أَنواع، كما أَنَّ الحياة أَنواع.

* فمن الموت ما هو بإِزاءِ القوّة النَّامية الموجودة في الإِنسان والحيوان والنبات، نحو قوله تعالى: {لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً} ، لم يقل: مَيْتَة لأَنَّ المَيْتَ يستوى فيه المذكَّر والمؤَنث.

* وموتٌ هو زوال القوّة الحسّاسة، قال تعالى: {وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً}

* وموت هو زوال القوّة العاقلة، وهى الجهالة، قال تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ} ، وإِيّاه قَصَد بقوله: {إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى} .

* وموت بالتشّبه، وهو كل أَمر جليل يكدّر العيش وينقص الحياة. وإِيّاه قَصَدَ بقوله: {وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} .

* ومنها النوم؛ كما يقال: النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل، وعلى هذا النحو سمّاه الله توفِّيا، قال الله تعالى: {الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} ، وقد مات يموت ويَمَات أَيضاً. وأَكثر من يتكلَّم بها طيِّيءٌ. وقد تكلَّم بها سائر العرب

قال عَدِيُّ بن الرَّعْلاَءُ:

ليس من مات فاستراح بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا المَيْت مَيِّت الأَحياءِ

إِنما المَيْتُ مَن يَعيش ذليلاً ... كاسفاً بالُه قليل الرَّجَاءِ

قال الفراءُ: يقال لمن لم يمت: إِنه مائت عن قليل وميّت، ولا يقال لمن مات: هذا مائت.

* والموت: السّكون، ماتت الرّيح أَي سكنت. ومات الرّجل وهَوّم أَي نام. ومات الثوبُ أَي

بَلى. والمَوْتة: الواحدة من الموت. ومَوْت مائت كلَيلٍ لائلٍ، والمُواتِ – بالضم –: الموت. والمَوَات – بالفتح –: ما لا روح فيه. والمَوَات أَيضاً: الأَرض لا مالك لها من بنى آدم، ولا يَنتفِع بها أَحد. والمَوَتان: خلاف الحيوان. وفى المثل: اشتر المَوَتّان، ولا تشتر الحَيَوَان. أَي اشتر الأَرضين والدُّور ولا تشتر الرّقيق والدّواب. والمَوَتَان من الأَرض: الَّتي لم تُحْيَ بعد. وفى الحديث: "مَوَتان الأَرض لله ولرسوله، فمن أَحيا منها شيئاً فهو له".

* وقوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ} قيل: نفى الموت عنهم والمراد نفيُه عن أَرواحهم، تنبيهاً على ما هم فيه من النعيم. وقيل: نفى عنهم الحزن المذكور في قوله: {وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ}.

* وقوله: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت} المراد زوال القوّة الحيوانيّة، ومفارقة الروّح البدَن.

* وقوله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ} قيل معناه: ستموت تَنْبيهاً على أَنه لابدّ لكلّ أَحد من الموت، وقيل: بل إِشارة إِلى ما يعترى الإِنسان دائماً من التحَلّل والنقص؛ فإِن البشر ما دام فى الدّنيا يموت جزءا فجزءا.

* والمَيْتة من الحيوان: ما مات بغير تذكية. والمستميت: المتعرّض للموت الذى لا يُبالى في الحرب من الموت. والمستميت للأَمر: المسترسل. والمُوتة – بالضمّ – شِبْه الجنون والصَّرْع، كأَنه من موت العلم والعقل. ومنه رجل مَوْتان القلب وامرأَة مَوْتانة. وأَماته الله ومَوّته للمبالغة. وأَمات فلان: إِذا مات له ابن أَو بنون، وكذلك الناقة والمرأَة، فهي مُميت ومميتة، وجمعها: مَمَاويت. وأَمات الشيء طبخاً: بالغ في نضجه، وموّتت الإِبلُ: ماتت، فهو لازم ومتعدّ. قال مجنون عامر:

فعُروةُ مات موتاً مستريحاً ... فها أَنا ذا أُموَّتُ كُلَّ يوم

والمتماوت من صفة الناسك.

بصيرة في الحياة

والحي ضدّ الميّت. والحِيُّ بالكسر والحيوان – محرّكة – والحياة والحَيَوْة بفتح الياء وسكون الواو: نقيض الموت.

أوجه الحياة في القرآن

❁ والحياة يستعمل على أَوجه:

الأَوّل: للقوّة النَّامية الموجودة في النبات والحيوان. ومنه قيل: نبات حَيّ: قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ المَآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} .

الثَّاني: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّى الحيوان حيواناً {وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات} وقال تعالى {إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى} فقوله {إِنَّ الذي أَحْيَاهَا} إِشارة إِلى القوة النَّامية. وقوله {لَمُحْيِ الموتى} إِشارة إِلى القوّة الحسّاسة.

الثالث: للقوّة العالِمة العاقلة كقوله تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ} .

قال الشاعر:

لقد أَسمعت لو ناديتَ حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تنادى

الرّابع: عبارة عن ارتفاع الغَمِّ. وبهذا النَّظر قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بمَيْت ... إِنما المَيْت ميّت الأَحياءِ

* وعلى هذا قوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ} أَي [هم] متلذِّذون، لما روى فى الأَحاديث الصّحيحة من بيان أَرواح الشهداءِ.

الخامس: الحياة الأُخروية الأَبديّة. وذلك يتوصّل إِليه بالحياة الَّتي هي العقل والعلم. وقوله تعالى: {يا ليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} يُعْنى به الحياة الأُخرويّة الدّائمة.

السّادس: الحياة الَّتي يوصف بها البارئ تعالى، فإِنَّه إِذا قيل فيه تعالى: هو حي فمعناه: لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إِلاَّ لله تعالى.

* والحياة باعتبار الدّنيا والأُخرى ضربان: الحياة الدّنيا والحياة الآخرة.

قال تعالى: {وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ مَتَاعٌ} أَي الأَعراض الدنيوية. وقوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ} أَي حياة الدنيا.

وقوله تعالى: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى} كان يطلب أَن يُريه الحياة الأُخرويّة المعرّاةَ عن

شوائب الآفات الدّنيوية.

* وقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ} أَي يرتدع بالقصاص مَن يريد الإِقدام على القتل، فيكونُ في ذلك حياة النَّاس. وقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً} أَي من نَجَّاها من الهلاك. وعلى هذا قوله: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} أَي أَعفو فيكون إِحياءً.

* والحيوان: مقرّ الحياة. ويقال على ضربين: أَحدهما ماله الحاسّة، والثَّاني ماله البقاءُ الأَبدي. وهو المذكور في قوله تعالى: {وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان} وقد نبّه بقوله (لهى الحيوان) أن الحيوان الحقيقيَّ السّرمديُّ الَّذى لا يفنى، لا ما يبقى مدّةً ويفنى بعد مدّةٍ. وقال بعض اللغويّين الحيوان والحياة واحدٌ. وقيل: الحيوان ما فيه الحياة والمَوَتان ما ليس فيه الحياة.

* والحيا: المطر لأَنَّه يحيى به الأَرض بعد موتها. وقوله تعالى: {نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسمه يحيى} فيه تنبيه أَنه سماه بذلك من حيث إِنَّه لم تمته الذُّنوب، كما أَماتت كثيراً من ولد آدم، لا أَنَّه كان يعرف بذلك فقط فإِنَّ هذا قليل الفائدة.

* قوله تعالى: {يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي} أَي يخرج النَّبات من الأَرض والإِنسان من النطفة.

* وقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ} فالتحيّة أَن يقال: حيّاك الله أَي جَعَل لك حياة. وذلك إِخبار ثمّ يجعل دعاء [ويقال: حيّا فلان فلانا تحيّة إِذا قال له ذلك، وأَصل التحية من الحياة، ثم جعل ذلك دعاء] تحيّة لكوْن جمعيه غير خارج عن حصول الحياة أَو بسبب الحياة إِمّا لِدنيا أَو لآخرة. ومنه التَّحِيَّاتُ لله.

الحب والمحبة

* ولا يُحَدّ المحبّة بحدّ أَوضح منها، والحدود لا تزيدها إِلاَّ خفاءً وجفاءً فحدّها وجودها. ولا توصف المحبّة بوصف أَظهر من المحبّة، وإِنَّما يتكلَّم النَّاس في أَسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأَحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستّة.

وجوه الحب

وهذه المادّة تدور في اللُّغة على خمسة أَشياءَ:

* أَحدها الصّفاء والبياض ومنه قيل حَبَب الأَسنان لبياضها ونضارتها.

* الثاني: العُلُوّ والظُّهور ومنه حَبَب الماءِ وحَبَابه وهو ما يعلوه من النفاخات عند المطر، وحَبب الكأْس منه.

* الثالث: اللُّزوم والثبات ومنه حَبَّ البعير وأَحبّ إِذا برك فلم يقُم.

* الرَّابع: اللُّباب والخلوص. ومنه حَبّة القلب لِلبّه وداخله. ومنه الحَبّة لواحدة الحبوب إِذ هي أَصل الشيء ومادَّته وقوامه.

* الخامس: الحفظ والإِمساك ومنه حُبّ الماءِ للوعاءِ الَّذى يُحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثُّبوت أَيضاً.

* ولا ريب أَنَّ هذه الخمسة من لوازم المحبّة، فإِنَّها صفاءُ المودّة وهَيَجان إِرادة القلب وعلوّها وظهورها منه لتعلُّقها بالمحبوب المراد وثبوت إِرادة القلب للمحبوب ولزومها لزوم لا تفارق، ولإِعطاءِ المحبّ محبوبه لبّه وأَشرف ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عَزَماته وإِراداته وهُمومه على محبوبه. فاجتمعت فيها المعاني الخمسةُ. ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للشَّيء غاية المناسبة: الحاء الَّتي من أَقصى الحَلق والباء للشفة الَّتي هي نهايته، فللحاءِ الابتداء وللباء الانتهاء، وهذا شَأْن المحبّة وتعلُّقها بالمحبوب، فإِنَّ ابتداءَها منه وانتهاءَها إِليه.

* ويقال في فعله: حبَبت فلاناً بمعنى أَصبت حَبَّة قلبه، نحو شَغَفته وكَبَدته وفأَدته، وأَحببت فلاناً جعلت قلبي مُعَرَّضاً لأَن يُحِبّه. لكن وضع في التعارف محبوب موضعَ مُحَبّ واستعمل

حبَبت أَيضاً في معنى أَحببت، ولم يقولوا مُحَبّ إِلاَّ قليلاً قال:

ولقد نزلتِ فلا تظنى غيره ... منى بمنزلة المُحَبّ المكرم

* وأَعطَوْا الحُبّ حركة الضمّ الَّتي هي أَشدّ الحركات وأَقواها، مطابَقة لشِدّة حركة مسمَّاه وقوّتها، وأَعطَوُا الحِبّ وهو المحبوب حركة الكسر لخفَّتها عن الضمَّة، وذلك لخفَّة ذكر المحبوب على قلوبهم وأَلسنتهم مع إِعطائه حكم نظائره كنِهْد وذِبْح للمنهود والمذبوح وحِمْل للمحمول، فتأَمّل هذا اللُّطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين اللَّفظ والمعنى يُطلعْك على قَدْر هذه اللغة الشريفة وإِنَّ لها لشأْنا ليس كسائر اللغات.

آيات في المحبة

* وقد ذكر الله تعالى ذلك في مواضع كثيرة من التنزيل الحميدىّ منها {فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} {والذين آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً للَّهِ} {وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله} {إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله} {والله يُحِبُّ المحسنين} {والله يُحِبُّ الصابرين} {إِنَّ الله يُحِبُّ التوابين وَيُحِبُّ المتطهرين} {إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} {إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين} {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ} {إِني أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير} {ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان} وقال تعالى {والله لاَ يُحِبُّ الفساد} {إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} وقال تعالى {إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان} أَي آثروه عليه. وحقيقة الاستحباب أَن يتحرّى الإِنسانُ في الشيء أَن يحبّه. واقتضى تعديتُه بعَلى معنى الإِيثار، وفى الحديث الصّحيح "إِذا أَحبّ الله عبداً دعا جَبْرئيلَ فقال: إِني أُحِبُّ فلاناً فأَحِبَّه فيحبّه جبرئيل، ثم ينادى في السّماءِ فيقول: إِنَّ الله يحبّ فلاناً فأَحِبُّوه فيحبّه أَهْلُ السّماءِ، ثمّ يوضَع له القَبولُ في الأَرض" وفى البُغْض ذُكِر مثل ذلك. وفى الصّحيح أَيضاً: "ثلاث مَن كُنَّ فيه وَجَد بهنّ حلاوة الإِيمان: أَن يكون الله ورسولُه أَحبَّ إِليه مِمَّا سواهما، وأَن يحبّ المرءُ لا يحبّه إِلاَّ لله"، وفى صحيح البخاري: "يقول الله تعالى: مَن عادى لي وليّاً فقد آذَنْتُهُ بالحرب، وما تقرب إِلىّ عبدى بشيء أَحبَّ إِلىَّ من أَداءِ ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إِلىّ بالنَّوافل حتَّى أُحبّه. فَإِذَا أَحببته كنت سمعه

الَّآذى يسمع به، وبصرَه الَّذى يبصر به، ويدَه الَّتي يبطِش بها ورجلَه التي يمشى بها. وإِن سأَلني أَعطيته ولئن استعاذني لأُعيذنَّه". وفى الصّحيحين من حديث أَمير السّريَّة الذى كان يقرأُ {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} لأَصحابه في كلِّ صلاة وقال: لأَنَّها صفة الرّحمن وأَنا أُحبّ أَن أَقرأَ بها فقال النبي ﷺ: "أَخبروه أَنَّ الله يحبّه" وعن التِّرمذي عن أَبى الدَرداءِ يرفعه: "كان مِن دعاءِ داود عليه السّلام: اللهمّ إِنِّي أَسأَلك حبّك وحبّ من يحبّك، والعملَ الَّذى يبلِّغني حبَّك. اللَّهم اجعل حُبّك أَحبّ إِلىّ من نفسى وأَهلي، ومن الماء البارد". وفيه أَيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخَطْمِيِّ أَنَّ النبي ﷺ كان يقول في دعائه: "اللهمّ ارزقني حبّك وحبّ من يحبّك وحبّ مَن ينفعني حبُّه عندك. اللهمّ ما رزقتني ممّا أُحبّ فاجعله قوّة لي فيما تحبّ، وما زَوَيت عنِّى ممّا أُحبّ فاجعله فراغاً لي فيما يحبّ".

❁ والقرآن والسنَّة مملوءَان بذكر مَن يحبّ اللهُ سبحانه من عباده، وذكر ما يحبّه من أَعمالهم وأَقوالهم وأَخلاقهم. فلا يلتفت إِلى مَن أَوّل محبّته تعالى لعباده بإِحسانه إِليهم وإِعطائهم الثواب، ومحبّةَ العباد له تعالى بمحبّته طاعته والازدياد من الأَعمال لينالوا به الثواب، فإِن هذا التأْويل يؤدّى إِلى إِنكار المحبّة، ومتى بطلت مسأَلة المحبّة بطلت جميع مقامات الإِيمان والإِحسان، وتعطَّلت منازلُ السَّيْر، فإِنَّها رُوح كلِّ مَقَام ومنزلةٍ وعمل، فإِذا خلا منها فهو ميّت، ونسبتها إِلى الأَعمال كنسبة الإِخلاص إِليها، بل هي حقيقة الإِخلاص، بل هي نفس الإِسلام، فإِنَّه الاستسلام بالذُّل والحُبّ والطَّاعة لله. فمن لا محبَّة له لا إِسلام له البتَّة.

مراتب المحبة عشرة

❁ ومراتب المحبّة عشرة: الأَوّل العلاقة والإِرادة والصبابة، والغرام وهو الحبّ اللاَّزم للقلب ملازمةَ الغريم لغريمه، ثمّ الوُدّ وهو صفو المحبّة وخالصها ولُبّها، ثمّ الشغَف، شُغِفَ بكذا فهو مشغوف أَي وَصَل الحُبّ شَغَاف قلبه وهو جِلدة رقيقة على القلب، ثمّ العشق وهو الحبّ المفرط الَّذى يُخاف على صاحبه منه، وبه فسّر {وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} ثمّ التَتَيُّم وهو المحبّة والتذلُّل، تَيَّمه الحُبّ أَي عَبَّده وذَلَّله وتَيْم الله عَبْد الله، ثمَّ التعبّد وهو فوق التتيُّم فإِنَّ العبد الذى

مَلَك المحبوبُ رِقَّه فلم يبق له شيء من نفسه البتَّة، بل كلُّه لمحبوبه ظاهراً وباطناً. ولَمَّا كَمّل سيّد ولد آدم هذه المرتبة وصفه الله بها في أَشرف مقاماته بقوله {سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً} وفي مقام الدّعوة {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ} وفي مقام التحدّي {وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا} وبذلك استحقّ التقدّم على الخلائق في الدّنيا والآخرة. العاشر: مرتبة الخُلَّة الَّتي استحقّ التقدّم على الخلائق في الدّنيا والآخرة. العاشر: مرتبة الخُلَّة الَّتي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام؛ كما صحّ عنه "إنَّ الله اتَّخذني خليلاً كما اتَّخَذَ إبراهيم خليلاً" وقال "لو كنت متَّخِذاً من أَهل الأَرض خليلاً لاتَّخذتُ أَبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرّحمن" والخلَّة هي المحبّة الَّتي تخلَّلْت روح [المحب] وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير محبوبه.

أسباب جالبة للمحبة

* والأَسبابُ الجالبة للمحبة عشرة: الأَول: قراءَة القرآن بالتَّدبّر والتفهُّم لمعانيه وتفطُّن مراد الله منه. الثاني: التَّقَرّب إِلى الله تعالى بالنَّوافل بعد الفرائض؛ فإِنَّها توصِّل إِلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبّة. الثالث: دوام ذكره على كلِّ حال باللِّسان والقلب والعلم والحال فنصيبه من المحبّة على قدر نصيبه من هذا الذكر. الرابع: ايثار مَحَابِّه على محابّك عند غلبات الهوى. الخامس: مطالعة القلب لأَسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها فمن عرَف الله بأَسمائه وصفاته وأَفعاله أَحبّه لا محالة. السادس مشاهدة برّه وإِحسانه ونِعمه الظَّاهرة والباطنة. السابع: وهو من أَعجبها – انكسار القلب بكلِّيَّته بيْن يديه. الثامن: الخَلْوة به وقت النُّزول الإِلهىّ لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقالب والقلب بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتَّوبة. التَّاسع: مجالسة المحبّين والصّادقين والتقاطُ أُطايب ثمرات كلامهم وأَلاَّ يتكلم إِلاَّ إذا ترجّحت مصلحةُ الكلام وعَلِم أَنَّ فيه مزيداً لحالِهِ. العاشر: مباعدة كلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله عزَّ وجَلَّ. فمن هذه الأَسباب وصل المحبّون إِلى منازل المحبّة، ودخلوا على الحبيب وفي ذلك أَقول:

تِلاوةُ فهمٍ معْ لزوم نوافل ... وذكرٌ دواماً وانكسارٌ بقلبه

وإِيثار ما يُرْضِى شهودَ عطائه ... ووقت نزول الحقّ يخلو بربّه

مطالعة الأَسما مجالسة القُدَى ... مجانبة الأَهوا جوالب حُبه

* وفي روضة المحبين ونزهة المشتاقين:

قال الله تعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} الآية فلما كان غض البصر أصلا لحفظ الفرج بدأ بذكره ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة لم يأمر سبحانه بغضه مطلقا بل أمر بالغض منه وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه فلذلك عم الأمر بحفظه

النفوس ثلاثة

* النفوس ثلاثة نفس سماوية علوية فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها فاشتغالها بغيره هو داؤها

ونفس سبعية غضبية فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل فلذتها في ذلك وشغفها به

ونفس حيوانية شهوانية فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد كما قال الله تعالى {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} وقال في آخر السورة {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة فأي نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه ولم تصغ فيه لعاذل ولم تأخذها فيه لومة لائم

العدو

* العَدْو والعُدُوّ والتَعْداءُ والعَدَوان محرّكة بمعنى، وهو التجاوز ومنافاة الالتئَام. فتارة يعتبر بالقلب فيُسمّى المعاداة والعداوة، وتارة بالمشي فيقال له العَدْو، وتارة في الإِخلال بالعدالة فيقال له العُدْوان والعَدْو. قال الله تعالى: {فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ} أَي عُدْوَانًا، وتارة بأَجزاءِ المقَرّ فيقال له: العُدَواءُ، يقال: مكان ذو عُدَواء أَي غير متلائم الأَجزاءِ، والتعادي أَيضاً: الأَمكنة الغير المتساوية.

* فمن المعاداة: رجل عَدُوّ، وعادٍ. ويستوى في العَدُوّ الواحد والجمع والذكر والأُنثى. وقد يثنَّى ويجمع ويؤنث في بعض اللغات. والجمع: أَعداء، وجمع الجمع أَعادٍ. واسم الجمع: عِدًى وعُدًى. وجمع العايدى: عُدَاة، وقد عاداه والاسم العداوة. وتعادَى ما بينهم: اختلف، والقومُ عادى بعضهم بعضاً.

* والعَدُوّ ضربان: أَحدهما بقصدٍ من المعادِي نحو: {فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ} . والثاني لا بقصده، بل بأَن تعرِض له حالة يتأَذَّى بها كما يتأَذَّى بما يكون من العِدَا، نحو قوله: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين} .

أوجه العداوة

* وقد وردت العداوة على أَوجه:

١ – عداوة اليهود للمؤمنين: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليهود} .

٢ – عداوة بين شاربي الخمر من وسوسة الشيطان: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة}

٣ – عداوة بين أَصناف النَّصارى: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة والبغضآء} .

٤ – عداوة بين المؤْمنين والكفَّار من قوم إبراهيم: {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة} .

٥ – عداوة بين بنى هاشم وبنى أُمَيَّة: {عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً}

٦ – عداوة تزول بكرم الكرماءِ: {فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} .

ذكر العدو على وجوه

* وورد ذكر العَدُوّ على وجوه:

١ – إِبليس لآدم وحوَّاء: {إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌ مُّبِينٌ} ، {إِنَّ هاذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة} .

٢ – آدم وإِبليس والحيّة وطاووس أَعداء: {اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} .

٣– إِبليس وذرّيته أَعداء بنى آدم: {إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً} .

٤ – الكافر الحربىُّ عدوّ للمسلم: {فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ} .

٥ – آزر عدوّ الحقّ: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ} .

٦– موسى عدوّ فرعون: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً} .

٧– كفَّار مكة أَعداءُ نبي الله ﷺ : {لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ} .

٨– مؤْمنو بنى إِسرائيل عدوّ الكفَّار: {فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ} .

٩– الأَولاد والأَزواج منهم أَعداءُ الوالدين: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ} .

١٠ – الكفَّار أَعداءُ الله: {ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ الله} ، {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ الله} .

١١ – عداوة الخُلاَّن لغير الله: {الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين} .

* والعُدوان ورد على وجهين: الأَوّل بمعنى السّبيل: {فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظالمين} . الثاني بمعنى الظلم: {وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان} {وَيَتَنَاجَوْنَ بالإثم والعدوان} . أَي بالظلم والمعصية.

* ومن العَدْو قال: وعادى عِداءً بين ثور ونعجة

أَي أَعدى أَحدهما إِثر الآخر. وتعدَّوا: وجدوا لبنًا فأَغناهم عن الخمر، ووجدوا مرعى فأَغناهم عن شراءِ العلف؛ والمكانَ: جاوزوه وتركوه.

* والعُدْوة والعِدْوةُ والعَدْوة: شاطىءُ الوادي. وبالضمّ والكسر: المكان المرتفع، قال تعالى: {إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدنيا وَهُم بالعدوة القصوى} والسلطَانُ ذو عَدَوات وبَدَوات، وعَدَوَان وبَدَوَان.

الفتنة

* والفَتْن: الفَنّ، والحال، والإِحراق. ومنه قوله تعالى: {عَلَى النار يُفْتَنُونَ} . والمفتون والفِتْنة: الخِبْرة، مصدر كالمعقول والمجلود. ومنه قوله تعالى: {بِأَيِّكُمُ المفتون} . والفِتْنَة أَيضاً: إِعجابك بالشيءِ، فَتَنَهُ يفْتِنه فَتْنًا وفُتُونًا، وأَفتنه. وأَصل الفتنة إِدخال الذَّهبِ النارَ ليُخْتَبَرَ جودته، والجمع: فِتَن.

موارد الفتنة في القرآن

* وقد ورد في القرآن على اثنى عشر وجهاً:

(١) بمعنى العذاب: {ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ} .

(٢) وبمعنى الشِّرك: {والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل} .

(٣) وبمعنى الكفر: {لَقَدِ ابتغوا الفتنة} ، {مِنْهُ ابتغاء الفتنة} ، {ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ} أَي كفرتم.

(٤) وبمعنى الإِثم {فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أَي إِثم، {وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلا فِي الفتنة سَقَطُواْ} في الإِثم.

(٥) وبمعنى العذاب: {مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ} أَي عُذِّبوا.

(٦) وبمعنى البلاءِ والمِحْنَة: {أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ} أَي يُبْتَلُونَ، {وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ} : امتحنَّاهُمْ، {وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً} أَي بلوناك. {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ} أَي ابتليناهم.

(٧) وبمعنى التعذيب والحُرقة: {إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين} أَي عذَّبوهم، {ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ} : حُرَقكم.

(٨) وبمعنى القتل والهلاك: {إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا} أَي يقتلكم، {على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} أَي يقتلهم.

(٩) وبمعنى الصدّ عن الصراط المستقيم: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ} ، {واحذرهم أَن يَفْتِنُوكَ} أَي يصدّوكَ. وقيل: يوقعوك في بليّة وشدّة في صرفهم إِيّاك عمّا أُوحى إِليك.

(١٠) وبمعنى الحَيرة والضَّلال: {مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ} أَي بضالِّين، {وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ} أَي ضلالته.

(١١) وبمعنى العُذْر وَالعِلّة: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ} أَي عذرهم.

(١٢) وبمعنى الجنون والغفلة: {بِأَيِّكُمُ المفتون} أَي الجنون. وقيل التقدير: أَيكم المفتون والباء زائدة كقوله: {وكفى بالله}

والفتنة والبلاءُ يستعملان فيما يُدفع إليه الإِنسان من شدّة ورخاء. وهما في الشدّة أَظهر معنى وأَكثر استعمالاً.

* وقوله تعالى: {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ} إِشارة إِلى ما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات} .

* والفتنة من الأَفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد؛ كالبليّة والمصيبة، والقتل، والعذاب ونحوه من الأَفعال المكروهة. ومتى كان من الله إِنَّما يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإِنسان بغير أَمر الله يكون ضدّ ذلك.

بصيرة في لبس

* اللُبْس – بالضمّ – مصدر قولك: لِبست الثوب أَلْبَسه. ولبِست امرأَة، أَي تمتَّعت بها زماناً؛ ولبِستها عُمُرى، أَي كانت معي شبابي كلّه، واللباس والمَلْبس واللِبْس – بالكسر – ما يُلبس.

* ولباس الرَّجل: امرأَته. وزوجها لِباسها، قال النابغة الجعدي رضى الله عنه:

إِذا ما الضجيع ثَنَى جيدها ... تداعى عليه وكانت لباسا

* قال الله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} أَي بمنزلة اللباس.

* وقال ابن عرفة: اللباس من الملابسة أَي الاختلاط والاجتماع.

* وقوله تعالى: {وَلِبَاسُ التقوى} ، قيل: هو الحياء والعمل الصالح، وقيل: الغليظ الخشن القصير. قال السُدّىّ: هو الإِيمان، وقيل: هو ستر العورة، وهو لباس المتقين.

* وقوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً} أَي يستر الناس بظلمته.

* وقوله تعالى: {فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف} أَي جاعوا حتى أَكلوا الوَبَر بالدم وهو العِلْهِز، وبلغ بهم الجوعُ الحالَ التي لا غاية بعدها، فضُرب اللباس لما نالهم من ذلك مثلا لاشتماله على لابسه.

* واللَّبوس: ما يلبس، قال بَيْهس:

إِلبس لكلّ حالة لَبوسها ... إِمَّا نعيمها وإِمَّا بوسها

* وقوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ} يعنى الدرع، سمِّيت لبوسا لأَنها تُلْبس، كالرّكوب لما يُركب.

* وَلَبَست عليك الأَمر أَلْبِسه – كضربته أَضربه – أَي خلطته قال الله تعالى: {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} أَي شبَّهنا عليهم وأَضللناهم كما ضلَّوا. قال ابن عرفة: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل} ، أَي لا تخلطوه به. وقوله تعالى: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} أَي يخلط أَمركم خلط اضطراب لا خلط اتِّفاق.

* وقوله جل ذكره: {وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} أَي لم يخلطوه بشرك.

* واللبس أيضا: اختلاط الكلام. وفى الأمر لُبسة - بالضم - أي شبهة وليس بواضح.

* والتلبيس التخليط،

* وتلبَّس بالأمر وبالثوب، قال:

تلبَّس حبَّها بدمي ولحمي ... تلبُّس عَصْبة بفروع ضال

* وقوله تعالى جلّ شأنه: {أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ} فيه تنبيه على أن جلَّ المقصود من اللباس ستر العورة، وما زاد فتحسّن وتزيّن، إلاَّ ما كان لدفع حَرّ وبرد، قال الشاعر:

إن العيون رمتك إذ فاجأتها ... وعليك من شُهَر الثياب لباس

أمَّا الطعام فكُلْ لنفسك ما اشتهت ... واجعل ثيابك ما اشتهاه النّاس

وفى بعض الآثار: من ترك اللباس وهو يقدر عليه خيَّره الله يوم القيامة بين حُلَل الإيمان يلبس أيّها شاءَ.

❁ المفردات في غريب القرآن:

* لَبِسَ الثّوب: استتر به، وألْبَسَهُ غيره، ومنه: يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً

* وجعل اللّباس لكلّ ما يغطّي من الإنسان عن قبيح، فجعل الزّوج لزوجه لباسا من حيث إنه يمنعها ويصدّها عن تعاطي قبيح. قال تعالى: هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ [البقرة/ ١٨٧] فسمّاهنّ لباسا كما سمّاها الشاعر إزارا في قوله: فدى لك من أخي ثقة إزاري

* وجعل التّقوى لِبَاساً على طريق التّمثيل والتّشبيه، قال تعالى: وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ [الأعراف/ ٢٦] وقوله: صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ [الأنبياء/ ٨٠] يعني به: الدِّرْعَ، وقوله: فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ [النحل/ ١١٢]، وجعل الجوع والخوف لباسا على التّجسيم والتشبيه تصويرا له، وذلك بحسب ما يقولون: تدرّع فلان الفقر، ولَبِسَ الجوعَ، ونحو ذلك

بصيرة في الثياب والثواب

وقد ورد في القرآن على ثمانية أَوجه

❁ الأَوّل: ثوب الفراغ والاستراحة {وَحِينَ تَضَعُونَ ثيابكم مِّنَ الظهيرة} .

الثاني: لباس التجمُّل والزِّينة {أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ} .

الثالث: ثياب الغفلة والجراءة {واستغشوا ثِيَابَهُمْ} .

الرّابع: لصناديد قريش ثوب الاطِّلاع على السرِّ والعلانيةِ {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} .

الخامس: للنبي ﷺ ثوب الصلاة والطّهَارة {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} .

السّادس: للكفَّار ثوب العذاب والعقوبة {قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ} .

السابع: لأَهل الإِيمان ثوب العزِّ والكرامة {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} .

الثامن: للخواصّ ثياب النُّصرة والخُضْرة في الحضْرة {وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ} . ❁

وأَصل الثَّوب رجوع الشيء إِلى حالته الأُولى التي كان عليها، أَو إِلى حالته المقدّرة المقصودة بالفكرة، وهى الحالة المشار إِليها بقولهم: أَول الفكرة آخر العمل.

فمن الرّجوع إِلى الحالة الأُولى قولهم: ثاب فلان إِلى داره، وثاب إِلىَّ نَفْسى. ومن الرّجوع إِلى الحالة المقصودة المقدّرة بالفكرة الثوب، سمّى بذلك لرجوع الغَزْل إِلى الحالة الَّتي قُدِّر لها. وكذا ثوب العمل. وجمع الثوب أَثواب، وثياب.

❁ والثواب: ما يرجع إِلى الإِنسان من جزاءِ أَعماله. فسمّى الجزاءُ ثواباً تصوّراً أَنَّه هو. أَلا ترى أَنه كيف جعل الجزاء نفس الفعل في قوله: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ} ولم يقل: ير جزاءَه. والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المشهور في الخير. وكذلك المَثُوبة. وقوله تعالى {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً} فإِنَّ ذلك استعارة في الشرّ كاستعارة البشارة فيه. والإِثابة يستعمل في المحبوب {فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ} وقد قيل ذلك في المكروه أَيضاً نحو {فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ} على الاستعارة . والتثويب لم يرد في التَّنزيل إِلاَّ فيما يكره نحو {هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} .

* وقوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} قيل: معناه: مكاناً يثوب النَّاس إِليه على مرور الأَوقات. وقيل: مكاناً يكتسب [فيه] الثَّواب

وقد ورد الثواب في القرآن على خمسة أَوجه

الأَوّل: بمعنى جزاء الطَّاعة {هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً} {نِعْمَ الثواب وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً} .

الثاني: بمعنى الفتح والظفر والغنيمة {فَآتَاهُمُ الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة} فثواب الدّنيا هو الفتح والغنيمة.

الثالث بمعنى وعد الكرامة {فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ} أَي وعدهم.

الرَّابع: بمعنى الزِّيَادة على الزِّيادة {فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ} أَي زَادكُمْ غَمّاً (على غم) .

الخامس: بمعنى الرَّاحة والمنفعة {مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدنيا فَعِندَ الله ثَوَابُ الدنيا والآخرة} .

بصيرة في النور

* النُّورُ: الضِّياء والسَّناءُ الَّذى يُعين على الإِبْصار، وذلك ضربان: دُنْيَوِىّ وأُخْرَوِىٌّ، فالدُّنْيوى ضربان: مَعْقولٌ بعين البَصِيرة وهو ما انْتَشَر من الأَنوارِ الإِلهيّة كَنُورِ العَقْل ونُورِ القُرْآن، ومَحْسوسٌ بعين البَصَرِ وهو ما انْتَشَر من الأَجْسامِ النَيِّرَةِ كالقَمَرَيْن والنُّجومِ والنيّرات.

* فمن النُّورِ الإلهي، قولُه تعالى: {قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ} ، وقوله: {نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ} ،

* ومن النُّورِ المحسوس الَّذى يُرَى بَعيْن البَصَر نحو قولِه: {هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً} . وتخصيصُ الشمسِ بالضُّوْءِ، والقمَرِ بالنُّورِ من حيثُ إِنَّ الضَّوءَ أَخَصُّ من النَّورِ، وقولُه: {وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً} أَي ذا نُورٍ. وممّا هو عامٌّ فيهما قوله: {وَجَعَلَ الظلمات والنور} ، {وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا} . ومن النُّور الأُخْرَوىّ قوله: {يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} .

* وسَمَّى الله نَفْسه نُوراً من حيث إِنَّه المُنَوِّر فقال: {الله نُورُ السماوات والأرض} ، وتسميتُه تعالى بذلك لمُبالَغة فِعْله، وقيل: النُّورُ هو الذى يُبْصِرُ بنُورِه ذُو العَماية ويَرْشُد بُهداه ذو الغَوايَة، وقيل: هو الظاهر الذى به كُلُّ ظُهور، فالظَّاهِرُ في نفسه المُظْهِر لغَيْره يُسَمَّى نُوراً. وسئل رسول الله ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّك؟ فقال: "نورٌ أَنَّى أَراه"! أَي هو نُورٌ كيف أَراهُ! وسُئل عنه الإمام أَحمد فقالَ: ما زِلْتُ مُنْكِراً له، وما أَدْرِى ما وَجْهُه. وقال ابنُ خُزَيْمَة: في القَلْب من صِحّة هذا الحديث شيءٌ.

* وقال بعض أَهل الحكْمة: النُور جسْمٌ وعَرَضٌ، والله تعالى ليس بجسم ولا عَرَض، وإِنما حجابُه النُّور، وكذا رُوِى في حديث أَبى مُوسى، والمعنى كيف أَرَى وحجابُه النُّور! أَي النُّورُ يمنعُ من رُؤيته. وفى الحديث: "اللَّهُمَّ اجْعَل في قَلْبِي نُوراً" وذَكَرَ سائرَ الأَعضاءِ، والمعنى: اسْتَعْمِل هذه الأَعضاءَ منِّى في الحقّ، واجْعَلْ تَصَرُّفِي وتَقَلُّبِي فيها على سبيل الصَّواب والخَيْر.

* وقوله تعالى: {قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ} يعنى سيِّد المرسَلين محمّدا ﷺ .

* وقولُه تعالى: {واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ} أَي القرآن،

* {وَجَعَلَ الظلمات والنور} قيل: أَي الليل والنَّهار.

* وقولُه: {والله مُتِمُّ نُورِهِ} يعنى به الإِسلام.

* وقوله {انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} : وقوله: {رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} المراد به نور العِناية.

* والنَّارُ تُقال لِلَّهيب الذى يَبْدُو للحاسَّة نحو قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ} ، ولِلْحَرارَةِ المجرَّدة؛ ولنارِ جَهَنَّم المذكورة في قوله تعالى: {النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ} . وفى حديث شَجر جهنم: "فتَعْلُوهم نارُ الأَنْيار" يحتمل أَن يكون معناه نار النِّيران فَجمع النار على أَنْيار وأَصلها أَنْوار كما جاءَ في رِيح وعِيد رِياحٌ وأَعْياد، وأَصلُها واوٌ. ولِنار الحَرْب المذكورة في قوله تعالى: {كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا الله} .

* وقال بعضهم: النَّارُ والنُّورُ من أَصْلٍ واحد، وهما كثيراً مّا يتلازَمان، لكنَّ النَّار متاعٌ للمُقْوِينَ في الدّنيا، والنُّورُ متاعٌ للمُتَّقِينَ في الدُّنيا والآخِرَة، ولأَجْلِ ذلك اسْتعْمِل في النُّورِ الاقْتِباسُ، فقال: {نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} . وتَنَوَّرْتُ ناراً: أَبْصَرْتُها.

❋ المفردات في غريب القرآن :

* فمن النّور الإلهي قوله تعالى: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِّ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ [المائدة/ ١٥] ، وقال: وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها [الأنعام/ ١٢٢]، وقال: ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا [الشورى/ ٥٢] وقال: أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُّ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [الزمر/ ٢٢]، وقال: نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُّ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ [النور/ ٣٥] ، ومن المحسوس الذي بعين البصر نحو قوله: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً [يونس/ ٥] وتخصيص الشّمس بالضّوء، والقمر بالنّور من حيث إنّ الضّوء أخصّ من النّور، قال: وَقَمَراً مُنِيراً [الفرقان/ ٦١] أي: ذا نور. ومما هو عامّ فيهما قوله: وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ [الأنعام/ ١] ، وقوله: وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ [الحديد/ ٢٨] ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها [الزمر/ ٦٩] ومن النّور الأخرويّ قوله:

يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ [الحديد/ ١٢]، وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا [التحريم/ ٨] انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [الحديد/ ١٣]، فَالْتَمِسُوا نُوراً [الحديد/ ١٣]،

* والنَّارُ تقال للهيب الذي يبدو للحاسّة، قال: أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [الواقعة/ ٧١]، وقال: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً [البقرة/ ١٧]، وللحرارة المجرّدة، ولنار جهنّم المذكورة في قوله: النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا [الحج/ ٧٢]، وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ [البقرة/ ٢٤]، نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ [الهمزة/ ٦] وقد ذكر ذلك في غير موضع. ولنار الحرب المذكورة في قوله: كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ [المائدة/ ٦٤]، والمَنَارَة : مفعلة من النّور، أو من النار كمنارة السّراج، أو ما يؤذّن عليه، ومَنَارُ الأرض: أعلامها، والنَّوَار: النّفور من الرّيبة، وقد نَارَتِ المرأة تَنُور نَوْراً ونَوَاراً، ونَوْرُ الشّجر ونُوَّارُهُ تشبيها بالنّور، والنَّوْرُ: ما يتّخذ للوشم. يقال: نَوَّرَت المرأة يدها، وتسميته بذلك لكونه مظهرا لنور العضو.

بصيرة في نظر

* النَّظَرُ: تأَمُّل الشيءِ بالعَيْن، والنظر أَيضاً: تقليب البَصِيرة لإِدراك الشيءِ ورؤيته، وقد يُراد به التأَمّل والفَحْص، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْص. وقوله تعالى: {انظروا مَاذَا فِي السماوات} أَي تأَمّلوا.

* واستعمالُ النَّظَر في البَصِر أَكثر استعمالاً عند العامّة، وفى البَصِيرة أَكثر عند الخاصّة، ويقال: نَظَرْتُ إِلى كذا: إِذا مَدَدْت طَرْفَك إِلَيْه رَأَيْتَه أَو لم تَره، ونظرتُ إِليه: إِذا رأَيتَه وتَدَبَّرته، قال تعالى: {أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ} . ونَظَرْت في كذا: تأَمَّلْته قال تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض} يراد به الحثّ على تأَمُّل حكمته في خَلْقها.

* ونَظَرُ الله إِلى عباده هو إِحسانُه إِليهم، وإِفاضةُ نِعَمِه عليهم. قال تعالى: {وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة} . وفى الصّحيحين: "ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُم الله ولا يَنْظُرُ إِليهم: شَيْخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّاب، وعَائلٌ مُسْتَكبِرٌ".

* والنَّظَرُ أَيضاً: الانْتظارُ قال تعالى: {أنظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} ، {وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} ، {أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}

* وقوله: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ} فَنَفَى الإِنظارَ عنهم إشارةً إلى ما نَبَّه عليه بقوله: {فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} . وقوله: {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} أَي غير منتظرين.

* وقوله: {رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ} قال الزجّاج: فيه اختصار تقديره: أَرِنى نَفْسَك أَنْظُرْ إِليك. قال ابن عبّاس: أَعْطِنِي النَّظر أَنْظُرْ إِليك. فإِنْ قيل كيف سأَل الرؤيةَ وقد عَلِم أَنَّ الله لا يُرَى في الدّنيا؟ قال الحسن: هاج به الشوقُ فسأَل. وقيل: سأَل ظنّاً منه أَنه يُرَى في الدنيا فقال الله: لن تَراني، أَي في الدّنيا أَو في الحال، فإِنَّه كان يسأَل الرّؤية في الحال. ولن ليست للتأْبيد كقوله {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً} ، ثم أَخبر عنهم أَنهم يتمنَّونْ الموت في الآخِرة، كما قال: {وَنَادَوْاْ يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} {ويا ليتها كَانَتِ القاضية} ثمّ تعليق الرّؤية بممْكن وهو استقرارُ الجبل يمنع استحالَة الرّؤية.

* قال أَبو القاسم: ثاني مفعولي أَرنى محذوف، أَي أَرنى نَفْسَك أَنْظُر إِليك: فإِنْ قلت: الرؤية عن النظر، فكيف قيل أَرني أَنظر إِليك؟ قلت: معنى أَرِنِي نَفْسَك: اجعلني متمِكّنا من رُؤيتك بأَن تَتَدَلَّ لي فأَنظر إِليك وأَراك، ولَّما علم أَنّ المطلوب الرّؤية لا النظر أُجيب بِلَنْ تراني دون لن تَنْظر.

* ويُستعمل النظر أَيضاً في التَّحَيُّر في الأَمر نحو قوله تعالى: {فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ} ، {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} ، {يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ} ، {وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ } كلّ ذلك نظرٌ عن تَحَيُّرٍ دالٍّ على قِلَّة الغَناءِ.

* وقوله: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ} ، قيل: تُشاهِدُون، وقيل: تَعْتَبِرون

*والنَّظِيرُ: المِثْلُ، والجمع: نُظَراءُ، وأَصلُه المُناظِر كأَنّ كلّ واحِدٍ منهما ينظرُ إِلى صاحبه فيُبارِيه.

* والمُناظَرَة: المُباحَثَةُ والمُباراةُ في النَّظر، واستحْضار كل ما يَراه ببَصِيرته.

* والنَّظَر: البَحْثُ وهو أَعمّ من القِياس، لأَنَّ كلّ قياس نَظَرٌ، وليس كُلُّ نَظَر قياساً.

وفي المفردات في غريب القرآن

* النَّظَرُ: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ.

* واستعمال النَّظَرِ في البَصَرِ أكثرُ عند العامَّةِ، وفي البصيرةِ أكثرُ عند الخاصَّةِ، قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ [القيامة/ ٢٢-٢٣] ويقال: نَظَرْتُ إلى كذا: إذا مَدَدْتَ طَرْفَكَ إليه رَأَيْتَهُ أو لم تَرَهُ، ونَظَرْتُ فِيهِ: إذا رَأَيْتَهُ وتَدَبَّرْتَهُ، قال: أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [الغاشية]

* نَظَرْتَ في كذا: تَأَمَّلْتَهُ. قال تعالى: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ [الصافات/ ٨٨-٨٩]، وقوله: تعالى: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [الأعراف/ ١٨٥] فذلك حَثٌّ على تَأَمُّلِ حِكْمَتِهِ في خَلْقِهَا.

* والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ. يقال: نَظَرْتُهُ وانْتَظَرْتُهُ وأَنْظَرْتُهُ. أي: أَخَّرْتُهُ. قال تعالى: وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [هود/ ١٢٢]، وقال: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [يونس/ ١٠٢]، وقال: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [الحديد/ ١٣]، وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ [الحجر/ ٨]، قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [الأعراف/ ١٥-١٦]، وقال: فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ [هود/ ٥٥]، وقال: لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ [السجدة/ ٢٩]، وقال: فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ [الدخان/ ٢٩]، فنفى الإِنْظارَ عنهم إشارةً إلى ما نبَّه عليه بقوله: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ [الأعراف/ ٣٤]، وقال: إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ [الأحزاب/ ٥٣] أي: منتظرين، وقال: فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [النمل/ ٣٥]، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ [البقرة/ ٢١٠]، وقال: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [الزخرف/ ٦٦] وقال: ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً [ص]

* ويُستعمَل النَّظَرُ في التَّحَيُّرِ في الأمور. نحو قوله: فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [البقرة/ ٥٥] ، وقال: وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ [الأعراف/ ١٩٨] ، وقال: وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى/ ٤٥] ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ [يونس/ ٤٣] ، فكلّ ذلك نظر عن تحيُّر دالٍّ على قِلَّة الغِنَاءِ.

النظر في سورة النمل

* في سورة النمل كلمة واحدة في خمس آيات وفي كل مرة بمعنى مختلف تأمل :

* قال تعالى ": سَنَنظُرُ "أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧ النمل) سننظر هنا أي "سنتيقن" من صدقك أو كذبك.

* قال تعالى :{ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ" فَانظُرْ "مَاذَا يَرْجِعُونَ } (٢٨ النمل) فانظر هنا أي" فاسمع "ماذا يرددون بعد أن ألقي إليهم الكتاب.

* قال تعالى : { قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ "فَانظُرِي" مَاذَا تَأْمُرِينَ} (٣٣ النمل) فانظري هنا أي "دبري أمرك."

* قال تعالى : { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ "فَنَاظِرَةٌ" بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } (٣٥النمل) فناظرة هنا أي"منتظرة."

* قال تعالى : { قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا "نَنظُرْ "أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١ النمل) ننظر هنا أي " نعلم."

بصيرة في الرؤية

* وهى النَّظر بالعين، وبالقلب

* والرّؤية تختلف بحسب قُوَى النَّفس: الأَوّل بالحاسة وما يجرى مجارها، قال تعالى: {فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ} ، وهذا ممّا أُجرى مُجْرى الرّؤية بالحاسّة، فإِنَّ الحاسّة لا تصحّ على الله تعالى. والثاني بالوَهْم والتخيّل، نحو: أُرَى أَنَّ زيدًا منطلق. والثالث بالتَّفكر: {إِنِي أرى مَا لاَ تَرَوْنَ} والرّابع

بالعَقْل، نحو: {مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى} ، وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى}

* ورأى إذا عُدّى إِلى مفعولين اقتضى معنى العلم. ويُجرى أَرأَيتَ مُجرى أَخْبِرْني، قال تعالى: {أَرَأَيْتَكَ هاذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} ، وفيه معنى التَّنبيه.

* والرّأْي: اعتقاد النَفْس أَحد النَّقيضين عن غلبة الظنّ، وعلى هذا قوله تعالى: {يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العين} ، أي يظنونهم بحسب مقتضى مشاهدة العين مثليهم، تقول: فعل ذلك رأْى عَين.

* الرَّوِيَّة والتروية: التفكّر في الشيء، والإِمالة بين خواطر النفس في تحصيل الرّأْى. والمُرَّئِّى: المتفكر.

* وإِذا عدّى رأَيت بإِلى اقتضى معنى النظر المؤَدّى إِلى الاعتبار، نحو: {أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل} ، وقولُهُ: {لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله} أي بما علَّمك وعرَّفك.

* والرَّاية: العلامة المنصوبة للرؤْية. وأَرْأَى: صار له رَئِيٌّ من الجنِّ. وهو جنىٌّ يُرَى فيُحَبّ.

* والرُّؤْيا: ما رأَيته فى منامك، والجمع رُؤًى كهُدًى، وقد تخفَّف الهمزة من الرّؤيا فيقال بالواو

* وقوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان} أَي رأَى بعضهم بعضاً، وقيل: تقاربا وتقابلا حتى صار كلٌّ واحد بحيث يتمكَّن من رؤْية الآخر. وفى الحديث: "إِنَّ المؤْمن والكافر لا يتراءَى ناراهما".

وهو مَرْآة بكذا أَي مَخْلَقة، وأَنا أَرْأَى: أَخلق وأَجدر.

بصيرة في الاتخاذ

* مصدر من باب الافتعال. ومعنى الأَخذ والتَّخْذ واحد. وهو حَوْز الشيء وتحصيلُه. وذلك تارة يكون بالتَّناول؛ نحو {مَعَاذَ الله أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ} ، وتارة بالقَهْر؛ نحو {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} {وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة} {وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى}

* ويعبر عن الأَسير بالمأْخوذ، والأَخيذ. والاتِّخاذ يُعَدّى إِلى مفعولين، ويجرى مجرى الجَعْل؛ نحو {لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ} {وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ} تخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لِمَا أَخذوه من النِّعَم، ولم يقابلوه بالشكر.

الاتخاذ في القرآن

* والاتِّخاذ ورد في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً.

الأَوّل: بمعنى الاختيار: {واتخذ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} .

الثَّاني: بمعنى الإِكرام: {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ} أَي يكرمهم بالشَّهادة.

الثالث: بمعنى الصّياغة: {واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً} أَي صاغُوهُ.

الرابع: بمعنى سلوك السّبيل: {فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً} أَي سلك.

الخامس: بمعنى التسمية: {اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله} أَي سَمَّوهم.

السّادس: بمعنى النَّسْج: {كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً} أَي نَسَجَتْ.

السّابع: بمعنى العبادة {والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ} . ولهذا نظائر كثيرة.

الثامن: بمعنى الجَعْل: {اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} أَي جعلوها.

التَّاسع: بمعنى البناءِ: {اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً} أَي بَنَوا.

العاشر: بمعنى الرِّضَا: {فاتخذه وَكِيلاً} أَي ارضَ به.

الحادي عشر: بمعنى العَصْر: {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً} أَي تعصرون.

الثَّاني عشر: بمعنى إِرخاءِ السِّتْر: {فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً} أَي أَرْخت سِتْراً.

الثالث عشر: بمعنى عَقْد العهد: {إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً} أَي عَقَدَ.

بصيرة في المرء والمرأة

* اعلم أَنَّ المَرْءَ والمرأَة اسمان على فَعْل وفَعْلة. وهما من الأسماءِ الموصولة؛ مثل ابن، وابنة، واثنين، واثنتين.

* ومن عجائب الأَسماءِ امُرؤ؛ لأَنَّ إِعراب الأَسماءِ في آخرها دون أَوّلها ووسطها. وهذا فيه ثلاث لغات: فتح الرّاءِ دائماً: وضمّها دائماً، وإِعرابها دائماً. وتقول أَيضاً: هذا امرؤ، ومُرْءٌ، ورأَيت امرءًا، ومررت بامرئ وبِمِرءٍ، معرباً من مكانين.

* والمَرْءُ والمرأَةُ – مثَلثة الميم – الإِنسان. ولا يجمع من لفظه. وقيل: سُمِع مَرْءُون؛ قال الحَسَن: أَحسِنُوا أَخلاقكم أَيّها المَرْءُون.

وجوه المرأة في القرآن

* وجاءَ الامرأَة في القرآن على اثنى عشر وجهاً.

الأَوّل: بمعنى زَلِيخا المصريّة. {امرأة العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} {لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} .

الثاني: بمعنى بِلْقِيس: {إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ} .

الثالث: بمعنى آسِية {وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ} .

الرّابع: بمعنى سارة زوج الخليل إِبراهيم عليه السّلام: {وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ} .

الخامس: بمعنى حَنَّة امرأَة عمران بن هامان أَمّ مريم الصدّيقة: {إِذْ قَالَتِ امرأت عِمْرَانَ} .

السّادس: بمعنى زَوْج لُوط النبي واسمها واهلة {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك} .

السّابع: بمعنى واعلة زوج نوح عليه السلام {مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ} .

الثامن: بمعنى أَمّ جَمِيل زوج أَبى لهب: {وامرأته حَمَّالَةَ الحطب} .

التَّاسع: بنت محمّد بن مَسْلمة، وقيل أُخته {وَإِنِ امرأة خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً} .

العاشر: بنتا شعيب عليه السلام {وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ} .

الحادي عشر: أَمّ شَرِيك الَّتي قدّمت نفسها للنبي ﷺ، وخصّصها الله تعالى بالذِّكر، وشهد لها بالإِيمان {وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ} .

الثاني عشر: واحدة من نساءِ المسلمين الصّالحات العادلات {فَرَجُلٌ وامرأتان} . وذكر بالاسم الصريح فقط مريم بنت عمران عليها السلام .

بصيرة في الآيات

* الآية: العلامة الظَّاهرة. وحقيقته لكلّ شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهورهَ، فمتى أَدْرَكَ مُدْرِكٌ الظَّاهرَ منهما علِم أَنَّه أدرك الآخر الَّذى لم يُدْركه بذاته؛ إِذْ كان حكمهما سَوَاءً.

* وذلك ظاهر في المحسوسات، والمعقولات، فمن علم بملازمة العلَم للطريق المنهج ثم وجد العلَم عَلِمَ أَنَّه وجد الطَّريق. وكذا إِذا عَلِم شيئاً مصنوعاً علِم أَنَّه لا بدّ له من صانع.

* واشتقاق الآية إِمّا مِن أَيٍّ، فإِنَّها هي الَّتي تبين أَيّا مِن أَيّ، أَو مِن قولهم: (أَوَى إِليه) .

* وقيل للبناءِ العالي: آية: {من أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} ، ولكلّ جملة من القرآن دالَّة على حكمٍ آيةٌ، سورة كانت، أَو فصولاً، أَو فَصْلاً من سورة. وقد يقال لكلّ كلام منه منفصل بفَصْل لفظيّ: آية. وعلى هذا اعتبار آيات السّورة الَّتي تُعَدُّ بها السورة.

* وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} فهي من الآيات المعقولة الَّتي تتفاوت بها المعرفةُ بحسب تفاوت النَّاس في العلم. وكذلك قوله: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم} .

* وذكر في مواضع آية وفى مواضع آيات. وذلك لمعنى مخصوص يقتضيه ذلك المقام. وإِنما قال: {وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً} ولم يقل: آيتين؛ لأَنَّ كلّ واحد صار آية الآخر.

* وقوله: {وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إِلاَّ تَخْوِيفاً} فالآيات ههنا قيل: إِشارة إِلى الجَرَاد والقُمَّل، والضَّفادع، ونحوه من الآيات الَّتي أُرْسِلَت إِلى الأُمم المتقدّمة، فنبّه أَنَّ ذلك إِنَّما يُفْعل بمن يفعله تخويفاً. وذلك أَخسّ المنازل للمأْمورين؛ فإِنَّ الإِنسان يتحَرَّى فعل الخير لأَحد ثلاثة أَشياءٍ: إِمّا أَن يتحرّاه [رغبة أَو رهبة؛ وهو أَدنى منزلة، وإِما أَن يتحرّاه لطلب مَحْمَدَة، وإِمّا أَن يتحرّاه لفضيلة. وهو أَن يكون ذلك الشئُ في نفسه فاضلاً. وذلك أَشرف المنازل. فلمّا كانت هذه الأُمّة خير أُمّة – كما قال – رفعهم عن هذه المنزلة، ونبّه أَنَّه لا يعمّهم العذاب؛ وإِن كانت الجَهَلَة منهم

كانوا يقولون؛ أَمطِرْ علينا حجارة من السّماءِ أَو ائتنا بعذاب أَليم. وقيل: الآيات إِشارة إِلى الأَدِلَّة؛ ونبّه أَنّه يُقتصر معهم على الأَدلَّة، ويُصانون عن العذاب الَّذى يستعجلون به في قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب} .

وجوه الآية

* وقال المعيني: وردت الآية في القرآن على وجوه:

الأَوّل: بمعنى العلامة {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم} {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات} {وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض} .

الثاني: بمعنى آيات القرآن {آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} .

الثالث: بمعنى معجزات الرّسل: {فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بِآيَاتِنَا} .

الرّابع: بمعنى عِبْرَة المعتبرين. {وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً} .

الخامس: بمعنى الكِتَاب والبرهان: {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ} .

السّادس: بمعنى الأَمْر، والنَّهى: {كذلك يُبَيِّنُ الله آيَاتِهِ} يعنى الأَمْر والنَّهى وله نظائر.

* وحينئذ تصير جملة الآيات في القرآن من طريق الفائدة والبيان على اثنى عشر نوعاً.

الأَوّل: آية البيان والحكمة: {يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا} .

الثاني: آية العَوْن، والنُّصرة: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ} .

الثالث: آية القيامة: {وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ} .

الرّابع: آية الابتلاءِ والتجربة: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}

الخامس آية العذاب والهَلَكة: {هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً} .

السّادس: آية الفضيلة والرّحمة: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} .

السّابع: آية المعجزة والكرامة: {تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ} .

الثامن: آية العظة والعبرة: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ} .

التاسع: آية التشريف والتكريم {وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ} .

العاشر: آية العلامة: {رَبِّ اجعل لِي آيَةً} .

الحادي عشر: آية الإعراض والنّكرة: {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ} .

الثاني عشر: آية الدّليل والحجّة: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ} .

بصيرة في الإحسان

* الحُسْن، وهو كلّ مُبْهج مرغوب فيه، عقلاً، أَو حسّاً، أَو هوىً. ولا يقال: رجل أَحْسَن وإِنما يقال: هو الأَحسن، على إِرادة التفضيل. وأَحاسن القوم حِسَانهم.

* والحَسَنة يعبَّر بها عن كلّ ما يَسُرّ من نِعْمَة تنال الإِنسان في نفسه وبَدنه وأَحواله. والسّيئّة تضادّها. وهما من الأَلفاظ المشتركة؛ كالحيوان الواقع على أَنواع مختلفة. وقوله تعالى: {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله} أَي خِصب وسَعَة وظفر {وإِن تصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} أَي جَدْب وضيق وخَيْبَة، وقوله تعالى: {مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ} أَي من ثواب {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ} أَي من عذاب.

* والفرق بين الحَسَنة والحَسَن والحُسْنى أَنَّ الحَسَن يقال في الأَعيان والأَحداث. وكذلك الحَسَنة إِذا كانت وصفاً. فإِذا كانت اسما فمتعارف في الأَحداث؛ (والحُسْنى لا يقال إِلاَّ في الأَحداث دون الأَعيان، والحَسَن أَكثر ما يقال في تعارُف العامّة في المستحسن بالبصر. وأَكثر ما جاءَ في القرآن من الحَسَن فللمستحسن من جهة البصيرة.

* وقوله تعالى: {الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أَي الأَبعد عن الشبهة.

* وقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} إِن قيل حكمه حَسَن لَمْ يوقن ولمن لا يوقن فلِمَ خُصّ؟ قلنا: القَصد إِلى ظهور حسنه، والاطلاع عليه. وذلك يظهر لمن تزكَّى، واطَّلع على حكمة الله تعالى، دون الجَهلة.

* والإِحسان يقال على وجهين. أَحدهما الإِنعام على الغير: أَحسن إِلى فلان. والثاني إِحسان في فعله وذلك إِذا علم عِلْماً حسناً أَو عمل عملاً حسناً. ومنه قول عليّ - رضى الله عنه -: النَّاس أَبناء ما يحسنون، أَي منسوبون إِلى ما يعلمونه ويعملونه من الأَفعال الحسنة. والإِحسان أَعمّ من الإِنعام.

وجوه الإحسان في الكتاب

* ورد الإِحسان في التَّنزيل على ثلاثة عشر وجهاً:

الأَوّل: بمعنى الإِيمان {فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ} إِلى قوله {وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} .

الثاني: بمعنى الصّلاة على النبي ﷺ {مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} .

الثالث: بمعنى قيام اللَّيل للتهجد: {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} .

الرّابع: بمعنى الإِنفاق والتصدق على الفقراء: {وأحسنوا إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين} .

الخامس: بمعنى خِدْمة الوالدين، وبِرّهما {وبالوالدين إِحْسَاناً} .

السّادس: بمعنى العفو عن المجرمين: {والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين} .

السّابع: بمعنى الاجتهاد في الطاعة: {والذين جَاهَدُواْ فِينَا} إِلى قوله: {لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} .

الثامن: بمعنى أَنواع الطَّاعة: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ} .

التاسع: بمعنى الإِخلاص في الدّين والإِيمان: {إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان} .

العاشر: بمعنى الإِحسان إِلى المستحِقِّين: {وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ} .

الحادي عشر: بمعنى كلمة النَّجاة والفوز من النيران: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنْفُسِكُمْ} .

الثاني عشر: بمعنى كلمة الشهادة على اللِّسان مع الإِيقان بالجَنان.

الثالث عشر: بمعنى نعيم الجنان والرضوان: {هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان} .

الإحسان في الاحاديث

* فتح الباري لابن رجب :

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: " يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ "

* عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: كان يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث " قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان " قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك " قال: متى الساعة؟ قال: "

ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله " ثم تلا النبي ﷺ {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ} الآية [لقمان: ٣٤] ثم أدبر فقال " ردوه " فلم يروا شيئا فقال ": " هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.

" قال البخاري : جعل ذلك كله من الإيمان. فمراده بهذا الكلام: أن النبي ﷺ سمى جميع ما ذكره في هذا

*وأما الإحسان: ففسره بنفوذ البصائر في الملكوت حتى يصير الخبر للبصيرة كالعيان، فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه. ويتفاوت المؤمنون والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتا كثيرا بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان والإحسان، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك هاهنا بقوله: " أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ". قيل: المراد: أن نهاية مقام الإحسان: أن يعبد المؤمن ربه كأنه يراه بقلبه فيكون مستحضرا ببصيرته وفكرته لهذا المقام فإن عجز عنه وشق عليه انتقل إلى مقام آخر وهو أن يعبد الله على أن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته ولا يخفى عليه شيء من أمره.

* وقد وصى النبي ﷺ طائفة من أصحابه أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، منهم: ابن عمر، وأبو ذر، ووصى معاذا أن يستحيي من الله كما يستحيي من رجل ذي هيبة من أهله . قال بعض السلف: من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص. فهذان مقامان: أحدهما: مقام المراقبة، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه واطلاعه عليه فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله فيراقبه في حركاته وسكناته وسره وعلانيته، فهذا مقام المراقبين المخلصين، وهو أدنى مقام الإحسان.

والثاني: أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة فيصير كأنه يرى الله ويشاهده، وهذا نهاية مقام الإحسان، وهو مقام العارفين. وحديث حارثه هو من هذا المعنى؛ فإنه قال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال النبي ﷺ

: " عرفت فالزم

فمن وصل إلى هذا المقام فقد وصل إلى نهاية الإحسان وصار الإيمان لقلبه بمنزلة العيان فعرف ربه وأنس به في خلوته وتنعم بذكره ومناجاته ودعائه حتى ربما استوحش من خلقه، كما قال بعضهم: عجبت للخليقة كيف أنست بسواك؟! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك. وقيل لآخر: أما تستوحش؟! قال: كيف استوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني ؟

المقامات ومراتب الاسلام

* فهذه المقامات الثلاث " الإسلام والإيمان والإحسان يشملها اسم الدين، فمن استقام على الإسلام إلى موته عصمه الإسلام من الخلود في النار وإن دخلها بذنوبه، ومن استقام على الإحسان إلى الموت وصل على الله عز وجل، وقال تعالى {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وزيادة} [يونس: ٢٦] وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله. خرجه مسلم من حديث صهيب.

* شرح النووي على مسلم :

* قَوْلُهُ ﷺ (الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) هَذَا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي أُوتِيهَا ﷺ لِأَنَّا لَوْ قَدَّرْنَا أَنَّ أَحَدَنَا قَامَ فِي عِبَادَةٍ وَهُوَ يُعَايِنُ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَاجْتِمَاعِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِتَتْمِيمِهَا عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِهَا إِلَّا أَتَى بِهِ فَقَالَ ﷺ اعْبُدِ اللهَّ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ كَعِبَادَتِكَ فِي حَالِ الْعِيَانِ فَإِنَّ التَّتْمِيمَ الْمَذْكُورَ فِي حَالِ الْعِيَانِ إِنَّمَا كَانَ لِعِلْمِ الْعَبْدِ بِاطِّلَاعِ اللهَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ فَلَا يُقْدِمُ الْعَبْدُ عَلَى تَقْصِيرٍ فِي هَذَا الْحَالِ لِلِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ مَعَ عَدَمِ رُؤْيَةِ الْعَبْدِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ فَمَقْصُودُ الْكَلَامِ الْحَثُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ وَمُرَاقَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي إِتْمَامِ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ نَدَبَ أَهْلُ الْحَقَائِقِ إِلَى مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ تَلَبُّسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّقَائِصِ احْتِرَامًا لَهُمْ وَاسْتِحْيَاءً مِنْهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَزَالُ اللهُّ تَعَالَى مُطَّلِعًا عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ

* فتح الباري لابن حجر :

قَوْلُهُ الْإِحْسَانُ هُوَ مَصْدَرٌ تَقُولُ أَحْسَنَ يُحْسِنُ إِحْسَانًا وَيَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ تَقُولُ أَحْسَنْتُ كَذَا إِذَا أَتْقَنْتُهُ وَأَحْسَنْتُ إِلَى فُلَانٍ إِذَا أَوْصَلْتُ إِلَيْهِ النَّفْعَ وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمُرَادُ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِتْقَانُ الْعِبَادَةِ وَقَدْ يُلْحَظُ الثَّانِي بِأَنَّ الْمُخْلِصَ مَثَلًا مُحْسِنٌ بِإِخْلَاصِهِ إِلَى نَفْسِهِ وَإِحْسَانُ الْعِبَادَةِ الْإِخْلَاصُ فِيهَا وَالْخُشُوعُ وَفَرَاغُ الْبَالِ حَالَ التَّلَبُّسِ بِهَا وَمُرَاقَبَةُ الْمَعْبُودِ وَأَشَارَ فِي الْجَوَابِ إِلَى حَالَتَيْنِ أَرْفَعُهُمَا أَنْ يَغْلِبَ عَلَيْهِ مُشَاهَدَةُ الْحَقِّ بِقَلْبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَاهُ بِعَيْنِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ أَيْ وَهُوَ يَرَاكَ وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ أَنَّ الْحَقَّ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ يَرَى كُلَّ مَا يَعْمَلُ وَهُوَ قَوْلُهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَهَاتَانِ الْحَالَتَانِ يُثَمِّرُهُمَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَخَشْيَتُهُ وَقَدْ عَبَّرَ فِي رِوَايَةِ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ بِقَوْلِهِ أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَكَذَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ وَقَالَ النَّوَوِيُّ مَعْنَاهُ أَنَّكَ إِنَّمَا تُرَاعِي الْآدَابَ الْمَذْكُورَةَ إِذَا كُنْتَ تَرَاهُ وَيَرَاكَ لِكَوْنِهِ يَرَاكَ لَا لِكَوْنِكَ تَرَاهُ فَهُوَ دَائِمًا يَرَاكَ فَأَحْسِنْ عِبَادَتَهُ وَإِنْ لَمْ تَرَهُ فَتَقْدِيرُ الْحَدِيثِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَاسْتَمِرَّ عَلَى إِحْسَانِ الْعِبَادَةِ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ وَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْحَدِيثِ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَقَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ عُمْدَةُ الصِّدِّيقِينَ وَبُغْيَةُ السَّالِكِينَ وَكَنْزُ الْعَارِفِينَ وَدَأْبُ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي أُوتِيَهَا ﷺ وَقَدْ نَدَبَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ إِلَى مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنَ التَّلَبُّسِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّقَائِصِ احْتِرَامًا لَهُمْ وَاسْتِحْيَاءً مِنْهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَزَالُ اللَّهُ مُطَّلِعًا عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ .انْتَهَى

* عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»، مسلم

والأذى

* والأَذى: ما يصل إلى الحيوان من ضرر، إمّا في نفسه، أَو في جسمه، أو قُنياته، دنيويّاً كان أَو أخرويّاً {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى} وقوله: {فَآذُوهُمَا} إشارة إلى الضرب. وقوله تعالى {قُلْ هُوَ أَذًى} (سمّاه أذىً) باعتبار الشَّرع، واعتبار الطِّبّ، على حسب ما يذكره أَصحاب هذه

الصّناعة. وأَذِي به كبقِي أَذىً أي تأذّى. والاسم الأَذِيَّة، والأَذاة، وهى المكروه اليسير. وآذى صاحبه (أَذىً وأَذاة وأَذيّة) ولا تقل: إِيذاءً كأَنَّه اسم للمصدر. ومنه الآذىّ للموج المؤذِي لركّاب البحر.

موارد الأذى في القرآن

* وورد في نصّ القرآن على أَحد عشر وجهاً:

الأَوّل بمعنى الحرام: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى} . أَي حرام.

الثاني: بمعنى القَمْل: {أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ} .

الثالث: بمعنى الشِدّة والمِحْنة: {إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ} .

الرابع: بمعنى الشتم والسبّ: {واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا} {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} {وَمِنَ الذين أشركوا أَذًى كَثِيراً} .

الخامس: بمعنى الزُّور، والبهتان على البريء {كالذين آذَوْاْ موسى} ، {يا قوم لِمَ تُؤْذُونَنِي} .

السّادس: بمعنى الجفاءِ والمعصية: {إِنَّ الذين يُؤْذُونَ الله وَرَسُولَهُ} أَي يعصونها.

السّابع: بمعنى التخلُّف عن الغَزَوات: {إِنَّ الذين يُؤْذُونَ الله وَرَسُولَهُ} أَي بالتَّخلُّف عن غزوة تبُوك.

الثامن: شَغْل الخاطر وتفرقة القلب: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبي} .

التَّاسع المنّ عند العطِيّة: {لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى} .

العاشر: بمعنى العذاب والعقوبة: {فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله} .

الحادي عشر: بمعنى غِيبة المؤمنين: {والذين يُؤْذُونَ المؤمنين والمؤمنات بِغَيْرِ مَا اكتسبوا}

بصيرة في الأمة

* الأُمَّة لغة: الرّجُل الجامع للخير، والإمام، وجماعةٌ أَرسل إِليهم رَسُول، والجيل من كل حيّ، والجنس، ومَن هو على الحقّ، ومُخالف لسائر الأَديان، والحِين، والقامة، والأُمُّ، والوجه، والنشاط، والطَّاعة، والعالِم، ومن الوجه: مُعظمُه، ومن الرجل قومه. وأُمَّه الله تعالى: خَلْقه.

أوجه الأمة في الكتاب

* وقد ورد في نصّ القرآن على عشرة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الصَّف المصفوف {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} أَي صفوف.

الثاني: بمعنى السّنين الخالية: {وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ} أَي بعد سنين.

الثالث: بمعنى الرّجل الجامع للخير: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} .

الرابع: بمعنى الدّين، والمِلَّة: {إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} {إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ} .

الخامس: بمعنى الأُمَم السّالفة، والقرون الماضية: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ} .

السّادس: بمعنى القوم بلا عدد {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا}

السابع: بمعنى القوم المعدود: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ} ، {وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً} أَي أَربعين رجلاً.

الثامن: بمعنى الزَّمان الطَّويل: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} .

التاسع: بمعنى الكُفَّار خاصّة: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ} .

العاشر: بمعنى أَهل الإِسلام: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} ، وقوله تعالى: {كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً} أَي صِنفاً واحداً، وعلى طريقة واحدة في الضَّلال والكفر، {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً} أَي في الإِيمان، {وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير} أَي جماعة يتَخَيَّرُون العلم، والعمل الصَّالح، أَي يكونون أُسْوة لغيرهم.

بصيرة في الأكل

* الأَكْل تناول المَطْعَم. وعلى طريق التشبيه [به] يقال: أَكلت النارُ الحطب. والأُكْلُ - بالضمّ

[وبضمّتين]-: اسم لما يؤكل. والأَكْلَة للمرة. والأُكْلة - بالضمّ -: اللُقمة. وأَكِيلة الأَسد: فريسته. وفلان ذو أَكْل من الزَّمان: ذو نصِيب وحَظّ. واستوفى أُكلَه: كناية عن بلوغ الأَجل وأَكل فلاناً: اغتابه.

وجوه الأكل

* وقد ورد في نصّ القرآن على تسعة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الفواكه والثمرات {كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا} .

الثاني: بمعنى تناول المطعم: {وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا} .

الثالث: بمعنى الإِحراق: {حتى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النار} .

الرّابع: بمعنى الابتلاع: {يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ} أَي يبتلعهنّ.

الخامس: بمعنى الإِبطال: {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ} .

السّادس: بمعنى الافتراس: {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب} أَي يفترسه

السّابع: بمعنى الانتفاع بالمأْكول والمشروب والملبوس: {كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً} {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} .

الثامن: بمعنى أَخْذ الأَموال بالباطل: {وَلاَ تَأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل} {إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً} .

التاسع: بمعنى الرّزق المأْكول: {لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم} أَي لجاءَتهم الأَمطار من السّماءِ، والثمار من الأَرض.

* وقد يعبّر بالأَكْل عن الفساد؛ {كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} وتَأَكَّل الشيء: فسد، وأَصابه أُكال في رأْسه وتأَكّلٌ أَي فساد. وكذا في أَسنانه. وهُمْ أَكَلة رأْس: عبارة عن ناس مِن قلَّتهم يُشبعهم رأْسٌ مَشْوِىّ.

بصيرة في الأهل

* أَهل الرّجل: مَن يجمعه وإِيّاهم نسب، أَو دين، أَو ما يَجرى مجراهما: من صناعة، وبيت، وبلد،

(وصنعة) . فأَهل الرّجل [في الأَصل] من يجمعه وإِيّاهم مسكن واحد ثمّ تجوّز به (وقيل) أَهل بيت الرّجل لمن يجمعه وإِياهم [نسب] وتعورف في أُسْرة النبي ﷺ مطلقاً وعُبِّر بأَهل الرّجل عن امرأَته.

* ولمّا كانت الشريعة حكمت برفع النَّسب في كثير من الأَحكام بَيْنَ المسلم والكافر قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} وفى المثل: الأَهل إِلى الأَهل أَسرع من السيْل إِلى السّهل. وفى خبرٍ بلا زمام: إِن لله مَلَكاً في السّماءِ السّابعة تسبيحُه: سُبحان مَنْ يسوق الأَهل إِلى الأَهل. وقال الشاعر:

لا يمنعنَّك خفض العيش فى دَعَة ... نُزُوعُ نفس إِلى أَهل وأَوطان

تلقى بكلّ بلاد إِن حَلَلْت بها ... أَهلاً بأَهل وجيراناً بجيران

وجوه الأهل

* والأَهل في نصّ التنزيل ورد على عشرة أَوجه:

الأَول: بمعنى سُكَّان القرى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى} .

الثاني: بمعنى قُرَّاءِ التوراة والإِنجيل: {يا أَهل الكِتَابِ} وله نظائر.

الثالث: بمعنى أَصحاب الأَموال وأَرباب الأَملاك: {إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأمانات إِلى أَهْلِهَا} أَي أَربابها.

الرّابع: بمعنى العِيَال والأَولاد: {وَسَارَ بِأَهْلِهِ} أَي بزوجه وولده.

الخامس: بمعنى القوم، وذوى القرابة: {فابعثوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ} .

السادس: بمعنى المختار، والخليق، والجدير: {كانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} .

السّابع: بمعنى الأُمّة، وأَهل المِلَّة: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة} .

الثَّامن: المستوجب المستحقّ للشيء: {هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة}

التَّاسع: بمعنى العِترة، والعشيرة، والأَولاد، والأَحفاد، والأَزواج، والذريات: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا} ، {إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت} .

العاشر: بمعنى الأَولاد، وأَولاد أَولاد الخليل: {رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت إِنَّهُ حَمِيدٌ

مَّجِيدٌ} .

* وأَهَّلَك الله في الجنَّة أَي زوّجك، وجعل لك فيها أَهلاً يجمعك وإياهم.

* وجَمْع الأَهل أَهلون وآهال وأَهْلات. وفي الحديث: "اصنع المعروف إِلى من هو أَهله، وإِلى من ليس أَهله. فإِن أَصبت أَهله فهو أَهله، وإِن لم تصب أَهله فأَنت من أَهله".

الزوج

* والزُّوج يطلق على كلِّ واحد من القرينين من الذكر والأُنثى في الحيوانات المتزاوجة، و[يقال] لكلّ قرينين فيها وفي غيرها؛ كالخُفّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترن بآخر مماثلا له ومضادًّا: زوْج، قال تعالى: {يَآ ءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة} ، وزوجة لغة رديئة، والجمع زوجات، وجمع الزَّوج: أَزواج.

* وقوله: {احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ} أَي أَقرانهم المقتدين بهم في أفعالهم.

* وقوله: {مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ} أَي أَشباهاً وأَقراناً.

* وقوله: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} بَيَّن أَنَّ كلَّ ما في العالم فإنه زوج؛ من حيث إِنَّ له ضِدًّا مَّا أَو مِثْلاً مّا، [أَو تركيبا ما] ، بل لا ينفك بوجه من تركيب، وإِنما ذكر هنا زوجين تنبيهاً أَن الشيءَ وإِن لم يكن له ضد ولا مِثْل فإِنه لا ينفك من تركيب صورة ومادَّة وذلك زوجان.

* وقوله تعالى: {أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى} أَي أَنواعاً متشابهة. وقوله: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} أَي أَصناف.

* وقوله: {وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً} أَي فِرَقًا، وهم الذين فسَّرهم بما بعد.

* وقوله: {وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ} قيل: معناه: قُرِن كلّ شِيعة بما شايعهم في الجنة والنار. وقيل: قرنت الأَرواح بأَجسادها حسْبما نبّه عليه في أَحد التَّفسيرين: {ارجعي إلى رَبِّكِ} أَي صاحبك. وقيل: قرنت النفوس بأَعمالها حَسْبما نبّه عليه قوله: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً} .

* وقوله: {وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} أَي قَرَنَّاهم بهنَّ، ولم يرد في القرآن زوّجناهم حورا كما يقال: زوّجته امرأَة، تنبيهاً أَنَّ ذلك لا يكون على حَسَب المُتعارف فيما بيننا من المناكحة.

* قال أبو الفضائل المعيني: ورد في القرآن الزَّوج على أَربعة عشر وجهاً:

الأَوّل: بمعنى أَصناف الموجودات، من الجمادات أَو غير الجمادات: {سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا} .

الثَّاني: بمعنى الحيوانات المأْكولات: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين} ، {أَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} .

وبمعنى أجناس الحيوانات: {قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين} .

وبمعنى كلِّ ما له زوج من المخلوقات: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} .

وبمعنى أَنواع الأَشجار والنَّبات: {مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} .

وبمعنى البنين والبنات: {أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً} .

وبمعنى المنكوحات المحلّلات: {جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} .

وبمعنى المحلِّل في حق المطلَّقات: {حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ} .

وبمعنى المخلَّفات في عدّة: الوفاة: {وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً} .

وبمعنى الحوراءِ والعيناءِ من حرائر الجنَّاتِ: {وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} ، {وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} .

وبمعنى الفواكه والثَّمرات: {فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} .

وبمعنى اقتران الرُّوح بالجسد: {وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ} .

وبمعنى حوَّاءَ عليه السلام: {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} .

وبمعنى مخدَّرات حُجَر النبوّة: {زَوَّجْنَاكَهَا} ، {وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً} ، {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} .

بصيرة في نكح

* النِّكاحُ: الوَطْء، وقد يكونُ العَقْدَ، تقول: نَكَحْتُها، ونَكَحَتْ هي، أَي تَزَوَّجَتْ. وهى ناكِحٌ في بنى فُلان، أَي ذات زَوْجٍ منهم. واسْتَنْكَحَها بمعنى نَكَحها، وأَنْكَحها، أَي زَوَّجها.

ورجلٌ نُكَحَةٌ كهُمَزَة: كثيرُ النِّكاح. [النُّكْحُ] والنِّكْحُ: كلمةٌ كانت العربُ تُزَوِّج بها.

وجوه النكاح

* والنِّكاح استُعْمل في القرآن بمعان:

بمعنى بلوغ الصّبِيّ: {وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ} أَي الحُلُم.

وبمعنى العَطاءِ والهِبَةِ: {إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين}، وكان النبي ﷺ يجوزُ له النِّكاحُ بلفظ الهبَة.

وبمَعْنَى الصُّحْبَة والمُجامَعَة: {حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ} أَي تُجامَع.

وبمعنى التَّزْوِيج والتزَوُّج: {وَلاَ تَنْكِحُواْ المشركات} أَي لا تَزَوَّجُوهُنَّ، {وَأَنْكِحُواْ الأيامى مِنْكُمْ} أَي زَوِّجوهنّ، {فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء} أَي تَزَوَّجُوا بهنَّ.

بصيرة في وجه

* الوَجْهُ: مُسْتَقْبَلُ كلِّ شيءٍ، والجمع أَوْجُهٌ ووُجوهٌ. والوَجْهُ: نَفْسُ الشيء، وقيل: أَصْلهُ الجارِحَة قال الله تعالى: {فاغسلوا وُجُوهَكُمْ} ولمّا كان الوجهُ أَوَّلَ ما يستقبلُك وأَشرفَ ما في ظاهرِ البَدَن استعْمِل في مُسْتَقْبَل كلِّ شيءٍ وفى أَشْرَفه ومَبْدئه.

* ووَجْهُ الدّهرِ: أَوَّلهُ ووَجْهُ النَّجْم: ما بَدا لَك منه. ووَجْهُ الكلامِ: السَبِيلُ المقصودُ منه. ووَجْه القومِ: سَيِّدُهم.

* والوَجْهُ والوِجْه، والوِجْهَةُ، والوُجْهَةُ: الجاهُ والمَنْزِلَةُ.

* وقولُه تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} قيل: إِنَّ الوجه زائدٌ، والمعنى: كلُّ شيء هالكٌ إِلاَّ هو. وقولُه تعالى: {ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام} قيل: المعنى ذاتُه، وقيل: الوجهُ زائد، وقيل: المعنى إِلاَّ التَوَجُّه إِلى الله بالأَعمال الصّالحة. ويُرْوَى أَنَّه قيل لأَبى عبد الله الرّضا إِنَّ بعض العلماءِ يقول: الوَجْهُ زائد والمعنى كلّ شيء هالك إِلاَّ هو. فقال: سبحان الله! لقد قالوا قولاً عظيماً، إِنَّما عُنِىَ الوَجْهُ الذى يُؤتَى منه، ومعناه: كلّ شيء من أَعمالِ العِباد هالك إِلاَّ ما أُريد به وَجْهَ الله. وعلى هذا الآياتُ الأُخَرُ.

صفة الوجه

* شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي :

* صفة الوجه ثابتة لله عز وجل بأدلة الكتاب والسنة، وقد تضافرت أقوال علماء السنة على إثباتها لله عز وجل، كما أثبتها سبحانه لنفسه، وأثبتها له رسوله *، وهذا كعادتهم في إثبات سائر الصفات الله عز وجل، بدون تأويل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، وقد خالف أهل البدع في ذلك فأولوا هذه الصفة، كما أولوا غيرها من الصفات، ظانين منهم أنهم ينزهون الله عز وجل بزعمهم عن الأبعاض والأجزاء ومشابهة المخلوقين، وهذا انحراف وضلال مبين.

* وإذا كان هذا النافي أو المشبه يقول بهذا، فنقول له: اختلاف الذات عن الذات يستلزم اختلاف الصفات، وهذا يعني: أن نثبت الصفات، ولكن على الوجه اللائق بتلك الذات، فلما كانت

الذات كاملة علية جليلة، فلابد وأن تكون الصفات كذلك، فنثبت لله تبارك وتعالى الوجه.

* وهم يقولون: الوجه هو الذات.

فإذا سئلوا: لماذا تقولون إن الوجه هو الذات؟ لقالوا: اعتماداً على قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:٨٨]. ونحن نثبت لله تبارك وتعالى الساق والوجه واليد والعين والنفس، وكل ما أثبته الله تعالى لنفسه، ولو قلنا بإثبات الوجه الحقيقي لله عز وجل لقال النفاة: يلزم من إثباتكم الوجه لله عز وجل: أن ذات الإله هالكة مع من يهلك، ولا ينج إلا وجهه، ويستشهدون بظاهر الآية: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:٨٨].

* رد ابن عثيمين على من أول الوجه بالذات: تعرض الشيخ ابن عثيمين حفظه الله تعالى لرد هذه الشبهة بكلام ممتع وجميل جداً فقال: فإن قيل: ما المراد بالوجه في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:٨٨]؟ إن قلت: المراد بالوجه الذات، فيخشى أن تكون حرفت -يعني: عطلت- فإذا قلت: إن هذا الوجه عبارة عن الذات فيكون المعنى: إنه ذات بلا وجه، كما قال أحد المفسرين: إن الله تبارك وتعالى ليس له وجه، فالله تبارك وتعالى يثبت أن له وجهاً، وهو يقول: ليس لله تبارك وتعالى وجه.

* وقال في قوله تعالى في سورة القصص: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:٨٨]،أي: إلا ذاته. لأنه ليس لله وجه، إذ لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فنفى الوجه عن الله تبارك وتعالى نفياً صريحاً، وقال: الوجه عبارة عن الذات حيث إنه لا وجه له؛ لأنه يلزمنا من إثبات الوجه أن نشبهه بالمخلوقين، ولما كان لا يشبه المخلوقين ولا يشبهه مخلوق يلزمنا نفي صفة الوجه.

ولذلك قال صراحة في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:٨٨]. أي: إلا ذاته؛ لأنه ليس لله وجه، إذ لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

وهذا الرجل قد نفى عن الله تبارك وتعالى صفة الوجه التي أثبتها الله تبارك وتعالى لنفسه، وأثبتها له رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام.

* يقول ابن عثيمين -رحمه الله-: إن قلت المراد بالوجه الذات فيخشى أن تكون حرفت، وهذا

التحريف يستلزم التعطيل، وإن أردت بالوجه نفس الصفة -أي: صفة الوجه- وقعت في محذور، وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره حيث قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه.
يقول: والجواب إن أردت بقولك إلا ذاته يعني: أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح، ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه. أي: بذات لها وجه.

وإن أردت بقولك الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه، فهذا تحريف وهو غير مقبول. أي: أن ابن عثيمين مشى على قاعدة: أن السلف يثبتون الصفة ولازمها، فهو يقول: إذا أردت بالوجه الذات فلا بأس بهذا المراد إذا كنت تثبت أن هذه الذات لها وجه، وأما إذا قصدت أن الوجه هنا يعني الذات المجردة عن الصفة فهذا تحريف وتعطيل.

إذاً: لا بأس أن تقصد بالوجه الذات، ولكن مع الإيمان بأن هذه الذات لها وجه.

* من قال: إن الهلاك يلزم كل شيء إلا الوجه، وأن الله تبارك وتعالى يهلك فقد كفر.

ويكون معنى الآية: إن الله تبارك وتعالى يهلك كل عباده ولا يهلك هو؛ لأن الهلاك صفة عجز ونقص، وهذا لا يجوز على المولى تبارك وتعالى، بل تبقى ذاته ويبقى وجهه، وربما يكون هذا صياغة أخرى لكلام الشيخ ابن عثيمين حفظه الله، ولذلك يقول: وعليه فنقول: {إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:٨٨]، أي: إلا ذاته المتصفة بالوجه، وهذا ليس فيه شيء.

والفرق بين هذا القول وبين قول أهل التحريف: إن هؤلاء يقولون: إن المراد بالوجه الذات ولا وجه لهذه الذات. ونحن نقول: المراد بالوجه الذات المتصفة بأن لها وجهاً، فعبرنا به عن الذات. أي: فعبرنا بالوجه عن الذات رداً على هذه الشبهة.

وهناك أدلة أخرى في كتاب الله عز وجل تدل على إثبات هذه الصفة -أي: صفة الوجه لله- ومنها: قوله تعالى: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} [البقرة:٢٧٢].

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد:٢٢].

* ومن السنة: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (لما قسم النبي ﷺ الغنائم يوم حنين قام إليه رجل وقال: يا محمد! إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله).

فأثبت الوجه لله. فقال النبي ﷺ: (ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟).

يعني: إذا عم الظلم في الأرض فمن يعدل إلا الأنبياء والرسل؟ والشاهد من هذا: أن النبي ﷺ أقره على سياق هذا الكلام وفهمه وأن لله وجهاً، وهذا الرجل هو زعيم الخوارج، ولما ولى قال النبي ﷺ: (ليخرجن من ضئضئ هذا -أي: من صلبه وظهره- قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وصيامكم إلى صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم. قال: فإذا لقيتموهم فاقتلوهم). وهم الخوارج. فهذا إقرار من النبي عليه الصلاة والسلام لفهم هذا الرجل أن لله تعالى وجهاً.

* كلام ابن خزيمة في إثبات صفة الوجه لله تعالى: قال إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد بعد أن أورد جملة من الآيات تثبت صفة الوجه لله عز وجل: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق الشام ومصر مذهبنا أن نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا -أي: نشهد به بألسنتنا- ونصدق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين -يعني: نؤمن بهذه الصفة كما جاءت دون تشبيه ودون تمثيل- عز ربنا عن أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين -يعني: لا وجه شبه بين الخالق والمخلوق- ثم استعاذ من مقالة المعطلين النافين لصفات المولى تبارك وتعالى.

الوجه في آيات

* وقوله تعالى: {وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} قيل: أَراد به الجارِحَةَ واستعارَها كقولك: فعلتُ هذا بِيَدِي. وقيل: أَراد بالإِقامَةِ تَحَرِّيَ الاستقامة، وبالوَجْه التَّوَجُّهَ، والمعنى: أَخْلِصُوا العبادةَ لله في الصلاةِ.

* وقوله تعالى: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِّ} وأَخواتُه من نحو: {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}، الوَجْه في كلّ ذلك كما تقدّم أَو على الاستعارة للمَذْهب والطريق.

ويقال: واجَهْتُ فلاناً، أَي جعلت وَجْهَى تلقاءَ وَجْهه.

* ووَجَهَهُ: ضَرَبَ وَجْهَه فهو مَوْجُوهٌ.

* ووَجَّهَه تَوْجِيهاً: أَرسلَه، وشَرَّ فه كأَوْجَهَه. والمَطَرَةُ الأَرضَ: صَيرَتْها وَجْهاً واحداً.

* وقمتُ وَجاهَه وتُجاهَه مثلَّثين، أَي تِلْقاءَ وَجْهه وتَوَاجَها: تَقابَلاً. والمُوَجَّهُ كمعظَّم: ذُو الجاهِ. وتَوَجَّه: أَقْبَلَ؛ والشيخُ: وَلَّى وأَدْبَرَ، وكَبِرَ؛ والعُمُرُ: تَوَلَّى؛ والجَيْشُ: انْهَزَم.

* والوَجِيه : ذو الجاه، والجمع: وُجَهاءُ، قال تعالى: {وَجِيهاً فِي الدنيا والآخرة} ، وقال تعالى: {وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً} . وأَوْجَهَهُ: صادَفَه وَجِيهاً، وجعله وَجِيهاً. ووَجَّهْتُ: تَوجَّهْتُ. وَوَجَهْتُكَ عند الناسِ أَجِهُكَ: صرتُ أَوْجَه منك.

* والجِهَةُ والجُهَةُ، بالكسر والضمّ، [و] الوَجْهُ: الجانبُ والناحيةُ، والجمع جِهاتٌ.

الوفاء

* الوَفاءُ: التَّمام. ومات فلان وأَنت بوَفاءٍ، أَي بتمام عُمر.

* ووَفَى بالعَهْدِ وأَوْفَى به: حفظَه وتَمَّمه. وهو وَفِيٌّ من قومٍ أَوْفياء، ووَفاةٌ. ووَفَّاه حَقَّه وأَوْفاهُ. قال الله تعالى: {وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ} ، وقال تعالى: {وَأَوْفُواْ بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} .

* وقوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى} ، توفِيَتُه أَنَّه بذل المجهود في جميع ما طُولِب به ممّا أَشار إِليه في قوله تعالى: {إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} ، بَذَل مالَه في الإِنفاق في طاعة الله، وبَذَل وَلَده الذى هو أَعزُّ من نفسه للقُرْبان، وإِلى ما نبّه عليه بقوله وفَّى أَشار بقوله: {وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} .

* ووافَيْتُه بمكان كذا أَتَيْتُه وفاجأْتُه.

* وتَوْفِيَةُ الشَّيءِ: بَذْلُه وافِياً، واستِيفاؤه: تناوُلُه وافيا، قال تعالى: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} ، وقال تعالى: {الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ} .

* وقد عَبَّرَ عن الموت والنَّوم بالتَوَفي ، قال الله تعالى: {الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} .

وقولُه تعالى: {يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} فقد قيل: تَوَفِّيَ رِفْعة واختصاص لا تَوَفِّيَ موت. وقال ابن عبَّاس رضى الله عنهما: تَوَفِّيَ مَوْت لأَنَّه أَماتَه ثم أَحياه.

الصدق

* والصَّدق والكذب أَصلها في القول، ماضيًا كان أَو مستقبلاً، وعدًا كان أَو غيره. ولا يكونان بالقصد الأَوّل إلاَّ في القول، ولا يكونان في القول إلا في الخبر دون غيره من أَنواع الكلام. ولذلك قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثاً} ، وقوله: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد} .

* وقد يكونان بالعَرَض في غيره من أَنواع الكلام كالاستفهام، والأَمر، والدّعاءِ، وذلك نحو قول القائل: أَزَيْدٌ في الدّار؛ فإِن في ضمنه إِخبارً أبكونه جاهلاً بحال زيد، وكذا إِذا قال: واسِنى، في ضمنه أَنَّه محتاج إِلى المواساة. وإِذا قال: لا تؤذني، ففي ضمنه أَنَّه يؤذيه.

* والصّدق: مطابقة القول الضَّميرَ والمُخْبَرَ عنه معًا. ومتى انخَرم شرط من ذلك لا يكون صدقًا [تامًّا] ، بل إِمّا أَلاَّ يوصف بالصّدق، وإِمّا أَن يوصف تارة بالصّدق وتارة بالكذب، على نظرين مختلفين؛ كقول الكافر من غير اعتقاد: محمّد رسول الله، فإِن هذا يصحّ أَنْ يقال: صدقٌ لكون المخبَرِ عنه كذلك، ويصح أَن يقال: كذبٌ لمخالفة قوله ضميرَه. وبالوجه الثاني إِكذاب الله تعالى المنافقين حيث قالوا: إِنَّك لرسول الله فقال: {والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ} .

* والصِّدِّيق: الرّجل الكثير الصّدق. وقيل: الصّدّيق: مَن لم يصدر منه الكذب أَصلاً. وقيل: مَن لا يتأَتَّى منه الكذب لتعوّده الصّدق. وقيل: مَنْ صَدَق بقوله واعتقاده، وحَقَّق صدقه، قال تعالى في حقّ إِبراهيم. {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً} ، وقال: {فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين} ، فالصّدّيقون: قومٌ دون الأَنبياءِ في الفضيلة، ولكن درجتهم ثاني درجة النبيّين.

* وفى الجملة، منزلة الصّدق من أَعظم منازل القوم، الذى نشأَ منه جميع منازل السّالِكين. وهو الطريق الأَقوم الَّذى من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقَطِعين الهالكين. وبه تميّز أَهل النفاق من أَهل الإِيمان، وسكانُ الجنان من أَهل النيران. وهو سيف الله في أَرضه الذى ما وضع على شيء إِلاَّ قطعه، ولا واجه باطلاً إِلاَّ أَزاله وصرعه. فهو رُوح الأَعمال، ومحلّ الأَحوال، والحامل على اقتحام الأَهوال، والباب الذى دخل منه الواصلون إِلى حضرة ذي الجلال.

* وقد أَمر الله سبحانه أَهل الإِيمان أَن يكونوا مع الصّادقين، وخصّص المنعَم عليهم بالنَّبيِّين والصّدِّيقين والشهداء والصّالحين، فقال: {يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين} ، وقال: {وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين} ، فهم أَهل الرّفيق الأَعلى، {وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً} ، ولا يزال الله يَمدّهم بنعمِهِ وأَلطافه، ويزيد إِحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مزيّة المعِيّة مع الله، فإِن الله تعالى مع الصّادقين. ولهم منزلة القرب منه؛ إِذ درجتهم منه ثاني درجة النبيّين، وأَثنى عليهم بأَحسن أَعمالهم: من الإِيمان، والإِسلام، والصّدقة، والصّبر، و بأَنَّهم أَهل الصّدق فقال: {ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} إِلى قوله: {أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون} ، وهذا صريح في أَنَّ الصّدق بالأَعمال الظاهرة والباطنة، وأَنَّ الصّدق هو مَقام الإِسلام والإِيمان. وقسّم سبحانه النَّاس إِلى صادق ومنافق، فقال: {لِّيَجْزِيَ الله الصادقين بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المنافقين إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} .

* والإِيمان أَساسه الصّدق، والنفاق أَساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإِيمان إِلاَّ واَحَدهما يحارب الآخر. وأَخبر سبحانه أَنَّه في القيامة لا ينفع العبدَ وينجيه من عذابِه إِلاَّ صدقُه، فقال تعالى: {هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذلك الفوز العظيم} ، وقال: {والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ أولئك هُمُ المتقون لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ} فالذِي جاءَ بالصّدق هو من شأْنُه الصّدق في قوله، وعمله، وحاله. فالصّدق في الأَقوال: استواءُ اللسان على الأَقوال؛ كاستواءِ السُّنبلة على ساقها. والصّدقُ في الأَعمال: استواء الأَفعال على الأَمر والمتابعة؛ كاستواء الرّأْس على الجَسَد. والصّدق في الأَحوال: استواءُ أَعمال القلب والجوارح على الإِخلاص، واستفراغ الوُسْع، وبذل الطاقة؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءُوا بالصّدق. وبحسب كمال هذه الأُمور فيه، وقيامِها به تكون صِدّيقيّته، ولذلك كان لأَبى بكر الصّدّيق ذروة الصّدّيقيّة، حتى سُمّى

الصّدّيق على الإِطلاق. والصّدّيق أَبلغ من الصَّدُوق، والصَّدُوق أَبلغ من الصَّادق، فأَعلى مراتب الصدق مرتبة الصدّيقيّة، وهى كمال الانقياد للرّسول، مع كمال الإِخلاص للمرسِل.

* وقد أَمَر سبحانه رسوله أَن يسأَله أَن يجعل مُدْخله ومُخرجه على الصّدق، فقال: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} .

وأَخبر عن خليله إِبراهيم عليه السّلام أَنَّه سأَله أَن يجعل له لسان صِدق في الآخِرين. وبشَّر عباده أَنَّ لهم قَدَم صِدق، ومقعد صدق؛ فقال: {وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} ، وقال: {إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} . فهذه خمسة أَشياء: مدخل الصّدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، ومقعد الصّدق، وقَدَم الصّدق. وحقيقة الصّدق في هذا الأَشياءِ هو الحقّ الثَّابت المتَّصل بالله، الموصِّل إِلى الله، وهو ما كان به وله من الأَعمال والأَقوال. وجزاءُ ذلك في الدّنيا والآخرة.

* فمُدخَل الصّدق ومُخرَج الصّدق أَن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا لله تعالى ومرضاتِه. متَّصلا بالظَّفر ببغيته، وحصول المطلوب، ضِدّ مُخرَج الكذب ومُدخله الَّذى لا غاية له يوصّل إِليها، ولا له ساقٌ ثابتة يقوم عليها؛ كمُخرَج أَعدائه يوم بدر. ومُخرج الصّدق كمخرجه هو وأَصحابه في ذلك الغَزْو. وكذلك مدخله المدينة كان مدخل صدق بالله والله وابتغاءَ مرضاة الله، فاتَّصل به التَّأْييدُ، والظفر، والنَّصر. وإِدراك ما طلبه في الدّنيا والآخرة؛ بخلاف مدخل الكذب الذى رام أَعداؤه أَن يدخلوا به المدينة يوم الأَحزاب؛ فإِنَّه لم يكن بالله ولا لله بل محادّة لله وسوله، فلم يتَّصل به إِلاَّ الخِذلانُ والبوار، وكذلك مدخل مَنْ دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حِصن بنى قُرَيظة؛ فإِنَّه لمّا كان مدخل كذب أَصابهم منه ما أَصابهم. وكلّ مدخل ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق، ولذلك فُسّر مدخل الصّدق ومخرجه بخروجه من مَكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أَنَّ هذا على سبيل التَّمثيل؛ فإِنَّ هذا المدخل والمخرج من أَجلّ مداخله ومخارجه صلَّى الله عليه وسلَّم، وإِلاَّ فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق ومخارج صدق. إِذ هي بالله، ولله، وبأَمره،

ولابتغاءِ مرضاته. وما خرج أَحد من بيته أَو دخل سُوقًا أَو مَدْخلا آخر إِلاَّ بصدق أَو كذِب. فمدخل كلّ أَحد ومخرجه لا يَعْدُو الصّدق والكذب والله المستعان.

* وأَمّا لسان الصّدق فهو الثناءُ الحسن من سائر الأُمم بالصّدق ليس بِالكذب؛ كما قال عن أَنبياء: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً} ، والمراد باللسان ههنا الثناءُ الحسن، فلمّا كان باللسان وهو محلّه عبّر عنه به؛ فإِنَّ اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة كقوله تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} ، {واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ} ، {وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ} ، ويراد به الجارحة نفسها كقوله: {لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ} .

* وأَمَّا قدم الصّدق ففُسِّر بالجنة، وفسّر بمحمد ﷺ، وفُسّر بالأَعمال الصّالحة. وحقيقة القدم: ما قدّموه، ويقدَمون عليه يوم القيامة، وهم قدّموا الأَعمال والإِيمان بمحمّد صلَّى الله عليه وسلم، ويقدَمون على الجنة؛ ومَن فسّر بالأَعمال وبالنبي ﷺ فلأَنَّهم قدّموها، وقدّموا الإِيمان به بين أَيديهم.

* وأَمّا مقعد صدق فهو الجنَّة عند ربّهم تبارك وتعالى.

ووصْف ذلك كلِّه بالصّدق مستلزم ثبوتَه واستقراره، وأَنَّه حقّ، ودوامَه ونفعه وكمال عائدته؛ فإِنَّه متَّصل بالحقّ سبحانه، كان به وله.

فهو صدقٌ غير كذب، وحَقّ غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضارّ، ما للباطل ومتعلقاته إِليه سبيل ولا مدخل.

* ومن علامات الصّدق طُمأْنينة القلب إِليه، ومن علامات الكذب حصول الرِّيبة؛ كما في الترمذيّ مرفوعًا: "الصّدق طمأْنينة، والكذب ريبة"، وفى الصّحيحين: "إِنَّ الصّدق يَهدى إِلى البرّ، وإِنَّ البرّ يهدى إِلى الجنَّة، وإِنَّ الرّجل لَيَصْدُقُ حتى يُكتب عند الله صِدّيقًا، وإِنَّ الرّجل لَيَكْذبُ حتى يكتب عند الله كَذَّابًا"، فجعل الصّدق مفتاح الصّدّيقيّة ومبدأَها، وهى غايته، فلا يَنال درجتَها كاذبٌ البتَّة، لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله. ولا سيّما كاذبٍ على الله في أَسمائه وصفاته، بنفي ما أَثبته لنفسه، أَو بإِثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاءِ صِدّيق أَبدًا. وكذلك

الكذب عليه في دينه، وشَرْعه بتحليل ما حرّمه، وتحريم ما أَحلَّه، وإِسقاط ما أَوجبه، وإِيجاب ما أَسقطه، وكراهة ما أَحبّه، واستحباب مالم يحبّه، كلّ ذلك مُنافٍ للصّدّيقيّة. وكذلك الكذب معه في الأَعمال بالتَّحلّي بحِلْية الصّادقين المخلِصين، الزاهدين المتوكلِّين وليس منهم. وكانت الصّدّيقيّة كمال الإِخلاص، والانقياد والمتابعة في كلّ الأُمور؛ حتى إِنّ صِدْق المتبايِعَيْن يُحِلّ البركة في بيعهما، وكذبهما يَمْحَى بركة بيعهما؛ كما في الصّحيحين: قال رسول الله ﷺ: " البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا، فإِنْ صَدَقَا وبيّنا بُورِكَ لهما بيعهما، وإِن كَذَبا وكتما مُحِقَت بركة بيعهما".

* وقال بعضهم: لم يشمّ روائح الصّدق مَنْ داهن نفسه أَو غيره.

* وقال بعضهم: الصّادق: الَّذى يتهيّأُ له أَن يموت ولا يستحى مِن سِرّه لو كُشف. قال تعالى: {فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} .

* وقوله: {لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ} ، أَي يسأَل مَن صدّق بلسانه عن صِدق فعله. وقوله: {رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ الله عَلَيْهِ} أَي حَقَّقُوا العهد بما أَظهروه من أَفعالهم.

* والصّداقة: صِدق الاعتقاد في المودّة، وذلك مختصّ بالإِنسان. وقولُه: {وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ} إِشارة إِلى قوله: {الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين} .

* والصّدَقة: ما يُخرجه الإِنسان من ماله على وجه القُرْبة؛ كالزَّكاة لكن الصّدقة في العرف تقال للمتطوَّع به، والزكاة للواجب. وقيل: سمّى الواجب صدقة إِذا تحرَّى صاحبُه الصّدق في فعله، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} . يقال: صدّق وتصدّق. ويقال لِما تجافى عنه الإِنسان من حقه: تصدُّق؛ نحو قوله تعالى: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} / أَي مَن تَجافى عنه. وقوله: {وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} ، أَجرى ما يُسامَح به المعسِر مُجرى الصّدقة، وعلى هذا قوله تعالى: {وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ} ، فسمّى إِعفاءَه صَدَقَة.

* وقوله: {لولا أخرتني إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ} من الصّدق أَو من الصّدقة.

* وصَدَاق المرأَة وصِدَاقها - بالكسر - وصَدُقتها - بضم الدّال -: ما تعطَى من مهرها. وقد أَصدقتها.

بصيرة في الخلق

* وهو التقدير، وقيل: التقدير المستقيم. ويستعمل في إِبداع الشيء من غير أَصل ولا احتذاء. قال تعالى: {خَلَقَ السماوات والأرض} أي أَبدعهما بدلالة قوله: {بَدِيعُ السماوات والأرض} .

* ويستعمل في إِيجاد الشيء من الشيء. قال تعالى: {خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} .

* وليس الخلق بمعنى الإِبداع إِلاَّ لله تعالى. ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ} وأَمّا الَّذى يكون بالاستحالة فقد جعله الله لغيره في بعض الأَحوال كعيسى عليه السّلام حيث قال: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير}

* والخَلْق لا يستعمل في جميع النَّاس إِلاَّ على وجهين:

أَحدهما في معنى التقدير

والثاني: في الكذب نحو قوله تعالى: {وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً} .

* إِن قيل: قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين} يدل على أَنَّه يصحّ أَن يوصف به غيره، قلنا: إِن ذلك معناه: أَحسن المُقدِّرين، أَو يكون على تقدير ما كانوا يعتقدون ويزعمون أَنَّ غير الله يُبدِعُ، فكأَنَّه قيل: فاحسَب أَنَّ ههنا مبدعين وموجِدين فالله تعالى أَحسنهم إِيجاداً على ما يعتقدون، كما قال: {خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ} . وقوله تعالى: {وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله} قيل: هو إِشارة إِلى ما يشوِّهونه من الخِلْقة بالخِصاءِ ونَتْف اللِّحية وما يجرى مجراه. وقيل: معناه يغيّرون حكمه.

* وقوله: {لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله} إِشارة إِلى ما قدّره وقضاه. وقيل: معنى لا تبديل نهى: لا تغيّروا خلقة الله.

* وقوله: {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ} كناية عن فروج النساءِ.

* وكلّ موضع استعمل فيه الخَلْق في وصف الكلام فالمراد به الكذب. ومن هذا الوجه امتنع كثير من الناس من إِطلاق لفظ الخَلْق على القرآن وعلى هذا قوله: {إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين} وقوله: {مَا سَمِعْنَا بهذا فِي الملة الآخرة إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق} .

* والخَلْق في معنى المخلوق. والخَلْق والخُلْق في الأَصل واحد. كالشَّرب والشُّرْب والصَّرم وَالصُّرْم، ولكن خُصّ الخَلْق بالهيئات والأَشكال والصّور المدرَكة بالبصر، وخُصّ الخُلْق بالقُوَى والسّجايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: لنبيّه ﷺ {وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} قال: ابن عباس رضى الله عنهما: لعَلَى دِين عظيم لا دين أَحبُّ إِلىّ ولا أَرضى عندي منه وهو دين الإِسلام. وقال الحسن: هو أَدب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأْتمر به مِن أَمر الله ويَنْتَهى عنه من نَهْى الله. والمعنى: إِنَّك لعلى الخُلُق الَّذى آثرك الله تعالى به في القرآن. وفى الصّحيحين أَنَّ هشام ابن حَكِيم سأَل عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: كان خُلُقه القرآن.

* واعلم أَنَّ الدّين كلَّه خُلُق. فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين، .. وقيل: حسن الخُلُق: بَذْل النَّدى، وكَفُّ الأَذَى. وقيل: فَكُّ الكفِّ، وكفُّ الفكِّ. وقيل: بذل الجميل وكفُّ القبيح. وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل. وهو يقوم على أَربعة أَركان لا يُتصوّر قيام ساقِه إِلاَّ عليها: الصّبر والعفَّة والشَّجاعة والعدل.

* فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وإِماطة الأَذى والحلم والأَناة والرِّفق وعدم الطَّيش والعجلة.

* والعفَّةُ تحمله على اجتناب الرذائل والقبيح من القول والفعل. وتحمله على الحياءِ وهو ركن كلَّ خير، وتمنعه من الفحش والبخل والكذب والغيبة والنَّميمية.

* والشجاعةُ تحمله على عِزَّةِ النَّفس وإِيثار معالى الأَخلاق والشِّيم، وعلى البذل والنَّدى الذى هو شجاعة النفس وقوّتها على إِخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كَظْم الغيظ والحلم فإِنَّه بقوّة نَفْسه وشجاعتها يمْسك عِنَانها ويكبحها بلجامها عن السّطوة والبطش؛ كما قال النبىّ ﷺ: "ليس الشَّديد بالصُّرَعة إِنَّما الشديد الَّذى يمسك نفسه عند الغضب" وهذه هي حقيقة الشجاعة. وهى مَلَكة يقتدِر معها على قهر خصمه.

* والعدل يحمله على اعتدال أَخلاقة وتوسّطه بين طرفي الإِفراط والتَّفريط فيحمله على خُلُق الجود والسّخاءِ الَّذى هو توسّط بين الإِمساك والتَّقتير، وعلى خُلُق الحياءِ الَّذى هو توسّط بين

الذِّلة والقِحة، وعلى خُلُق الشَّجاعة الَّذى هو توسّط بين الجُبْن والتَّهوّر، وعلى خلق الحلم الذى هو توسّط بين الغضب والمهانة. والتوسّط منشأُ جميع الأَخلاق الفاضلة من هذه الأَربعة.

أوجه الخلق

* والخَلْق ورد في القرآن على ثمانية أَوجه:

الأَوّل: بمعنى دين الحقّ {لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله} أَي لدين الله {فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله} أَي دين الله.

الثاني: بمعنى الكذب {وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً} أَي تكذبون {إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين}.

الثالث: بمعنى التَّصوير {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير} أَي تصوّر.

الرابع: بمعنى التقدير {لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أَي يقدَّرون.

الخامس: بمعنى الإِنطاق {أَنطَقَنَا الله} إِلى قوله {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أَي أَنطقكم.

السّادس: الخَلْقُ بمعنى الجعل {خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ}.

السّابع: بمعنى الإِحياءِ في القيامة {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ} أَي بعثنا {بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم} أَي يبعث.

الثَّامن: بمعنى حقيقة الخِلْقة {خَلَقَ السماوات والأرض} {مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} {أَمْ جَعَلُواْ للهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ} وله نظائر.

الجسد

* والجَسَد والجاسد: ما يبس من الدّم. والجسم ماله طول وعرض وعمق، ولا يخرج أَجزاءُ الجسم عن كونها. أَجساماً وإِن قُطِعَ وجزِّئ. وقوله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} تنبيهاً أَن لا وراءَ الأَشباح معنى معتدّ به. والجُسْمان هو الشخص والشخص قد يخرج عن كونه شخصاً بتقطيعه وتجزئته بخلاف الجسم.

بصيرة في الجعل

* ويرد في القرآن وكلامهم على ثلاثة عشر وجها:

الأَوّل بمعنى: التَّوَجّه والشُّروع في الشيء. يقال: جعل يفعل كذا وطفِق وأَنشأَ وأَخذ وأَقبل يفعل كذا أي اشتغل به.

الثاني بمعنى: الخَلْق {وَجَعَلَ الظلمات والنور} {جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً} {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً} .

الثالث بمعنى: القول والإِرسال {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً} أَي قلناه وأَنزلناه.

الرّابع بمعنى: التسوية {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} {يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً} {يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً} أَي يهيِّئ.

الخامس بمعنى: التَّقدير {قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} أَي قَدَّرَ.

السّادس بمعنى: التبديل {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ} .

السّابع بمعنى إِدخال شيء في شيء {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصواعق} .

الثامن بمعنى: الإِيقاع في القلب والإِلهام {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه} .

التَّاسع بمعنى: الاعتقاد {الذين يَجْعَلُونَ مَعَ الله إلاها آخَرَ} {وَيَجْعَلُونَ للهَّ البنات} .

العاشر بمعنى: التسمية {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} .

الحادي عشر بمعنى: إِيجاد شيء عن شيء وتكوينه منه {جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} .

الثَّاني عشر: في تصيير الشيء على حالةٍ دون حالة، نحو: {جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً} .

الثَّالث عشر: الحكم على الشيء حقّاً كان أَو باطلاً، أَمّا الحقُّ فنحو: {إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين} وأَمّا الباطل فنحو قوله: {وَجَعَلُواْ للهَّ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً} .

* وفى الجملة يكون بمعنى: فَعَل في أَصل المعنى. وعلى أَي معنًى ذكرته فلا يخلو من معنى الفعل، والجَعْلُ أَعمّ من الفعل والصنع وسائر أَخواتها

* والجُعْل والجُعَالة والجَعِيلة: ما يُجعل للإِنسان على فعل شيء. وهو أَعمّ من الأَجر والثواب.

الفحش

* والفُحْش والفَحْشَاءُ والفاحشة: ما عظُم قُبْحه من الأَقوال والأَفعال. قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ

الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} ، وقال: إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ [الأعراف/ ٢٨] ، وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [النحل/ ٩٠] ، مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ [الأحزاب/ ٣٠] ، إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ [النور/ ١٩] ، إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ [الأعراف/ ٣٣] ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ [النساء/ ١٩] ، كناية عن الزّنا، وكذلك قوله: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ [النساء/ ١٥] ، وفَحُشَ فلان: صار فاحشا. يعني به: العظيم القبح في البخل، والْمُتَفَحِّشُ: الذي يأتي بالفحش.

بصيرة في كذب

* كَذَب يَكْذِبُ كَذِباً وكِذْبا وكِذَاباً وأَكذوبة ، وجمع الكاذب: كُذَّب، كراكع ورُكَّع. وجمع الكَذُوب: كُذُب، كصَبُور وصُبُر. وقرأَمُعَاذ بن جَبَل رضى الله عنه وسَلَمة بن محارب الزِّيادى وابن أَبى عَبْلة وأَبو البرهسم: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب} فجعلوه نعتاً للأَلسنة.

* ويقال: كذب كُذَّاباً بالضمّ والتشديد أَي متناهِياً.

* وقوله تعالى: {إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ} كذَّبهم في اعتقادهم لا في مقالهم، فمقالُهم كان صدقاً.

* وقوله: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} نسب الكذب إِلى نفس الفعل، كقولهم: فَعْلَة صادقة، وفعلة كاذبة.

* وكَذَب قد يتعدَّى إِلى مفعولين، تقول: كَذَبتك حديثاً: {الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ} .

* وكذَّبته: نسبته إِلى الكذب، صادقاً كان أَو كاذباً. وما جاءَ في القُرْآن ففي تكذيب الصَّادق، نحو قوله: {رَبِّ انصرني بِمَا كَذَّبُونِ} ، وقوله: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} ، قرئ بالتخفيف والتشديد، ومعناه: لا يجدونك كاذباً، ولا يستطيعون أَن يثبتوا كذبك.

* وقوله: {وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا} أَي علموا أَنهم تُلُقُّوا من جهة الَّذين أُرسلوا إِليهم بالكذب. فكُذِّبوا نحو فسّقوا وزُنُّوا وخُطِّئوا إِذا نسبوا إِلى شىءٍ من ذلك. وقرئ: (كُذِبُوا) بالتخفيف من قولهم: كَذَبتك حديثا، أَي ظنَّ المرسَل إِليهم أَن الرّسل قد كَذَبوهم فيما أَخبروهم به: أَنهم إِن لم يؤمنوا بهم نزل بهم العذاب. وإِنَّما ظنُّوا ذلك من إِمهال الله تعالى إِيَّاهم وإِملائه لهم.

* وقوله: {لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً} الكِذَّاب: التكذيب، والمعنى: لا يَكذِبون فيكذِّبَ بعضهم بعضاً. ونفى التكذيب عن الجنَّة يقتضى نفى الكذب عنها. وقرئ (كِذَاباً) كما تقدَّم، أَي لا يتكاذبون تكاذب النَّاس في الدُّنيا.

الكذب في القرآن

* قال بعض المفسِّرين: ورد الكذب في القرآن:

١ – بمعنى النِّفاق: {وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} ، أَي ينافقون، {والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ} : منافقون.

٢ – وبمعنى الإِشراك بالله ونسبة الولد: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى الله} ، {وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ} .

٣– وبمعنى قذف المحصَنات: {والخامسة أَنَّ لَعْنَةَ الله عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الكاذبين} ، {فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فأولئك عِندَ الله هُمُ الكاذبون} .

٤ – وبمعنى الإِنكار: {مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى} . أَي ما أَنكر.

٥ – وبمعنى خُلْف الوعد: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} ، أَي رَدّ وخُلف.

٦ – وبمعنى الكذب اللغوي: {بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ} ، {فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا} ، {فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} ، {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ} ، {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ} . والله أَعلم.

بصيرة في التوبة

* رجع عن المعصية، وهو تائب، وتوّاب. وتاب الله عليه: وفَّقه للتوبة، أَو رجع به من التَّشديد إِلى التخفيف، أَو رجع عليه بفضله، وقبوله. وهو توّاب على عباده. واستتابه: سأَله أَن يتوب.

* والتوبة من أَفضل مقامات السّالكين؛ لأَنَّهَا أَوّل المنازل، وأَوسطها، وآخرها، فلا يفارقها العبد أَبداً، ولا يزال فيها إِلى المات. وإِن ارتحل السّالك منها إِلى منزل آخر ارتحل به، ونزل به. فهي بداية العبد، ونهايته. وحاجته إِليها في النِّهاية ضروريّة؛ كما حاجتُه إِليها في البداية كذلك.

* وقد قال تعالى: {وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وهذه الآية في سورة مدنيّة، خاطب الله تعالى بها أهل الإِيمان، وخيار خَلْقه أَن يتوبوا إِليه بعد إِيمانهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم، ثمّ علَّق الفلاح بالتوبة تعلُّق المسبّب بسببه، وأَتى بأَداة (لعلّ) المشعرِ بالتَّرجّي؛ إِيذاناً بأَنَّكم إِذا تبتم كنتم على رجاءِ الفلاح، فلا يَرْجوا الفلاحَ إِلاَّ التائبون، جعلنا الله منهم.

* وقد قال – تعالى –: {وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون} قسّم العباد إِلى تائبٍ، وظالم. وما

قِسْم ثالث البتَّة، وأَوقع الظُّلم على مَن لم يتُبْ، ولا أَظْلم منه بجهله بربّه، وبحقِّه، وبعيب نفسه، وبآفات أَعماله. وفى الصّحيح: "يا أَيُّها النَّاسُ توبوا إِلى الله؛ فإِني أَتوب إِليه في اليوم أَكثر من سبعين مرّة"، وكان أَصحابه يَعُدّون له في المجلس الواحد قبل أَن يقوم: (ربّ اغفر لي وتُبْ علىّ إِنَّك أَنت التَّواب الرّحيم) مائة مرّة، وما صلَّى قطُّ بعد نزول سورة النَّصر إلا قال في صلاته: سبحانك اللَّهمّ ربّنا وبحمدك، اللَّهمّ اغفر لي.

* وقوله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ} يريد بالتَّوبة تمييز البقيّة من العزَّة: بأَن يكون المقصود من التَّوبة تقوى الله، وهو خوفه، وخشيته، والقيام بأَمره، واجتناب نهيه، فيعمل بطاعته على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله على نور من الله، يخاف عقاب الله، لا يريد بذلك عِزّ الطَّاعة؛ فإِنَّ للطَّاعة والتَّوبة عزّاً ظاهراً وباطناً، فلا يكون مقصوده العزَّة، وإِن علم أَنها تحصل له بالطَّاعة، والتَّوبة. فمن تاب لأَجل أَمر فتوبتُه مدخولةٌ.

* وسرائر التوبة ثلاثة أَشياءَ هذا أَحدها، والثاني نسيان الجِناية. والثالث التَّوبة من الإِسلام والإِيمان. قلنا المراد منه التَّوبة من رؤية التَّوبة وأَنها إِنَّما حصلت له بتوفيق الله، ومشيئته؛ ولو خُلِّي ونفسه لم يسمح بها البتَّة. فإِذا رآها من نفسه، وغفل عن مِنَّة الله عليه، تاب من هذه الرّؤية، والغفلة. ولكن هذه الرّؤية ليست التَّوبة ولا جُزْأَها، ولا شرطها، بل جناية أُخرى حصلت له بعد التوبة، فيتوب من هذه الجناية؛ كما تاب من الجناية الأُولى. فما تاب إِلاَّ من ذنب أَوّلاً، وآخراً. والمراد التَّوبة من نُقْصان التوبة وعدم توفيتها حقَّها.

* ووجهٌ ثالثٌ لطيف. وهو أَنَّه منْ حصل له مقام الأُنْس بالله – تعالى – وصفاءُ وقته مع الله – تعالى – بحيث يكون إِقباله على الله، واشتغاله بذكر آلائه وأَسمائه وصفاته، أَنفع شيء له، مَتى نزل عن هذا الحال اشتغل بالتَّوبة من جناية سالفة، قد تاب منها، وطالع الجناية، واشتغل بها عن الله تعالى، فهذا نقص ينبغي أَن يتوب إِلى الله منه. وهى توبة من هذه التَّوبة، لأَنَّه نزول من الصّفاءِ إِلى الجفاءِ. فالتَّوبة من التوبة إِنما تُعْقل على أَحد هذه الوجوه الثلاثة. والله أَعلم.

* واعلم أَنَّ صاحب البصيرة إِذا صدرت منه الخطيئة فله في توبته نظر إِلى أُمور. أَحدها النظر

إِلى الوعد والوعيد فيُحدث له ذلك خوفا، وخشيةً تحمله على التوبة.

الثاني: أَن ينظر إِلى أَمره تعالى ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والإقرار على نفسه بالذنب.

الثالث: أَن ينظر إِلى تمكين الله تعالى إِيّاه منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأَنَّه لو شاءَ لعصمه منها، فيحدث له ذلك أَنواعاً من المعرفة بالله، وأَسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته، وعفوه، وحلمه، وكرمه، وتوجب له هذه المعرفة عبوديّةً بهذه الأَسماء، لا تحصل بدون لوازمها، ويعلم ارتباط الخَلْق، والأَمر، والجزاءِ. بالوعد والوعيد بأَسمائه، وصفاته، وأَنَّ ذلك موجَب الأَسماء، والصفات، وأَثرها في الوجود، وأَنَّ كلّ اسم مُفيضٌ لأَثره. وهذا المَشْهد يُطْلعه على رياض مؤنقة المعارف، والإِيمان، وأَسرار القدر، والحكمة يضيق عن التعبير [عنها] نطاق الكلم والنَّظر.

الرّابع: نظره إِلى الآمر له بالمعصية، وهو شيطانه الموكَّل به، فيفيده النظر إِليه اتخاذه عدوًّا، وكمال الاحتراز منه، والتَّحفُّظ والتَّيقُّظ لما يريده منه عدوُّه، وهو لا يشعر؛ فإِنَّه يريد أَن يظفر به في عَقبة * من سبع عقبات بعضُها أَصعب من بعض: عقبة الكفر بالله، ودينه، ولقائه، ثمّ عَقَبة البِدْعة، إِمّا باعتقاده خلافَ الحقّ، وإِمّا بالتَّعبّد بما لم يأْذن به الله من الرّسوم المحدثة. قال بعض مشايخنا: تزوّجت الحقيقةُ الكافرةُ، بالبِدْعة الفاجرة، فولد بينهما خسران الدّنيا والآخرة، ثمّ عقبة الكبائر (يزينها له وأَن الإِيمان فيه الكفاية. ثم عَقَبة الصغائر بأَنها مغفورة ما اجتُنبت الكبائر) ولا يزال يجنيها حتى يصرّ عليها، ثمّ عقبة المباحات، فيشغله بها عن الاستكثار من الطَّاعات. وأَقلُّ ما يناله منه تفويت الأَرباح العظيمة، ثمّ عقبة الأَعمال المرجوحة، المفضولة يُزيّنها له، ويَشْغله بها عمّا هو أَفضل وأَعظم ربحاً. ولكن أَين أَصحاب هذه العقبة! فهم الأَفراد في العالم. والأَكثرون قد ظفِر بهم في العقبة الأُولى. فإِن عَجَز عنه في هذه العقبات جاءَ في عقَبَة تسليط جُنده عليه بأَنواع الأَذى، على حسب مرتبته في الخير. وهذه نبذة من لطائف أَسرار التَّوبة رزقنا الله تعالى [إِيّاها] بمنّه وفضله إِنَّه حقيق بذلك.

وجوه التوبة

* وورد التَّوبة في القرآن على ثلاثة أَوجهٍ:

الأَوّل: بمعنى التجاوز والعفو. وهذا مقيّد بعلى: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} ، {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} ، {وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ} .

الثَّاني: بمعنى الرّجوع، والإِنابة. وهذا مقيّد بإِلى: {تُبْتُ إِلَيْكَ} ، {توبوا إِلَى الله} ، {فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ} .

الثالث: بمعنى النَّدامة على الزَلَّة، وهذا غير مقيّد لا بإِلى، ولا بعلى: {إِلاَّ الذين تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ} ، {فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} .

* ويقال: إِن التَّوبة من طريق المعنى على ثلاثة أَنواع، ومن طريق اللَّفظ وسبيل اللُّطف على ثلاثة وثلاثين درجة: أَمّا المعنى فالأَوّل: التَّوبة من ذنب يكون بين العبد وبين الرّب. وهذا يكون بندامة الجَنَان، واستغفار اللسان.

والثاني: التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين طاعة الرّب. وهذا يكون بجبْر النقصان الواقع فيها.

الثالث: التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين الخَلْق. وهذه تكون بإِرضاءِ الخصوم بأَىّ وجه أَمكن.

* وأَمّا درجات اللطف فالأُولى: أَنَّ الله أَمر الخَلْق بالتَّوبة، وأَشار بأَيُّها الَّتي تليق بحال المؤمن {وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤمِنُونَ} .

الثانية: لا تكون التَّوبة مثمِرة حتى يتمّ أَمرها {توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً} .

الثالثة: لا تنظر أَنَّك فريد في طريق التَّوبة؛ فإِنَّ أَباك آدم كان مقدّم التَّائبين: {فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} ، والكليم موسى لم يكن له لمّا عَلاَ على الطُّور تحفة غير التَّوبة {سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ} .

* ثمّ إِنَّه بشَّر النَّاس بالتَّمتع من الأَعمار، واستحقاق فضل الرّءُوف الغفَّار: {ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ

يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً} . وأَشار صالح على قومه بالتَّوبة، وبشَّرهم بالقُرْبة والإِجابة: {ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} .

* وسيّد المرسلين مع الأَنصار والمهاجرين سلكوا طريق الناس: {لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين} . والصّدّيق الأَكبر اقتدى في التَّوبة بسائر النَّبيّين: {تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين} أَصحاب النبىّ ما نالوا التوبة إِلاَّ بتوفيق الله. {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا} تحرُّزاً من انتشار العصمة أُمِرنَ بالتَّوبة {إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} ومن توقَّف عن سلوك طريق الناس وُسِمَ جبين حاله بميسم الخائبين: {وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون} الأَزواج اللائقة بخاتم النَّبيّين تعيّنّ بالتَّوبة: {قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ} .

* الرّجال لا يُقعدهم على سرير السّرور إِلاَّ التَّوبة: {التائبون العابدون} ولا يظنّ التوَّاب اختصاص النَّعت به (فإِنَّا جعلنا) هذا الوصف من جملة صفات العِلى: {إِنَّ الله كَانَ تَوَّاباً} وإِذا وفَّقنا العبد للتَّوبة تارة قربناه بالحكمة {وَأَنَّ الله تَوَّابٌ حَكِيمٌ} وإِذا قبلنا منه التَّوبة قرّبناه بالرّحمة: {وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} . والمؤمن إِذا تاب أَقبلنا عليه بالقبول، وتكفَّلنا له بنيل المأْمول: {وَيَتُوبَ الله عَلَى المؤمنين والمؤمنات} .

* وإِن أَردت أَن تكون في أَمان الإِيمان، مصاحباً لسلاح الصّلاح، فعليك بالتَّوبة: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً} {إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً} {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحَاً} وإِذا أَقبل العبد على باب التَّوبة استحكم عَقْد أُخُوّته، مع أَهل الإِسلام: {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين} .

* ومن تاب، وقصد الباب، حصل له الفرج بأَفضل الأَسباب: {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ}

* ومن أَثار غبار المعاصي، وأَتبعه برشاش النَّدم، غلَّبت حكمتنا الطَّاعة على المعصية، وسُترت الزَّلَّة بالرّحمة: {خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} .

* السّارق المارق إِذا لاذ وتحرّم بالتَّوبة قبل القدرة عليه، فلا سبيل للإِيذاءِ إِليه: {إِلاَّ الذين تَابُواْ

مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ} .

* وإذا أَردت التَّوبة فأَنا المريد لتوبتك قبلُ: {والله يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} وإذا تبت بتوبتي عليك، وتوفيقي لك، جازيت بالمحبّة: {إِنَّ الله يُحِبُّ التوابين} . وإنا لا نقبل توبةَ مَن يؤخِّر توبتَه إلى آخر الوقت: {وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن} . وإِنَّما يتقبّل توبة مَن تتّصل توبتُه بزَلَّته، وتقترن بمعصيته: {إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} .

* أَعظم الذنوب قتل النفس وإِذا حصل خَطأً من غير عمدٍ فبالتوبة والصّيام كفِّر: {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ الله} .

* نَهَيَنَا سيّد المرسلين عن التحكُّم على عبادنا؛ فإِنَّ ذلك إِلينا. ونحن نتوب عليهم لو نشاءُ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}

* لا تفرّ من التوبة؛ فإنها خير لك في الدّارين: {فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ} ، {فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلكم خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ} ومن رَمَى بنفسه في هُوّة الكفر فلا توبة له {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} أَيظنون أَنا لا نقبل توبة المخلص من عبادنا: {أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ} نحن نأْخذ بيد المذنب، ونقبل باللُّطف توبته: {غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب} ، {وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ} .

* ولهذا قيل: التَّوبة قَصّار المذنبين، وغسّال المجرمين، وقائد المحسنين، وعَطَّار المريدين، وأَنيس المشتاقين، وسائق إلى ربّ العالمين.

السبيل

* السَّبِيلُ: الطّريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبُلٌ، قال: وَأَنْهاراً وَسُبُلًا [النحل/ ١٥] ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا [الزخرف/ ١٠] ، لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ [الزخرف/ ٣٧] ، يعني به طريق الحق، لأنّ اسم الجنس إذا أطلق يختصّ بما هو الحقّ، وعلى ذلك: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [عبس/ ٢٠]

* وابن السَّبِيلِ: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السّبيل لممارسته إيّاه، ويستعمل السَّبِيلُ لكلّ

ما يتوصّل به إلى شيء خيرا كان أو شرّا، قال: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ [النحل/ ١٢٥]، قُلْ هذِهِ سَبِيلِي [يوسف/ ١٠٨]، وكلاهما واحد لكن أضاف الأوّل إلى المبلّغ، والثاني إلى السّالك بهم، قال: قْتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ [آل عمران/ ١٦٩]، إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ [غافر/ ٢٩]، وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ [الأنعام/ ٥٥]، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ [النحل/ ٦٩]، ويعبّر به عن المحجّة، قال: قُلْ هذِهِ سَبِيلِي [يوسف/ ١٠٨]، سُبُلَ السَّلامِ [المائدة/ ١٦]، أي: طريق الجنة، ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ [التوبة/ ٩١]، فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ [الشورى/ ٤١]، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ [الشورى/ ٤٢]، إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا [الإسراء/ ٤٢]، وقيل: أَسْبَلَ السّتر، والذّيل، وفرس مُسْبَلُ الذّنب، وسَبَلَ المطرُ، وأَسْبَلَ، وقيل للمطر: سَبَلٌ ما دام سَابِلًا، أي: سائلا في الهواء، وخصّ السَّبَلَةُ بشعر الشّفة العليا لما فيها من التّحدّر، والسُّنْبُلَةُ جمعها سَنَابِلُ، وهي ما على الزّرع، قال: سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ [البقرة/ ٢٦١]، وقال: سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ [يوسف/ ٤٦]، وأَسْبَلَ الزّرعُ: صار ذا سنبلة، نحو: أحصد وأجنى، والْمُسْبِلُ اسم القدح الخامس.

بصيرة في السبيل

* وهو الطَّريق السّهل، جمعه سُبُل وسُبْل. يذكَّر ويؤنَّث. قال تعالى: {وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}، وقال جلّ ذكره: {قُلْ هذه سبيلي} أي مَحَجّتي وسنَّتي وطريقي. وقوله تعالى: {يا ليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً}، أَي سببًا ووُصْلة.

* وقوله تعالى: {وابن السبيل}، قال ابن عرفة: هو الضَّيف المنقطع به، يُعطَى قدرَ ما يتبلّغ به إلى وطنه. وقيل: ابن السّبيل: المسافرُ البعيد عن منزلة، ونسب إلى السّبيل لممارسته إيّاه.

* وقوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيم} أي طريق واضحٍ بيّن، يعنى مدائن قوم لوط.

* وقوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ}، كان أَهل الكتاب إِذا بايعهم المسلمون قال بعضهم لبعض: ليس للأُميين – يعنى العرب – حرمة أَهل ديننا، وأَموالُهم تحِلّ لنا.

* وقوله تعالى: {وَتَقْطَعُونَ السبيل}، يعنى سبيل الولد. وقيل: تعرضون للنَّاس في الطريق لطلب الفاحشة. قال ابن عباد: السَّبيلة: السبيلُ، والسابلة: أَبناء السّبيل المختلفون في الطُّرقات،

جمع سابل، وهو سالك السّبيل.

* وقوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل} يعنى به طريق الحقّ، لأَنَّ اسم الجنس إِذا أُطْلِقَ يختصّ بما هو الحقّ، وعلى ذلك: {ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ} .

* ويستعمل السّبيل لكلّ ما يتوصّل به إِلى شيء خيرا كان أَو شرًّا.

* وقوله تعالى: {مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام} يعنى طريق الجنَّة

وقال:

الموت لا والدا يُبقى ولا ولدًا ... هذا السّبيل إِلى ألاَّ ترى أَحدَا

* وقوله تعالى: {وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله} أَي في طاعته، ومثله {الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله} ،

* وقوله: {مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً} أَي زادًا وراحلة. وقوله: {أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً} أَي مخرجاً إِلى فضاءِ الأُنْس من حبس الوحشة.

* وقوله تعالى: {فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً} ، {واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً} أَي مَمَرّه.

* وقوله تعالى: {فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} أَي عُذْرًا وعِلَّة.

* وقوله تعالى: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين} أَي دينهم وملَّتهم، ومثله: {ادع إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ}

* وقوله: {وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} أَي طريق هداية. وقوله: {فَمَا جَعَلَ الله لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} أَي حجّة.

* وقوله: {فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل} أَي عن طريق الحقّ.

* وقوله: {فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ} أَي ملامة.

* وقوله: {ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ} أَي المخرج من رحم الأُمّ حال الولادة.

* وقوله: {مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ} ، {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ} أَي إِثم ومعصية.

وأَسْبَلَ السِتْرَ: أَرخاه

سمع

* السَّمْعُ: قوّة في الأذن به يدرك الأصوات، ويعبّر تارة بالسمّع عن الأذن نحو: خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ [البقرة/ ٧]، وتارة عن فعله كَالسَّمَاعِ نحو: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ [الشعراء/ ٢١٢]، وقال تعالى: أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [ق/ ٣٧]، وتارة عن الفهم، وتارة عن الطاعة، تقول: اسْمَعْ ما أقول لك، ولم تسمع ما قلت، وتعني لم تفهم، قال تعالى: وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا [الأنفال/ ٣١]، وقوله: سَمِعْنا وَعَصَيْنا [النساء/ ٤٦]، أي: فهمنا قولك ولم نأتمر لك، وكذلك قوله: سَمِعْنا وَأَطَعْنا [البقرة/ ٢٨٥]، أي: فهمنا وارتسمنا.

* وقوله: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [الأنفال/ ٢١]، يجوز أن يكون معناه: فهمنا وهم لا يفهمون، وأن يكون معناه: فهمنا وهم لا يعملون بموجبه، وإذا لم يعمل بموجبه فهو في حكم من لم يسمع. ثم قال تعالى: وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا [الأنفال/ ٢٣]، أي: أفهمهم بأن جعل لهم قوّة يفهمون بها، وقوله: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ [النساء/ ٤٦]، يقال على وجهين:

أحدهما: دعاء على الإنسان بالصّمم. فالأوّل نحو: أَسْمَعَكَ الله، أي: جعلك الله أصمّ.

والثاني: دعاء له. والثاني: أن يقال: أَسْمَعْتُ فلانا: إذا سببته، وذلك متعارف في السّبّ، وروي أنّ أهل الكتاب كانوا يقولون ذلك للنبيّ ﷺ يوهمون أنهم يعظّمونه، ويدعون له وهم يدعون عليه بذلك.

* وكلّ موضع أثبت الله السّمع للمؤمنين، أو نفى عن الكافرين، أو حثّ على تحرّيه فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتّفكر فيه، نحو: أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها [الأعراف/ ١٩٥]، ونحو: صُمٌّ بُكْمٌ [البقرة/ ١٨]، ونحو: فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ [فصلت/ ٤٤]، وإذا وصفت الله تعالى بِالسَّمْعِ فالمراد به علمه بِالْمَسْمُوعَاتِ، وتحرّيه بالمجازاة بها نحو: قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها [المجادلة/ ١]، لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا [آل عمران/ ١٨١]، وقوله: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ

المَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ [النمل/ ٨٠] ، أي: لا تفهمهم، لكونهم كالموتى في افتقادهم بسوء فعلهم القوّة العاقلة التي هي الحياة المختصّة بالإنسانيّة، وقوله: أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ [الكهف/ ٢٦] ، أي: يقول فيه تعالى ذلك من وقف على عجائب حكمته، ولا يقال فيه: ما أبصره وما أسمعه، لما تقدّم ذكره أنّ الله تعالى لا يوصف إلّا بما ورد به السّمع وقوله في صفة الكفّار: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا [مريم/ ٣٨] ، معناه: أنهم يسمعون ويبصرون في ذلك اليوم ما خفي عليهم، وضلّوا عنه اليوم لظلمهم أنفسهم، وتركهم النّظر، وقال: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا [البقرة/ ٩٣] ، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ [المائدة/ ٤٢] ، أي: يسمعون منك لأجل أن يكذبوا، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ [المائدة/ ٤١] ، أي: يسمعون لمكانهم، والِاسْتِمَاعُ: الإصغاء نحو: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ [الإسراء/ ٤٧] ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ [محمد/ ١٦] ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ [يونس/ ٤٢] ، وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ [ق/ ٤١] ، وقوله: أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ [يونس/ ٣١] ، أي: من الموجد لِأَسْمَاعِهِمْ، وأبصارهم، والمتولّي لحفظها؟ والْمِسْمَعُ والْمَسْمَعُ: خرق الأذن، وبه شبّه حلقة مسمع الغرب

بصيرة في السمع

* وهو قوّة في الأُذُن، بها تدرِك الأَصوات.

* وفى دعاءِ النبي ﷺ: يا من لا يشغله سمعٌ عن سمع، ويامَن لا تغلِّطه المسائل، ويا من لا يُبرمه إِلحاح الملحّين، ارزقني بَرْد عفوك، وحلاوة رحمتك، ورَوْح قربك.

وجوه السمع

* وقد ورد السّمع في التنزيل على وجوه:

الأَوّل: بمعنى الإِفهام: {إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى} أَي لا تفهمهم.

الثاني: بمعنى إِجابة الدّعاءِ: {إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء} .

الثالث: بمعنى فهم القلب: {أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ} ، {إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ} أَي سَمْعِ الفؤاد، {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أَي سمعنا بقلوبنا، وأَطعنا بجوارحنا.

الرّابع: بمعنى سماع جارحة الأُذُن: {سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً} ، {نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} ، {سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} أي سمعنا بالآذان، وعصينا بالجَنَان.

الخامس: بمعنى سَمْع الحقّ تعالى المنزّه عن الجارحة والآلة، المقدّس عن الصِّماخ والمَحارة: {وَكَانَ الله سَمِيعاً بَصِيراً} ، {والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ، {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} .

بصر

* البَصَر يقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: كَلَمْحِ الْبَصَرِ [النحل/ ٧٧] ، وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ [الأحزاب/ ١٠] ، وللقوّة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة:

* بَصِيرَة وبَصَر، نحو قوله تعالى: فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [ق/ ٢٢] ، وقال: ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى [النجم/ ١٧] ، وجمع البصر أَبْصَار، وجمع البصيرة بَصَائِر، قال تعالى: فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ [الأحقاف/ ٢٦] ، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة، ويقال من الأوّل: أبصرت، ومن الثاني: أبصرته وبصرت به ، وقلّما يقال بصرت في الحاسة إذا لم تضامّه رؤية القلب، وقال تعالى في الأبصار: لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ [مريم/ ٤٢] ، وقال: رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا [السجدة/ ١٢] ، وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ [يونس/ ٤٣] ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [الصافات/ ١٧٩] ، بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ [طه/ ٩٦] ومنه: أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [يوسف/ ١٠٨] أي: على معرفة وتحقق. وقوله: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ [القيامة/ ١٤] أي: تبصره فتشهد له، وعليه من جوارحه بصيرة تبصره فتشهد له وعليه يوم القيامة، كما قال تعالى: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ [النور/ ٢٤] . والضرير يقال له: بصير على سبيل العكس، والأولى أنّ ذلك يقال لما له من قوة بصيرة القلب لا لما قالوه، ولهذا لا يقال له: مبصر وباصر، وقوله عزّ وجل: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ [الأنعام/ ١٠٣] حمله كثير من المفسرين على الجارحة، وقيل: ذلك إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام، كما قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: (التوحيد أن لا تتوهمه) وقال: (كلّ ما أدركته فهو غيره) .

* والبَاصِرَة عبارة عن الجارحة الناظرة، يقال: رأيته لمحا باصرا ، أي: نظرا بتحديق، قال عزّ

وجل: فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً [النمل/ ١٣]، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً [الإسراء/ ١٢] أي: مضيئة للأبصار وكذلك قوله عزّ وجلّ: وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً [الإسراء/ ٥٩]، وقيل: معناه صار أهله بصراء، وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ [القصص/ ٤٣] أي: جعلناها عبرة لهم، وقوله: وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [الصافات/ ١٧٩] أي: انظر حتى ترى ويرون، وقوله عزّ وجل: وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [العنكبوت/ ٣٨] أي: طالبين للبصيرة.

* ويصحّ أن يستعار الاسْتِبْصَار للإِبْصَار، نحو استعارة الاستجابة للإجابة، وقوله عزّ وجلّ: وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً [ق/ ٧- ٨] أي: تبصيرا وتبيانا. يقال: بَصَّرْتُهُ تبصيرا وتبصرة، كما يقال: قدّمته تقديما وتقدمة، وذكّرته تذكيرا وتذكرة، قال تعالى: وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ [المعارج/ ١٠ – ١١] أي: يجعلون بصراء بآثارهم، يقال: بصَّرَ الجرو: تعرّض للإبصار لفتحه العين . والبَصْرَة: حجارة رخوة تلمع كأنّها تبصر، أو سمّيت بذلك لأنّ لها ضوءا تبصر به من بعد.

ويقال له بِصْرٌ، والبَصِيرَة: قطعة من الدّم تلمع، والترس اللامع، والبُصْرُ: الناحية، والبَصِيرَةُ ما بين شقتي الثوب، والمزادة ونحوها التي يبصر منها، ثم يقال: بصرتُ الثوب والأديم: إذا خطت ذلك الموضع منه.

بصيرة في البصيرة

* وهى قوّة القلب المدركة. ويقال لها: بَصَر أَيضاً: قال الله – تعالى -: {مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى} وجمع البصر أَبصار، وجمع البصيرة بصائر. ولا يكاد يقال للجارحة الناظرة بصيرة؛ إِنما هى بَصَرٌ؛ نحو {كَلَمْح بالبصر} ويقال للقوّة التي فيها أَيضاً: بَصَر. ويقال منه: أَبصرت، ومن الأَوّل: أَبصرته، وبَصُرت به. وقلَّما يقال في الحاسّة إِذا لم تضامّه رُؤية القلب: بَصُرت. ومنه {أَدْعُو إِلى الله على بَصِيرَةٍ} أَي على معرفة وتحقُّق. وقوله: {بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} أَي عليه من جوارحه بصيرة، فتبصّره وتشهد عليه يوم القيامة. وقال الأَخفش: جعله في نفسه

بصيرة؛ كما يقال: فلان جُود وكرم. فههنا أَيضا كذلك؛ لأَنَّ الإنسان ببديهة عقله يعلم أَن ما يقرّبه إِلى الله هو السّعادة، وما يبعده عن طاعته الشقاوة.

* وقوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار} حمله كثير من المتكلِّمين على الجارحة. وقيل: في ذلك إِشارة إِلى ذلك، وإِلى الأَذهان، والأَفهام. والباصرة: الجارحة الناظرة.

* {وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً} قيل معناه: صار أَهله بُصَراءَ؛ نحو رجل مُخْبِث، ومُضْعِف أَي أَهله خُبثاءُ وضعفاءُ.

* {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ} : آية جعلناها عِبرة لهم. وقوله: {وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} أَي انتظر حتى ترى ويرون. وقوله: {وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ} أَي طالبين للبصيرة. ويصحّ (أَن يستعار) الاستبصار للإِبصار؛ نحو استعارة الاستجابة للإِجابة. وقوله: {تَبْصِرَةً وذكرى} أَي تبصيرا وتبييناً. يقال: بَصّرته تبصيراً، وتَبْصِرة؛ نحو ذكَّرته تذكيراً وتذكرة.

البصر في القرآن

* وورد البصر في القرآن على وجوه:

بصر النظر والحجّة: {فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارجع البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً} ، وبَصَر الأَدب، والحرمة: {مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى} ، وبصر للتعجيل والسّرعة: {وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر} ، وبصر الحيرة والحسرة: {فَإِذَا بَرِقَ البصر} ، وبصر للعمى في الكافر، والجهالة: {وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً} ، وبصر السّؤال عن المعصية، والطَّاعة: {إِنَّ السمع والبصر والفؤاد} ، وبصر في عدم الفائدة والمنفعة: {فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ} ، وبصر للغيّ والغفلة: {أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} ، وبصر للغِطاءِ واللعنة: {فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ} ، وبصر لإِبعاد المنكرين عن اللِّقاءِ والرّؤية: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار} ، وبصر للختم والخسارة: {خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ} وبصر للنَّظر والعِبْرة: {فاعتبروا يا أولي الأبصار} .

بصيرة في شهد

* الشُّهود والشَّهادة: الحضور مع المشاهدة، إِمّا بالبصر أَو البصيرة. وقد يقال للحضور مفردا؛ قال تعالى: {عَالِمُ الغيب والشهادة} . لكنّ الشهود بالحضور المجرّد أَولى، والشهادة مع المشاهدة [أَولى] .

* ويقال للمَحْضَر مَشْهَد، وللمرأَة التي يَحضرها زَوجها مُشْهِد. وجَمْع مَشْهد: مشاهد، ومنه مشاهِد الحجّ، وهى مواطنه الشَّريفة التي تحضرها الملائكة والأَبرار من النَّاس. وقيل: مشاهد الحج: مواضع المناسك.

* وقوله: {مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ} ، أَي ما حضرنا، {والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ} ، أَي لا يحضرونه بنفوسهم ولا بهمّهم وإِرادتهم.

* والشهادة: قولٌ صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أَو بصيرة.

* وقوله: {أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ} يعنى شهادة بمشاهدة البصيرة، ثمّ قال: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} تنبيهًا أَنَّ الشهادة تكون عن شُهود. وقوله: {لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} ، أَي تعلمون.

* وقولُه: {مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات} ؛ أَي ما جعلتهم ممَّن اطَّلعوا ببصيرتهم.

* وقوله: {عَالِمُ الغيب والشهادة} ، أَي ما يغيب عن حواسّ الناس وبصائرهم، وما يشهدونه بهما.

* وشَهِدْتُ يقال على ضربين: أَحدهما جارٍ مَجرى العِلْم، وبلفظه تقام الشهادة، يقال: أَشهد بكذا. ولا يُرضى من الشَّاهد أَن يقول أَعلم، بل يحتاج أَن يقول: أَشهد. والثاني يجرى مجرى القَسَم، فيقول: أَشهدُ بالله إِنَّ زيدًا منطلق. ومنهم من يقول: إِن قال أَشهدُ ولم يقل بالله يكون قسمًا. ويجرى علمتُ مجراه في القَسَم فيجاب بجواب القسم

* ويقال: شاهد، وشهيد، وشهداءُ. ويقال: شهِدت كذا، أَي حضرته، وشهدت على كذا، قال تعالى: {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ} .

* ويعبّر بالشهادة عن الحُكْم؛ نحو: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ} ، وعن الإقرار، نحو: {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ} ، أَي كان ذلكِ شهادة لنفسه.

* وقوله: {شَهِدَ اللهُ} فشهادة الله تعالى بوحدانيته هي إِيجاد ما يدلّ على وحدانيته في العالَم وفى نفوسنا، كما قال الشاعر:

ففي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلّ على أنّه واحد

قال بعض الحكماءِ: [إِن الله تعالى لمّا شهد لنفسه] كان شهادتُه أَن أَنطق كلّ شيءٍ بالشهادة له، وشهادةُ الملائكة بذلك هو إِظهارهم أَفعالاً يؤمرون بها، وهى المدلول عليها بقوله: {فالمدبرات أَمْراً} . وشهادة أولى العلم اطّلاعهم على تلك الحال وإِقرارهم بذلك.

* والشهادة تختصّ بأُولى العلم، فأَمّا الجهّال فمبعَدون عنها. وعلى هذا نبّه بقوله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء} ، وهؤلاءِ هم المعنيّون بقوله: {والصديقين والشهدآء والصالحين} .

* وأَمّا الشهيد فقد يقال للشَّاهد، والمشاهِد للشيء. وقوله تعالى: {مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ} ، أَي مَنْ يشهد له وعليه. وقوله: {أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ} ، أَي يشهدون ما يسمعونه بقلوبهم، على ضدّ من قيل فيهم: {أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} .

* وقولُه: {إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً} ، أَي يشهد صاحبَه الشفاءُ والرّحمة والتَّوفيق والسّكينة، والأَرواح المذكورة في قوله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ} .

* وقوله: {وادعوا شُهَدَآءَكُم} قد فُسّر بكلّ ما يقتضيه معنى الشهادة. قال ابن عبّاس: معناه: أَعوانكم. وقال مجاهد: الذين يشهدون لكم. وقال بعضهم: الذين يُعتدّ بحضورهم

* وقد حُمل على هذه الوجوه قوله تعالى: {وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً} ، وقوله: {وكفى بالله شَهِيداً} ، إِشارة إِلى نحو قوله: {لاَ يخفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} ، وقوله: {يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى} .

* والشهيد الذى هو المحْتَضر فتسميته بذلك لحُضور الملائكة إِيّاه. إِشارة إِلى ما قال: {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ} أَو لأَنَّهم يشهدون في تلك الحالة ما أُعِدّ لهم من النعيم، أَو لأَنَّهم تشهد أَرواحُهم عند الله، كما قال: {بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} ، وقال: {والشهدآء عِندَ

رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} .

* وقولُه: {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} ، قيل: يوم الجمعة، وقيل: يوم عَرَفة، وقيل: يوم القيامة. وشاهد: كلّ من يشهده. وقولُه: {وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} . أَي مشاهَدٌ تنبيهًا أَن لابدّ من وقوعه.

* والتشهّد: هو أَن يقول: أَشهد أَن لا إِله إِلاَّ الله وأَشهد أَنَّ محمَّدًا رسول الله. وصار في التعارف اسمًا للتحيّات المقروءَة في الصّلاة للذِّكر الذى يُقْرَأُ ذلك فيه.

* وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ} ، جعل الله سبحانه كلامه ذكرى يَنْتفع به مَن جَمَع هذه الأُمور الثَّلاثة: أَحدها أَن يكون له قلبٌ حَيّ واع. فإِذا فُقِد هذا القلبُ لم ينتفع بكلامه. الثَّاني: أَن يُصغي بسمعه فيُميلَه كلَّه نحو المخاطِب له، فإِن لم يفعل لم ينتفع بكلامه. الثَّالث: أَن يُحضِر قلبَه وذهنه عند المكَلّم له، وهو الشهيد أَي الحاضر غير الغائب. فإِن غاب قلبُه. وسافر في موضع آخر لم ينتفع بالخطاب. وهذا كما أَنَّ المبْصر لا يدرك حقيقة إِلاَّ إذا كانت له قوّة باصرة وحَدَّق بها نحو المرئىّ، ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك، فإِن فَقَد القوّة المبصِرة، أَو لم يُحدّق نحو المرئي، أَو حَدَّق نحوه وقلبُه كلّه في موضع آخر، فإِنَّه لا يدركه؛ كما أَنَّ كثيرًا ما مَرّ بك إِنسان أَو غيره، وقلبك مشغول بغيره، ولا تشعر بمروره. فهذا الشَّأن يستدعى صحّة القلب، وحضوره، وكمال الإِصغاءِ.

* والمشاهَدةُ من منازل السّالكين وأَهل الاستقامة، منزلة عالية فوق منزلة المكاشَفة. على أَنَّه ليس للعبد في الحقيقة مشاهدة، ولا مكاشفة، لا لِلذَّات ولا للصّفات، أَعنى مشاهدة عِيَان وكشف، وإِنَّما هو مزيد إِيمان. فيجب التَّنبيه والتنبّه ههنا على أَمر، وهو أَنَّ المشاهَد نتائج العقائد، فمن كان معتقَدُهُ ثابتًا في أَمر من الأُمور فإِنَّه إِذا صَفَت نفسُه، وارتاضت، وفارقت الشهوات والرّذائل، وصارت رُوحانيّة، تجلَّى لها صورة معتقَدها كما اعتقدته. وربّما قوى ذلك التَّجلَّى، حتى يصير لها كالعِيَان وليس به، فيقع الغلط من وجهين: أَحدهما أَنَّ ذلك ثابت في الخارج وإِنَّما هو في الذهب، لكن من وجهين: أَحدهما أَنَّ ذلك ثابت في الخارج وإِنَّما هو في الذهن، لكن لمّا صفا وارتاض، وانجلَت عنه ظلمات الطبع، وغاب بمشهوده عن شهوده، واستولت عليه

أَحكام القلب بأَحكام الرّوح، ظنّ أَنَّ ما ظهر له في الخارج. ولا تأخذه في ذلك لومة لائم، ولو جاءَته كلّ آية في السماوات والأَرض، وذلك عنده بمنزلة مَن عاين الهلاك ببصره جهرة، فلو قال له أَهل السّماوات والأَرض: لم تَرَه، لم يلتفت إِليهم. والَّذى يتعيّن وينبغي أَلاَّ يُكذَّب فيما أَخبرَ به عن رؤيته، ولكن إِنَّما رأَى صورة معتقده في ذاته ونفسه لا الحقيقة في الخارج. هذا أَحد الغلطين، وسببه قوّة ارتباط حاسَّة البصر بالقلب، فالعين مِرآة القلب شديدة الإِبصار به. وينضمّ إِلى ذلك قوّة الاعتقاد وضعف التمييز، وعليه حكم الحال على العلم. والغلط الثَّاني أَنَّ الأَمر كما اعتقده، وأَنَّ ما في الخارج مطابق لاعتقاده، فتولّد من هذين الغلطين مثل هذا الكشف والشهود.

* وهى عندهم على ثلاث درجات: مُشاهَدة، ومشاهدة مُعاينةٍ تلبَس نُعوت القدس، وتُخرس أَلْسِنَةَ الإِشارات، ومشاهدة جَمْعٍ تجذب إِلى عين الجمع.

حرم

* الحرام: الممنوع منه إمّا بتسخير إلهي وإمّا بشريّ، وإما بمنع قهريّ، وإمّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع، أو من جهة من يرتسم أمره، فقوله تعالى: وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ [القصص/ ١٢]، فذلك تحريم بتسخير، وقد حمل على ذلك: وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها [الأنبياء/ ٩٥]، وقوله تعالى: فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً [المائدة/ ٢٦]، وقيل: بل كان حراما عليهم من جهة القهر لا بالتسخير الإلهي، وقوله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ [المائدة/ ٧٢]، فهذا من جهة القهر بالمنع، وكذلك قوله تعالى: إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ [الأعراف/ ٥٠]، والمُحرَّم بالشرع: كتحريم بيع الطعام بالطعام متفاضلا، وقوله عزّ وجلّ: وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ [البقرة/ ٨٥]، فهذا كان محرّما عليهم بحكم شرعهم، ونحو قوله تعالى: قُلْ: لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ... الآية [الأنعام/ ١٤٥]، وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ [الأنعام/ ١٤٦]، وسوط مُحَرَّم: لم يدبغ جلده، كأنه لم يحلّ بالدباغ الذي اقتضاه قول النبي ﷺ «أيّما إهاب دبغ فقد طهر»

وقيل: بل المحرّم الذي لم يليّن، والحَرَمُ: سمّي بذلك لتحريم الله تعالى فيه كثيرا مما ليس بمحرّم في غيره من المواضع وكذلك الشهر الحرام، وقيل: رجل حَرَام وحلال، ومحلّ ومُحْرِم، قال الله تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ [التحريم/ ١]، أي: لم تحكم بتحريم ذلك؟ وكلّ تحريم ليس من قبل الله تعالى فليس بشيء، نحو: وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها [الأنعام/ ١٣٨]، وقوله تعالى: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [الواقعة/ ٦٧]، أي: ممنوعون من جهة الجدّ، وقوله: لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [الذاريات/ ١٩]، أي: الذي لم يوسّع عليه الرزق كما وسّع على غيره. ومن قال: أراد به الكلب ، فلم يعن أنّ ذلك اسم الكلب كما ظنّه بعض من ردّ عليه، وإنما ذلك منه ضرب مثال بشيء، لأنّ الكلب كثيرا ما يحرمه الناس، أي: يمنعونه. والمَحْرَمَة والمَحْرُمَة والحُرْمَة، واستحرمت الماعز كناية عن إرادتها الفحل.

بصيرة في الحرام

*وهو الممنوع منه، إمّا بتَسْخير إِلهى، وإِمَّا بمنع بَشَرىّ، وإِما بمنع من جهة العقل أَو من جهة الشرع أَو من جهة من يُرْتَسم أَمره.

* أَما قوله تعالى {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع} فذلك تحريم بتسخير، وقد حُمِل على ذلك قوله تعالى {وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ} وقوله تعالى {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ} وقيل بل كان حراماً عليهم من جهة القهر [لا] بالتخسير الإلهي. وقوله تعالى {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة} فهذا من جهة القهر.

* والمحرم من جهة الشرع ما أُشِير إليه بقوله {وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} هذا كان محرَّماً عليهم بحكم شرعهم. وقوله تعالى {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} الآية.

أوجه الحرام

* وقيل: ورد الحرام في القرآن على عشرة أَوجه:

الأَول: حرام الصّحبة والمناكحة {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} الآية.

الثاني: حرام الفسق والمعصية {إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش} {أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} .

الثالث: حرام العجائب والمعجزة {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ} .

الرابع: حرام العذاب والعقوبة {إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين} {فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة} .

الخامس: حرام فسخ الشريعة {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة} إلى قوله: {ذَلِكُمْ فِسْقٌ} .

السادس: حرام الحرمان والهلكة {وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ} .

السابع: حرام الهوى والشهوة {وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا} {وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا} .

الثامن: حرام النذر والمصلحة {يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ} أَي لِمَ تحكم بتحريم ذلك {إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ} .

التاسع: حرام الحظْر والإِباحة {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر} .

* العاشر: حرام التوقير والحُرْمَة {رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا} وهذا النوع يأْتي على وجوه:

الأَول: وصف المسجد بالحرام {لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام}

الثاني: نعت الأَشهر بالحرام {الشهر الحرام بالشهر الحرام}

الثالث: دعاءُ البيت بالحرام {جَعَلَ الله الكعبة البيت الحرام} . وسُمِّيَ الحَرَم حَرَماً لتحريم الله تعالى فيه كثيراً مما ليس بمحرَّم في غيره من المواضع. ورجلٌ حرام وحلال ومُحِلٌّ ومُحْرِم.

* وكلّ تحريم ليس من قِبَل الله تعالى فليس بشيء.

* وقوله تعالى {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} أَي ممنوعون من جهة الجَدِّ. وقوله تعالى {لِّلسَّآئِلِ والمحروم} أَي الذى لم يوسَّع عليه في الرِّزق كما وُسِّع على غيره. ومن قال: (أَراد به) الْكَلْب، فلم يَعْنِ اَن ذلك اسمٌ للكلب كما ظنه بعض من رَدّ عليه، وإِنما ذلك منه مثال لشيء كثيرا ما يَحْرِمُه الناس أَي يمنعونه.

خبث

* الخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يكره رداءة وخساسة، محسوسا كان أو معقولا، وأصله الرّديء الدّخلة الجاري مجرى خَبَثِ الحديد، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال، قال عزّ وجلّ: وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ [الأعراف/ ١٥٧]، أي: ما لا يوافق النّفس من المحظورات، وقوله تعالى: وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ [الأنبياء/ ٧٤]، فكناية عن إتيان الرّجال. وقال تعالى: ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [آل عمران/ ١٧٩]، أي: الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة، والنّفوس الخبيثة من النّفوس الزّكيّة. وقال تعالى: وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ [النساء/ ٢]، أي: الحرام بالحلال، وقال تعالى: الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ [النور/ ٢٦]، أي: الأفعال الرّديّة والاختيارات المبهرجة لأمثالها، وكذا: الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ، وقال تعالى: قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ [المائدة/ ١٠٠]، أي: الكافر والمؤمن، والأعمال الفاسدة والأعمال الصّالحة، وقوله تعالى: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ [إبراهيم/ ٢٦]، فإشارة إلى كلّ كلمة قبيحة من كفر وكذب ونميمة وغير ذلك، وقال ﷺ: «المؤمن أطيب من عمله، والكافر أخبث من عمله»

* ويقال: خبيث مُخْبِث، أي: فاعل الخبث.

قال تعالى: {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث} أَى ما لا يوافق النَّفْس من المحظورات.

{قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث} أَى كثرة الحرام، وقيل أَى الكافر والمؤمن، والأَعمال الفاسدة والأَعمال الصالحة. وقوله تعالى: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} إِشارة إِلى كلّ كلمةٍ قبيحةٍ من كفر وكذب ونميمةٍ وغير ذلك. وفى الحديث "المؤمن أَطيب من عمله والكافر أَخبث من عمله" وفيه أَيضاً "أَعوذ بك من الخُبْثِ والخبائث" وفى رواية "من الرّجس النجس الخبيث المُخبث الشيطان الرّجيم". المُخْبِث أَى فاعل الخُبْث، وسَبُى خِبْثَةٍ أَى في حِلَّة شُبْهة، يقال في مقابلته سَبْى طيبَة أَي حلال بلا شبهة. ويا خَبَاثِ أَي يا خَبيثة.

طيب

* قال تعالى: فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ [النساء/ ٣]، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ [النساء/ ٤]، وأصل الطَّيِّبِ: ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناولا من حيث ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّباً عاجلا وآجلا لا يستوخم، وإلّا فإنّه- وإن كان طَيِّباً عاجلا- لم يَطِبْ آجلا، وعلى ذلك قوله: كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ [البقرة/ ١٧٢]، فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالًا طَيِّباً [النحل/ ١١٤]، لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ [المائدة/ ٨٧]، كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً [المؤمنون/ ٥١]، وهذا هو المراد بقوله: وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ [الأعراف/ ٣٢]، وقوله: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ [المائدة/ ٥]، قيل: عنى بها الذّبائح، وقوله: وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ [غافر/ ٦٤]، إشارةٌ إلى الغنيمة. والطَّيِّبُ من الإنسان: من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإيّاهم قصد بقوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ [النحل/ ٣٢]، وقال: طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ [الزمر/ ٧٣]، وقال تعالى: هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً [آل عمران/ ٣٨]، وقال تعالى: لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [الأنفال/ ٣٧]، وقوله: وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ [النور/ ٢٦]، تنبيه أنّ الأعمال الطَّيِّبَة تكون من الطَّيِّبِينَ، كما روي: «المؤمن أَطْيَبُ من عمله،

والكافر أخبث من عمله» . قال تعالى: وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ [النساء/ ٢]، أي: الأعمال السّيّئة بالأعمال الصالحة، وعلى هذا قوله تعالى: مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ [إبراهيم/ ٢٤]، وقوله: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [فاطر/ ١٠]، وَمَساكِنَ طَيِّبَةً [التوبة/ ٧٢]، أي: طاهرة ذكيّة مستلذّة. وقوله: بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ [سبأ/ ١٥]، وقيل: أشار إلى الجنّة، وإلى جوار ربّ العزّة، وأما قوله: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ [الأعراف/ ٥٨]، إشارة إلى الأرض الزّكيّة، وقوله: صَعِيداً طَيِّباً [المائدة/ ٦]، أي: ترابا لا نجاسة به، وسمّي الاستنجاء اسْتِطَابَةً لما فيه من التَّطَيُّبِ والتَّطَهُّرِ. وقيل الأَطْيَبَانِ الأكلُ والنّكاحُ ، وطعامُ مَطْيَبَةٍ للنَّفسِ: إذا طَابَتْ به النّفسُ، ويقال وقيل: هما النوم والنكاح، وقيل: التمر واللبن. لِلطَّيِّبِ: طَابٌ، وبالمدينة تمر يقال له: طَابٌ، وسمّيتِ المدينةُ طَيْبَةً، وقوله: طُوبى لَهُمْ [الرعد/ ٢٩]، قيل: هو اسم شجرة في الجنّة ، وقيل: بل إشارة إلى كلّ مُسْتَطَابٍ في الجنّة من بقاءٍ بلا فناءٍ، وعِزٍّ بلا زوالٍ، وغنى بلا فقرٍ.

بصيرة في طيب

* الطَيِّب: ما يستلذُّه الحواسّ من الأَطعمة والأَشربة وغيرها. وقال تعالى: {كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرض حَلاَلاً طَيِّباً}، أَي من المباحات المأْكولة والمشروبة، ونحوه: {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}،

* وقوله تعالى: {يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات} أَي من الحلال.

* وقوله: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث}، أَي الشحوم واللحوم التي كانت محرَّمة على اليهود بنصّ التوراة أَحلّها الله بنصّ القرآن.

* وقوله: {اليوم أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات} أَي الصَّيد والذبائح. {فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً}، أَي الغنائم، ونحوه: {وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات}.

* وقوله: {والطيبات لِلطَّيِّبِينَ}، تنبيه أَن الأَعمال الطيّبة تكون من الطيّبين، كما رُوى: إِن المؤمن أَطيب من عمله، والكافر أَخبث من عمله.

* وقوله: {وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الخبيث بالطيب}، أَي الأَعمال السيّئة بالأَعمال الصالحة.

* وقوله: {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} أَي طاهرة زكيّة مستلذّة.

وقوله: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} ، قيل: إِشارة إِلى الجنَّة وإِلى جِوار ربّ العالمين.

وقوله: {والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ} إِشارة إِلى الأَرض الزكيّة، وقيل: إِشارة إِلى نفس المؤمن وكلمة الشهادة.

* وقوله: {صَعِيداً طَيِّباً} ، أَي ترابًا لا نجاسة فيه. وسمِّى الاستنجاءُ استطابة لما فيه من التطيّب والتطهير.

* و{طوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} ، قيل: اسم شجرة في الجنَّة معروفة. وقيل: بل إِشارة إِلى كلّ مستطاب في الجنَّة: من بقاءٍ بلا فناءٍ، وعزّ بلا ذلّ، وغنًى بلا فقر.

بصيرة في الخير

* وهو ضدّ الشرّ. وهو ما يرغب فيه الكلّ كالعقل مثلا والعدل والفضل والشيء النَّافع. وقيل: الخير ضربان. خير مطلق وهو ما يكون مرغوباً فيه بكلّ حال وعند كلِّ أَحدكما وصف ﷺ به الجنَّة فقال: "لا خير بخير بعده النَّار، ولا شرّ بشرّ بعده الجنَّة".

* وخير وشرّ مقيَّدان وهو أَنَّ خير الواحد شرّ الآخر كالمال الَّذى ربّما كان خيرا لزيدٍ وشراً لعمرو. ولذلك وصفه الله تعالى بالأَمرين فقال في موضع: {إِن تَرَكَ خَيْراً} وقال في موضع آخر {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات} فقوله {إِنْ تَرَكَ خَيْراً} أَي مالاً.

* وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً ومن كان طيب، كما رُوِى أَنَّ علياً رضى الله عنه دخل على مولًى له فقال: أَلا أُوصى يا أَمير المؤمنين؟ قال: لا، لأَنَّ الله تعالى قال {إِن ترك خيراً} وليس لك مال كثير. وعلى هذا أَيضاً قوله {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ} . وقال بعض العلماء: إِنما سمّى المال ههنا خيراً تنبيهاً على معنى لطيف، وهو أَنَّ المال [الذى] يحسن الوصيَّة به ما كان مجموعاً من وجه محمودٍ. وعلى ذلك قوله: {وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ} وقوله: {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً} قيل: عنى به مالاً من جهتهم، [و] قيل: إِن علمتم أَن عتقهم يعود عليكم وعليهم بنفع أَي ثواب.

* وقوله تعالى: {أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي} أَي آثرت حبّ الخير عن ذكر ربِّى. والعرب

تسمَّى الخيل الخير لما فيها من الخير.

* وقوله تعالى: {لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير} أَي لا يَفْتُرُ من طلب المال وما يُصلح دنياه.

* وقوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} أَي بخير لكم فإِن يكن تخفيفا كان خيراً في الدّنيا والآخرة. وإِن يكن تشديداً كان خيراً في الآخرة لأَنَّهم أَطاعوا الله – تعالى ذِكرُه – فيه.

* وقال ابن عرفة في قوله تعالى: {أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ} لم يكن على عهد رسول الله ﷺ خير من نسائه، ولكن إِذا عصينه فطلَّقهن على المعصية فمن سواهنَّ خير منهنّ.

* وقال الرَّاغب: الخير والشَّرّ يقالان على وجهين:

أَحدهما: أَن يكونا اسمين كما تقدّم.

والثَّاني: أَن يكونا وصفين وتقديراهما تقدير أَفعل، نحو هو خير من ذلك وأَفضل. وقوله {وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} يصحّ أَن يكون اسماً وأَن يكون صفة. وقوله {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التقوى} تقديره تقديرُ أَفعل منه.

* والخير يقابَل به الشرّ مرّة والضر مرّة، نحو: {وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ} .

* وقوله: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} قرأ الحسن البصرى وأَبو عثمان النَهْدِىّ والخليل بن أَحمد وطاووس وبكر بن حبيب {فيهنّ خيِّرات} بتشديد الياءِ، والتشديد هو الأَصل. وامرأَة خيّرة وخَيْرة بمعنى. وكذلك رجلٌ خيّر وخَيْر كميّت وميْت. وقوله تعالى: {وأولئك لَهُمُ الخيرات} جمع خَيْرة وهى الفاضلة من كل شيءِ. وقال الأَخفش: وقيل لمَّا وُصِفَ به، وقيل: فلان [خير]– أَشبه الصّفات، فأدخلوا فيه الهاء للمؤنَّث ولم يريدوا أَفعل.

فإِن أَردت معنى التفضيل قلت: فلانة خير النَّاس ولم تقل خيرة الناس وفلان خير النَّاس ولم تقل: أَخْير، لا يثنَّى ولا يجمع لأَنَّه فى معنى أَفعل.

* وقال شمر: يقال ما أَخيره وخَيْره وأَشرّه وشَرّه وهذا أَخير منه وأَشرّ منه. وقال ابن بُزُرْج قالوا: هم الأَخيرون والأَشرّون من الخَيَارة والشَّرَارَة بإِثبات الأَلف. وتقول في الخير والشرّ هو

خير منك وشرّ منك وخُيير منك وشُرَير منك.

* واستخار اللهَ العبدُ فخار له أَي طلب منه الخير فأَولاه. وخايرته في كذا فخِرْتُه: غلبته. والخِيرة الحالة التي تحصل للمستخير والمختار. والاختيار: طلب ما هو خير فعله. وقد يقال لما يراه الإِنسان خيراً وإِن لم يكن خيراً.

* وقوله تعالى: {وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ} يصحّ أَن يكون إِشارة إِلى إِيجاده تعالى إِياهم خيراً، وأَن يكون إِشارة إِلى تقديمهم على غيرهم. والمختار قد يقال للفاعل والمفعول.

دعا

* الدُّعَاء كالنّداء، إلّا أنّ النّداء قد يقال بيا، أو أيا، ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدُّعَاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كلّ واحد منهما موضع الآخر. قال تعالى: كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً [البقرة/ ١٧١]، ويستعمل استعمال التسمية، نحو: دَعَوْتُ ابني زيدا، أي: سمّيته، قال تعالى: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً [النور/ ٦٣]، حثّا على تعظيمه، وذلك مخاطبة من كان يقول: يا محمد، ودَعَوْتَهُ: إذا سألته، وإذا استغثته، قال تعالى: قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ [البقرة/ ٦٨]، أي: سله، وقال: قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ [الأنعام/ ٤٠- ٤١]، تنبيها أنّكم إذا أصابتكم شدّة لم تفزعوا إلّا إليه، وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً [الأعراف/ ٥٦]، وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [البقرة/ ٢٣]، وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ [الزمر/ ٨]، وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ [يونس/ ١٢]، وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ [يونس/ ١٠٦]، وقوله: لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً [الفرقان/ ١٤]، هو أن يقول: يا لهفاه، ويا حسرتاه، ونحو ذلك من ألفاظ التأسّف، والمعنى: يحصل لكم غموم كثيرة. وقوله: ادْعُ لَنا رَبَّكَ [البقرة/ ٦٨]، أي: سله. والدُّعاءُ إلى الشيء: الحثّ على قصده قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ [يوسف/ ٣٣]، وقال: وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ [يونس/ ٢٥]، وقال: يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ [غافر/ ٤١- ٤٢]، وقوله: لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ [غافر/ ٤٣]، أي: رفعة وتنويه.

* والدَّعْوَةُ مختصّة بادّعاء النّسبة، وأصلها للحالة التي عليها الإنسان، نحو: القعدة والجلسة.

* والادِّعاءُ: أن يدّعي شيئا أنّه له، وفي الحرب الاعتزاء، قال تعالى: وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ نُزُلًا [فصلت/ ٣١- ٣٢]، أي: ما تطلبون، والدَّعْوَى: الادّعاء، قال: فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا [الأعراف/ ٥]، والدَّعْوَى: الدّعاء، قال: وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

بصيرة في الدعاء

* الدّعاء: الرّغبة إِلى الله تعالى. وقد دعا يدعو دُعاء ودَعْوَى، والدعاءُ كالنداءِ أَيضاً.. قال الله تعالى: {لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً} حثًّا على تعظيمه ﷺ. وذلك مخاطبة لمن يقول: يا محمد. ودعوته: إِذا سأَلته، وإِذا استغثته. قال الله تعالى: {أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ} تنبيهاً أَنَّكم إِذا أَصابتكم شدّة لم تفزَعُوا إِلاَّ إِليه. وقوله: {وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً} وهو أَن يقول: يا لهفاهْ واحسرتاهْ ونحو ذلك من أَلفاظ التَّأَسف. والمعنى: يحصل لكم غموم كثيرة. وقوله تعالى: {ادع لَنَا رَبَّكَ} أَي سَلْه.

والدعاءُ إِلى الشيء: الحثُّ على قصدهِ. وقوله {لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدنيا وَلاَ فِي الآخرة} أَي رفعة وتنويه. {ولهم الدَّعْوَة على غيرهم} أَي يُبدأَ بهم في الدّعاءِ. و (تداعَوْا عليهم تجمّعوا) . والداعية: صريخ الخيل في الحروب. ودعاه اللهُ بمكروه: أَنزله به. وادّعى كذا زعم أَنَّه له، حقّاً كان أَو باطلاً.

* والاسم الدَّعوة والدَّعاوة والدِّعوة والدِّعاوة. والدَّعوة الحِلْف، والدّعاء إِلى الطَّعام ويضمّ كالمَدْعاة. والدَّعوى: الادّعاءِ. قال {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ} والدّعوى أَيضاً الدّعاء كقوله تعالى: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للهِ رَبِّ العالمين} وقال تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلاً} أَي ما تطلبون.

الدعاء على وجوه

* والدّعاءُ يَرِدُ في القرآن على وجوه:

الأَوّل: بمعنى القول: {فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ} أَي قولهم.

الثاني: بمعنى العبادة {قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنَا} أَي أَنعبدُ. {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ} أَي يعبد، وله نظائر.

الثالث: بمعنى النّدَاء {وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء} أَي النِّداءَ {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ} أَي نادى {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً} أَي بندائك.

الرّابع: بمعنى الاستعانة والاستغاثة {وادعوا شُهَدَآءَكُم} أَي استعينوا بهم {وادعوا مَنِ استطعتم} أَي استعينوا بهم.

الخامس: بمعنى الاستعلام والاستفهام {قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا} أَي استفهم.

السّادس: بمعنى العذاب والعقوبة {تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وتولى} أَي تُعذّب.

السّابع: بمعنى العَرْض {ويا قوم مَا لي أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة} أَي أعرضها عليكم {وتَدْعُونَنى إِلى النَّارِ} أَي تعرضونها عليَّ النارَ.

الثامن: دعوة نوحٍ قومه {إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً} .

التَّاسع: دعوة خاتم الأَنبياءِ لكافَّة الخَلْقِ {ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة} .

العاشر: دعوة الخليل للطيور {ثُمَّ ادعهن يَأْتِينَكَ سَعْياً} .

الحادي عشر: دعاءُ إِسرافيل بنفخ الصّور يوم النشور لساكني القبور {يَوْمَ يَدْعُ الداع إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ} .

الثاني عشر: دعاء الخَلْق ربَّهم تعالى {ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ} .

قال الشاعر:

وصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع

سبيل ُالموت مَنْهَجُ كل حيّ ... وداعيه لأَهل الأَرض داع

* وممّا ورد في القرآن أَيضاً من وجوه ذلك دعوة إِبليس {إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير} {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار} ودعوة الهادين من الأَئمّة الأَعلام {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} ودعوة إسرافيل {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض} ودعوة الكَفَرة الضَّالِّين {وَمَا دُعَآءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} ودعوة الحق تعالى إِلى الجَنَّةِ ذات الظِّلال {والله يدعوا إلى دَارِ السلام} {والله يدعوا إِلَى الجنة} {فَاطِرِ السماوات والأرض يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ} .

أجل

* الأَجَل: المدّة المضروبة للشيء، قال تعالى: لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى [غافر/ ٦٧] ، أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ

قَضَيْتُ [القصص/ ٢٨] . ويقال: دينه مُؤَجَّل، وقد أَجَّلْتُهُ: جعلت له أجلًا، ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال: دنا أجله، عبارة عن دنوّ الموت.

وأصله: استيفاء الأجل أي: مدّة الحياة، وقوله تعالى: بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا [الأنعام/ ١٢٨] ، أي: حدّ الموت، وقيل: حدّ الهرم، وهما واحد في التحقيق.

* وقوله تعالى: ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ [الأنعام/ ٢] ، فالأول: هو البقاء في الدنيا، والثاني: البقاء في الآخرة، وقيل: الأول: هو البقاء في الدنيا، والثاني: مدّة ما بين الموت إلى النشور، عن الحسن، وقيل: الأول للنوم، والثاني للموت، إشارة إلى قوله تعالى: اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها [الزمر/ ٤٢] ، عن ابن عباس.

* وقيل: الأجلان جميعاً للموت، فمنهم من أجله بعارضٍ كالسيف والحرق والغرق وكل شيء غير موافق، وغير ذلك من الأسباب المؤدّية إلى قطع الحياة، ومنهم من يوقّى ويعافى حتى يأتيه الموت حتف أنفه، وهذان هما المشار إليهما بقوله: (من أخطأه سهم الرزيّة لم يخطئه سهم المنيّة) .

وقيل: للناس أجلان، منهم من يموت عبطة ، ومنهم من يبلغ حدّاً لم يجعله الله في طبيعة الدنيا أن يبقى أحد أكثر منه فيها، وإليها أشار بقوله تعالى: وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ [الحج/ ٥] ، وقصدهما الشاعر بقوله:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم

وقول الآخر:

من لم يمت عبطةً يمت هرماً... للموت كأس فالمرء ذائقها

* والآجِل ضد العاجل، والأَجْلُ: الجناية التي يخاف منها آجلًا، فكل أَجْلٍ جناية وليس كل جناية أجلًا، يقال: فعلت كذا من أجله، قال تعالى: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ [المائدة/ ٣٢] ، أي: من جرّاء، وقرئ: (من إجل ذلك) بالكسر. أي: من جناية ذلك.

* ويقال: (أَجَلْ) في تحقيق خبرٍ سمعته. وبلوغ الأجل في قوله تعالى: وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ [البقرة/ ٢٣١] ، هو المدة المضروبة بين الطلاق وبين انقضاء العدة، وقوله

تعالى: فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ [البقرة/ ٢٣٢]، إشارة إلى حين انقضاء العدّة، وحينئذ لا جناح عليهنّ فيما فعلن في أنفسهن.

بصيرة في الأجل

* وقد ورد في النصّ على خمسة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الموت المقدّر: {فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.

الثاني: بمعنى وقت معيّن معتبر {أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ} إمّا العشر وإمّا الثمانية.

الثالث: بمعنى إهلاك الكفَّار: {وَأَنْ عسى أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ} أَى إهلاكهم.

الرّابع: بمعنى عِدّة النساءِ بعد الطَّلاق: {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}.

الخامس: بمعنى العذب والعقوبة: {إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ} أَى عذابه.

* والأَجل في الأَصْل: موضوع للمدّة المضروبة للشيء؛ قال الله تعالى: {ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى} ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإِنسان: أَجَل. فيقال: دنا أَجله، عبارة عن دُنوّ الموت. وأَصله استيفاء الأَجل أَي مدّة الحياة.

* وقوله: {وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا} أَي حدّ الموت. وقيل: حَدّ الهَرَم.

الخيانة

* الخِيَانَة والنّفاق واحد، إلا أنّ الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنّفاق يقال اعتبارا بالدّين، ثم يتداخلان، فالخيانة: مخالفة الحقّ بنقض العهد في السّرّ. ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال: خُنْتُ فلانا، وخنت أمانة فلان، وعلى ذلك قوله: لا تَخُونُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ [الأنفال/ ٢٧]، وقوله تعالى: ضَرَبَ اللهُّ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما [التحريم/ ١٠]، وقوله: وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ [المائدة/ ١٣]، أي: على جماعة خائنة منهم. وقيل: على رجل خائن، يقال: رجل خائن، وخائنة، نحو: راوية، وداهية. وقيل: (خائنة) موضوعة موضع المصدر، نحو: قم قائما، وقوله: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ [غافر/ ١٩]، على ما تقدّم، وقال تعالى: وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا

اللهَّ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ [الأنفال/ ٧١] ،

* وقوله: عَلِمَ اللهُّ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ [البقرة/ ١٨٧] ، والاختيان: مراودة الخيانة، ولم يقل: تخونون أنفسكم، لأنه لم تكن منهم الخيانة، بل كان منهم الاختيان، فإنّ الاختيان تحرّك شهوة الإنسان لتحرّي الخيانة، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [يوسف/ ٥٣] .

بصيرة في الأمانة

* وقد وردت في القرآن على خمسة أَوجه:

الأَوّل في الدّين والدّيانة: {وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ} .

الثاني في المال والنّعمة: {وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً} .

الثالث: في الشرع والسنَّة: {وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ الله مِن قَبْلُ} أَي إِن تركوا الأَمانة في السُّنَّة فقد تركوها في الفريضة.

الرّابع: الخيانة: بمعنى الزّنى {وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين} أَي الزَّانين.

الخامس: بمعنى نَقْض العهد والبَيْعَة: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً} أَي نقضَ عهد. هذا تفصيل الخيانة في الأَمانة.

* وترد الأَمانة على أَوجهٍ:

الأَوّل: بمعنى الفرائض: {إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة} .

الثَّاني بمعنى العِفَّة والصّيانة: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين} .

بصيرة في الإيمان

* وقد ورد في التنزيل على خمسة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى إِقرار اللِّسان: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا} أَي آمنوا باللسان، وكفروا بالجَنَان.

الثَّاني: بمعنى التصديق في السرّ والإِعلان: {إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البرية} .

الثالث: بمعنى التوحيد وكلمة الإيمان: {وَمَن يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} أي بكلمة التَّوحيد.

الرّابع: إيمان في ضمن شرك المشركين أُولى الطُّغيان: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ} . وقولنا: إيمان في ضمن الشِّرك هو معنى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله} .

الخامس: بمعنى الصّلاة: {وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيَمَانَكُمْ} .

* قال أَبو القاسم: الإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة الَّتي جاءَ بها محمّد ﷺ: {إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ} ويوصف به كلُّ مَنْ دخل في شريعته، مقرّا بالله وبنبوّته. وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحقّ على سبيل التَّصديق. وذلك باجتماع ثلاثة أَشياء: تحقيق بالقلب، وإِقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح. ويقال لكلّ واحد من الاعتقاد، والقول الصّدق، والعمل الصّالح: إيمان. (إلاَّ أَن الإِيمان هو التصديق الذى معه الأَمن)

* وقوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بالجبت والطاغوت} مذكور على سبيل الذمّ لهم، وأَنه قد حَصّل لهم الأَمن بما لا يحصل به الأَمن؛ إِذْ ليس من شأْن القلب - ما لم يكن مطبوعاً عليه - أَن يطمئن إِلى الباطل. وهذا كما يقال: إِيمانهُ الكفر، وتحيّته القتل.

* ورجل أُمَنة، وأَمَنة: يثق بكلّ واحد، وأَمينٌ، وأُمّانٌ: يؤمَن به والأَمُون: النَّاقة الَّتي يؤمن فُتورها وعثارها.

عذب

* ماءٌ عَذْبٌ طيّب بارد. قال تعالى: هذا عَذْبٌ فُراتٌ [الفرقان/ ٥٣] ، وأَعْذَبَ القومُ: صار لهم ماءٌ عَذْبٌ، والعَذَابُ: هو الإيجاع الشّديد، وقد عَذَّبَهُ تَعْذِيباً: أَكثر حبسه في العَذَابِ. قال: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً [النمل/ ٢١] ، وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [الأنفال/ ٣٣] ، أي: ما كان يُعَذِّبُهُمْ عَذَابَ الاستئصالِ، وقوله: وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ [الأنفال/ ٣٤] ، لا يُعَذِّبُهُمْ بالسّيف، وقال: وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ [الإسراء/ ١٥] ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [الشعراء/ ١٣٨] ، وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ [الصافات/ ٩] ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [البقرة/

١٠] ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ [الحجر/ ٥٠] ، واختلف في أصله، فقال بعضهم: هو من قولهم: عَذَبَ الرّجلُ: إذا ترك المأكل والنّوم ، فهو عَاذِبٌ وعَذُوبٌ، فَالتَّعْذِيبُ في الأصل هو حمل الإنسان أن يُعَذَّبَ، أي: يجوع ويسهر، وقيل: أصله من العَذْبِ، فَعَذَّبْتُهُ أي: أزلت عَذْبَ حياته على بناء مرّضته وقذّيته، وقيل: أصل التَّعْذِيبِ إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، وقد قال بعض أهل اللّغة: التَّعْذِيبُ هو الضّربُ، وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ إذا كان فيه قذى وكدر، فيكون عَذَّبْتُهُ كقولك: كدّرت عيشه، وزلّقت حياته، وعَذَبَةُ السّوطِ واللّسانِ والشجرِ: أطرافُها.

عذر

* العُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه. ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ، وذلك على ثلاثة أضرب: إمّا أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنبا، أو يقول: فعلت ولا أعود، ونحو ذلك من المقال. وهذا الثالث هو التّوبة، فكلّ توبة عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً، واعْتذَرْتُ إليه: أتيت بِعُذْرٍ، وعَذَرْتُهُ: قَبِلْتُ عُذْرَهُ. قال تعالى: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا [التوبة/ ٩٤] ، والْمُعْذِرُ: من يرى أنّ له عُذْراً ولا عُذْرَ له. قال تعالى: وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ [التوبة/ ٩٠] ، وقرئ (الْمُعْذِرُونَ) أي: الذين يأتون بالعُذْرِ. قال ابن عباس: لعن الله الْمُعَذِّرِينَ ورحم الْمُعَذِّرِينَ ، وقوله: قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ [الأعراف/ ١٦٤] ، فهو مصدر عَذَرْتُ، كأنه قيل: أطلب منه أن يَعْذُرَنِي، وأَعْذَرَ: أتى بما صار به مَعْذُوراً، وقيل: أَعْذَرَ من أنذر : أتى بما صار به مَعْذُوراً، قال بعضهم: أصل العُذْرِ من العَذِرَةِ وهو الشيء النجس ، ومنه سمّي القُلْفَةُ

بصيرة في عذب وعذر

* العَذْب: الماءُ الطيّب. والجمع عِذَابٌ. وعَذُب الماءُ عُذُوبة. قال تعالى: {هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ} . وأَعْذَبوا: صار لهم ماءٌ عذْب. والعَذَاب: (الإيجاع الشديد. وعذَّبه تعذيباً: أَكثر حَبْسه في العذاب. وعذَّبته: كدَّرت عِيشته ورَنَّقت حياته) . وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بالعذاب}

أَي بالمجاعة. وأَصابه منىّ عَذَابُ عِذَبِينَ. وأَصابه منىّ العِذَبُونَ، أَي لا يُرفع عنه العذاب. وعذَّبته تعذيباً: عاقبته أَو أَطلت حبسه في العذاب. وقوله: {وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ} أيى ما كان الله يعذبهمَ عذاب الاستئصال. وقوله: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ الله} أى أَلاَّ يعذِّبهم بالسّيف.

* فالتعذيب حمل الإِنسان على أَن يَعْذِب أَي يجوع ويعطَش ويسهر. وقيل: أَصله من العَذْب، عذَّبته: أَزلت عَذْب حياته كمرّضته وقَذَّيته. وقيل: أَصله إِكثار الضرب بعَذَبة السّوط أَي طرَفها. وقيل: التعذيب هو الضرب. وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذِب: إِذا كان فيه قَذًى وكَدَر.

عهد

* العَهْدُ: حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسمّي الموثق الذي يلزم مراعاته عَهْداً. قال: وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا [الإسراء/ ٣٤]، أي: أوفوا بحفظ الأيمان، قال: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة/ ١٢٤]، أي: لا أجعل عهدي لمن كان ظالما، قال: وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِّ [التوبة/ ١١١]. وعَهِدَ فلان إلى فلان يَعْهَدُ ، أي: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، قال: وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ [طه/ ١١٥]، أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ [يس/ ٦٠]، الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَّ عَهِدَ إِلَيْنا [آل عمران/ ١٨٣]، وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ [البقرة/ ١٢٥]. وعَهْدُ الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسّنّة رسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشّرع كالنّذور وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَّ [التوبة/ ٧٥]، أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ [البقرة/ ١٠٠]، وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَّ مِنْ قَبْلُ [الأحزاب/ ١٥]. والمُعَاهَدُ في عرف الشّرع يختصّ بمن يدخل من الكفّار في عَهْدِ المسلمين، وكذلك ذو الْعَهْدِ، قال ﷺ: «لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِهِ» وباعتبار الحفظ قيل للوثيقة بين المتعاقدين: عُهْدَةٌ، وقولهم: في هذا الأمر عُهْدَةٌ لما أمر به أن يستوثق منه، وللتّفقّد « قيل للمطر: عَهْدٌ، وعِهَادٌ، وروضة مَعْهُودَةٌ: أصابها العِهَادُ.

بصيرة في عهد

* العَهْد: الأَمان، واليمين، والمَوْثِقُ، والذّمّة، والحِفَاظ، والوصيّة. وقد عهدت إِليه أَي أَوصيته،

قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني ءَادَمَ} .

* وقوله تعالى: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين} قال ابن عرفة: معناه أَلاّ يكون الظالم إماماً. وقال غيره: العهد: الأَمان ههنا.

* وقوله تعالى: {فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ} يعنى ميثاقهم، وكذلك هو في قوله تعالى: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله} ، وقوله تعالى: {الذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ} .

* والعَهْد: الضمان، تقول: عَهِدَ إِلَيَّ فلان في كذا وكذا أَي ضَمَّنَنِيه. ومنه قوله تعالى: {وَأَوْفُواْ بعهدي} أَي بما ضَمَّنتكم من طاعتي {أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} أَي بما ضَمِنت لكم من الفوز بالجنَّة. وقوله ﷺ : "إِن حُسْن العهد من الإِيمان" أَي الحِفاظ ورعاية الحُرْمة.

* وقوله تعالى: {إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمان عَهْداً} المراد توحيد الله والإِيمان به.

* والعهد الذى يكتب للولاة من عهد إليه : أَوصاه. والعَهْد: المنزل الذى لا يزال القومُ إِذا انْتَوَوْا عنه رجعوا إِليه. والعهد: المطر بعد المطر.

* والعهد: الوفاءُ، قال الله تعالى: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ} .

عقل

* العَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ، ولهذا قال أمير المؤمنين رضي الله عنه:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع ،

ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع

كما لا ينفع الشّمس ... وضوء العين ممنوع

* وإلى الأوّل أشار ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يردّه عن ردى» وهذا العقل هو المعنيّ بقوله: وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنكبوت/ ٤٣] ، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأوّل، نحو: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ إلى قوله: صُمٌّ بُكْمٌ

عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ونحو ذلك من الآيات، وكلّ موضع رفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأوّل.

* وأصل العَقْل: الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعِقَال، وعَقْل الدّواء البطن، وعَقَلَتِ المرأة شعرها، وعَقَلَ لسانه: كفّه، ومنه قيل للحصن: مَعْقِلٌ، وجمعه مَعَاقِل. وباعتبار عقل البعير قيل: عَقَلْتُ المقتول: أعطيت ديته، وقيل: أصله أن تعقل الإبل بفناء وليّ الدّم، وقيل: بل بعقل الدّم أن يسفك، ثم سمّيت الدّية بأيّ شيء كان عَقْلًا، وسمّي الملتزمون له عاقلة، وعَقَلْتُ عنه: نبت عنه في إعطاء الدّية، ودية مَعْقُلَة على قومه: إذا صاروا بدونه، واعْتَقَلَهُ بالشّغزبيّة : إذا صرعه، واعْتَقَلَ رمحه بين ركابه وساقه، وقيل: العِقَال: صدقة عام، لقول أبي بكر رضي الله عنه (لو منعوني عقالا لقاتلتهم) ولقولهم: أخذ النّقد

(٢) الحديث عن أبي هريرة عن النبي قال: «إنّ الله لما خلق العقل قال له: أقبل: فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك، فبك آخذ وبك أعطي» .

قال ابن تيمية: إنه كذب موضوع باتفاق، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم بإسنادين ضعيفين. انظر: الإحياء مع تخريجه ١/ ٨٣، وحلية الأولياء ٧/ ٣١٨، وكشف الخفاء ١/ ٢٣٦.

(٣) الحديث عن عمر قال: قال رسول الله: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويردّه عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله» ا. هـ. قال العراقي: أخرجه ابن المحبّر في العقل، وعنه الحارث بن أبي أسامة. انظر: الإحياء ١/ ٨٣. قلت: داود بن المحبّر كذّاب، وقال ابن حجر: وأكثر (كتاب العقل) الذي صنّفه موضوعات. مات سنة ٢٠٦ هـ. انظر: تقريب التهذيب ص ٢٠٠.

ولم يأخذ العِقَالَ ، وذلك كناية عن الإبل بما يشدّ به، أو بالمصدر، فإنه يقال: عَقَلْتُهُ عَقْلًا وعِقَالًا، كما يقال: كتبت كتابا، ويسمّى المكتوب كتابا، كذلك يسمّى المَعْقُولُ عِقَالًا، والعَقِيلَةُ من النّساء والدّرّ وغيرهما: التي تُعْقَلُ، أي: تحرس وتمنع، كقولهم: علق مضنّة لما يتعلّق به، والمَعْقِلُ: جبل

أو حصن يُعْتَقَلُ به، والعُقَّالُ: داء يعرض في قوائم الخيل، والعَقَلُ: اصطكاك فيها.

بصيرة في عقل

* العَقل: ضدّ الحُمْق كالمعقول، وعقل الشيءَ: فهِمه. وله قلبٌ عَقُول. وعقل البعيرَ: شدّ وَظيفه إِلى ذراعيه، كعقَّله واعتقله، والقتيلَ: وَداه، وعنه: أَدَّى دِية جنايته، وإِليه عَقْلا وعُقُولا: لجأَ.

* وسُمِّى العقل عقلا لأَنه يَعقل صاحبَه عمّا لا يَحْسُن. وهو القوّة المتهيّئة لقبول العلم. ويقال للعلم الَّذى يستفيدهُ الإِنسان بتلك القوّة العقل أَيضاً؛ ولهذا قيل: (العقل عقلان، فمطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إِذا لم يك مطبوع، كما لا تنفع الشمّس وضوءُ العين ممنوع) /

بصيرة في قلب

* القَلب: الفؤاد، وقد يعبَّر به عن العقل. وقال الفرَّاءُ في قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} ، أَي عقل. يقال: ما قَلْبك معك، أَي ما عقلك. وقيل: القلب أَخصُّ من الفؤاد، ومنه الحديث: "أَتاكم أَهل اليمن أَرقَّ قلوباً وأَلْيَنَ أَفئدةً"، فوصف القلوب بالرِّقة، والأَفئدةَ باللين. وقوله ﷺ: "إِنَّ لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس"، قال الليث: هو من قولك: جئت هذا الأَمر قَلْبا، أَي محضا خالصاً لا يشوبه شيء، ومن قولهم: عربىّ قَلْب، ويستوى فيه المذكر والمؤنَّث والجمع. وإِن شئت قلت: عربيَّة قَلْبة، وثنَّيت وجمعت. وذو القلبين: جميل بن معمر بن حبيب الجُمَحىّ. وكانت قريش تقوم له: ذو القلبين، فنزل فيه قوله تعالى: {مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} .

* وقوله تعالى: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ} ، أَي أَصبح نادما، وتقليب الكفَّين من فعل الأَسِف النادم،

* وقلب الشيء قلباً: حوّله عن وجهه. وقلب رداءَه. وقَلَبَه: كبَّه لوجهه، وقلبه ظَهْرًا لبطن؛ قال تعالى: {وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور} .

* وقوله تعالى: {وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر} ، أَي الأَرواح.

* وقوله: {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} أَي تثبت به شجاعتكم وَيزول خوفكم. وعلى عكسه:

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب}

* وقوله: {ذلكم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} أَي أَجلب للعفَّة، وقوله: {قُلُوبُهُمْ شتى} أَي متفرقة.

القلب في القرآن

* وقيل: القلب ورد في القرآن على ثلاثة معان:

الأَوَّل: بمعنى العقل: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} .

الثاني: بمعنى الرأْي والتدبير: {قُلُوبُهُمْ شتى} أَي آراؤهم مختلفة.

الثالث: بمعنى حقيقة القلب الَّذى في الصَّدر: {ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور} .

* وهذا النَّوع من القلب على سبعة أَوجه:

١ – قلب الكافر: {قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ} .

٢ – قلب المنافق: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} .

٣– قلب العاصِين: {فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ الله} ، {كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} .

٤ – قلب خواصّ العباد {وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} .

٥ – قلب المحبِّين: {لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ} .

٦ – قلب الخائفين: {الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} ، {يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} .

٧– قلب العارفين: {إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} .

* وقال بعض المفسّرين: القلوب سبعة:

١ – قلب الكافر في غِلاف وغطاءٍ: {أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ} ، {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} ، {وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ} .

٢ – وقلب المنافق في حجاب الرّياءِ: {خَتَمَ الله على قُلُوبِهمْ} ، {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} .

٣– وقلب المبتدع في الزَّيْغِ والهَوَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} ، {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا} ، {فَلَمَّا

زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ} .

٤– وقلب الفاسق الغريق في بحر العناءِ: {لِيَجْعَلَ الله ذلك حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} ، {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب} .

٥– وقلب الغافل الرّاغب في الدنيا ودار الفناءِ: {وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} .

٦– وقلب العابد المنتظر ثواب حضرة الكبرياءِ: {إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} .

٧– وقلب العارف المنتظر اللِّقاءَ في دار البقاءِ: {وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان} ، {وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب} .

* وسمّى قلباً لتقلّبه كثيرًا من حال إِلى حال. وفى الحديث: "لَقَلْبُ ابن آدمَ أَسرع تقلّباً من القِدْر إِذا استجمعتْ غَلْيا". وفيه أَيضاً: "إِنَّ مِن قلب ابن آدم إِلى كلّ وادٍ شُعْبة، فمن أَتبع قلبه الشُعَبَ كلَّها لم يبال الله في أَيّ وادٍ أَهلكه". وفى الصّحيحين: "القلوب بين إِصبعين من أَصابع الرحمان يقلّبها كيف يشاءُ" وتقليب الله القلوب صرفها من رأى إِلى رأى.

* والتَقلّب: التصرّف، قال تعالى: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} . وانقلب رأيُه. وانقلب فلان سوءَ مُنْقَلَبٍ، قال تعالى: {وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} . وأَنا أَتقلَّب في نعمائه، وقال تعالى: {فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ} .

* واللُبّ: العقل، والجمع: أَلباب وأَلُبّ؛ كنُعْم وأَنْعُم قال: قلبي إِليه مشرف الأَلُبِّ

* وقيل، اللبّ: ما ذكا من العقل. وكل لُبّ عقل، وليس كل عقل لُبًّا، ولهذا خص الله الأَحكام التي لا تدركها إِلاَّ العقول الذكيَّة بأُولى الأَلباب؛ نحو قوله: {وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب} ونحو ذلك من الآيات.

بشر

* فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا [التغابن/ ٦] ، وعلى هذا قال: إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ [الكهف/ ١١٠] ، تنبيها أنّ الناس يتساوون في البشرية، وإنما يتفاضلون بما يختصون به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة، ولذلك قال بعده: يُوحى إِلَيَّ [الكهف/ ١١٠] ، تنبيها أني بذلك تميّزت عنكم. وقال تعالى: لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ [مريم/ ٢٠] فخصّ لفظ البشر، وقوله: فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا [مريم/ ١٧] فعبارة عن الملائكة، ونبّه أنه تشبّح لها وتراءى لها بصورة بشر، وقوله تعالى: ما هذا بَشَراً [يوسف/ ٣١] فإعظام له وإجلال وأنه أشرف وأكرم من أن يكون جوهره جوهر البشر.

* وبَشَرْتُ الأديم: أصبت بشرته، نحو: أنفته ورجلته، ومنه: بَشَرَ الجراد الأرض إذا أكلته

* والمباشرة: الإفضاء بالبشرتين، وكنّي بها عن الجماع في قوله: وَلا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ [البقرة/ ١٨٧] ، وقال تعالى: فَالْآنَ باشِرُوهُنَّ [البقرة/ ١٨٧] .

* وفلان مُؤْدَم مُبْشَر ، أصله من قولهم: أَبْشَرَهُ الله وآدمه، أي: جعل له بشرة وأدمة محمودة، ثم عبّر بذلك عن الكامل الذي يجمع بين الفضيلتين الظاهرة والباطنة. وقيل معناه: جمع لين الأدمة وخشونة البشرة، وأَبْشَرْتُ الرجل وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْتُهُ: أخبرته بسارّ بسط بشرة وجهه، وذلك أنّ النفس إذا سرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر، وبين هذه الألفاظ فروق، فإنّ بشرته عامّ، وأبشرته نحو: أحمدته، وبشّرته على التكثير، وأبشر يكون لازما ومتعديا، يقال: بَشَرْتُهُ فَأَبْشَرَ، أي: اسْتَبْشَرَ، وأَبْشَرْتُهُ، قال الله عزّ وجلّ: لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قالَ: أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قالُوا: بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ [الحجر/ ٥٣- ٥٤] .

* واستبشر: إذا وجد ما يبشّره من الفرح، قال تعالى: وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ [آل عمران/ ١٧٠] ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ [آل عمران/ ١٧١] ، وقال تعالى: وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ [الحجر/ ٦٧] .

* ويقال للخبر السارّ: البِشارة والبُشْرَى، قال تعالى: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ [يونس/ ٦٤] ، وقال تعالى: لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ [الفرقان/ ٢٢] ، وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا

إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى [هود/ ٦٩] ، يا بُشْرى هذا غُلامٌ [يوسف/ ١٩] ، وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى [الأنفال/ ١٠] .

* والبشير: المُبَشِّر، قال تعالى: فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً [يوسف/ ٩٦] ، فَبَشِّرْ عِبادِ [الزمر/ ١٧] ، وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ [الروم/ ٤٦] ، أي: تبشّر بالمطر.

* وقال ﷺ: «انقطع الوحي ولم يبق إلا المبشّرات، وهي الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له»

* وقال تعالى: فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ [يس/ ١١] ، وقال: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ [آل عمران/ ٢١] ، بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ [النساء/ ١٣٨] ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [التوبة/ ٣] فاستعارة ذلك تنبيه أنّ أسرّ ما يسمعونه الخبر بما ينالهم من العذاب،

* وقال عزّ وجل: وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

* ويقال: أَبشرَ، أي: وجد بشارة، نحو: أبقل وأمحل، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [فصلت/ ٣٠] ، وأبشرت الأرض: حسن طلوع نبتها، ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: (من أحبّ القرآن فليبشر) أي: فليسرّ. قال الفرّاء: إذا ثقّل فمن البشرى، وإذا خفّف فمن السرور يقال: بَشَرْتُهُ فَبَشَرَ، نحو: جبرته فجبر، وقال سيبويه : فَأَبْشَرَ، قال ابن قتيبة : هو من بشرت، الأديم، إذا رقّقت وجهه، قال: ومعناه فليضمّر نفسه، كما روي: «إنّ وراءنا عقبة لا يقطعها إلا الضّمر من الرّجال»

* الحديث أخرجه ابن مردويه والطبراني عن أبي الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أمامكم عقبة كؤدا لا يجوزها المثقلون، فأنا أريد أن أتخفف لتلك العقبة» وإسناده صحيح. راجع: الدر المنثور ٨/ ٥٢٣، والترغيب والترهيب ٤/ ٨٥. وأسباب ورود الحديث ٢/ ٤٢ وأخرجه البزار بلفظ: «إن بين أيديكم عقبة» .

* وتَبَاشِير الوجه وبِشْرُهُ: ما يبدو من سروره، وتباشير الصبح: ما يبدو من أوائله.

* وتباشير النخيل: ما يبدو من رطبه، ويسمّى ما يعطى المبشّر: بُشْرَى وبشَارَة.

بصيرة في البشارة

موارد البشارة

* والبِشَارة وردت في القرآن على اثني عشر وجهاً، لأثني عشر قوماً باثنتي عشرة كرامة.

الأَوّل: بشارة أَرباب الإِنابة بالهداية: {وأنابوا إِلَى الله لَهُمُ البشرى إِلى قوله: {هداهُمُ اللهُ} .

الثَّاني: بشارة المخْبتين والمخلصين بالحفظ والرّعاية: {وَبَشِّرِ المخبتين} .

الثالث بشارة المستقيمين بثبات الولاية: {إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا} إِلى قوله: {وأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ} .

الرّابع: بشارة المتَّقين بالفوز والحماية: {الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ البشرى} .

الخامس: بشارة الخائفين بالمغفرة، والوقاية: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر} إِلى قوله: {فبشِّرْهُ} .

السّادس: بشارة المجاهدين بالرّضا والعناية: {الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ} إِلى قوله: {يُبَشِّرُهُمْ ربُّهُمْ بِرحْمةٍ مِنْهُ ورِضْوانٍ} .

السّابع: بشارة العاصين بالرّحمة والكفاية: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم} إِلى قوله: {ومَنْ يقْنطُ مِنْ رحْمةِ ربِّهِ} .

الثامن: بشارة المطيعين بالجنَّة والسّعادة: {وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ}

التاسع: بشارة المؤمنين بالعطاءِ والشَّفاعة: {وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} .

العاشر: بشارة المنكِرين بالعذاب والعقوبة {بَشِّرِ المنافقين بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} وهذه استعارة ولكن تنبيهٌ أَنَّ أَسرّ ما يسمعونه الخبر بما ينالهم من العذاب.

الحادي عشر: بشارة الصّابرين بالصّلوات والرّحمة: {وَبَشِّرِ الصابرين} إِلى قوله: {أُولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} .

الثاني عشر: بشارة العارفين باللقاءِ والرّؤية: {وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كَبِيراً} .

بصيرة في البشر

* وهو جَمْع البَشَرة، وهى ظاهر الجِلْد. والأَدَمَة: باطنُه. ويجمع على أَبشار أَيضاً. وعُبِّر عن

الإِنسان بالبَشَر؛ اعتباراً بظهور جلده من الشَعَر؛ بخلاف الحيوانات الَّتي عليها الصّوف، أَو الشعرَ، أَو الوبر. ويستوى في لفظ البَشَر الواحد والجمع، وثُنِّيَ فقال – تعالى -: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ} .

موارد البشر قرآنيا

* وقد ورد في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً:

الأَوّل: بمعنى أَبينا آدم الصّفِي: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ} {إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} .

الثاني: بمعنى شَيخ المرسلين نوح: {مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} .

الثالث: بمعنى صالحٍ النبي: {أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ} .

الرّابع: بمعنى يوسف الصّديق: {مَا هذا بَشَراً} .

الخامس: بمعنى موسى وهارون: {فقالوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} .

السّادس: بمعنى جبريل: {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً} . أَي مَلَكا. ونبّه أنه تشبّحَ لها بصورة بشر.

السّابع: بمعنى ابن ماثان: {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} .

الثامن: بمعنى شخص من الإِسرائيليين: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً} أَي من بنى إِسرائيل.

التَّاسع: بمعنى الغلامَين العجميّين اللذين قال كفَّار مكّة: إِنَّ محمّداً ﷺ يتعلَّم القرآن وأَخبار الماضين منهما: {يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} إِنما يعنون جَبْراً ويساراً.

العاشر: بمعنى النبي ﷺ: {قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} وفيه تنبيه أَنَّ الناس يتساوون في البشريّة، وإِنَّما يتفاضلون بما يختصون به من المعارف الجليلة، والأَعمال الجميلة. ولذلك قال بعده: {يُوحَى إِلَيّ} تنبيهاً أَنِّى بذلك تميّزتُ عنكم.

الحادي عشر: بمعنى جُمْلة المرسلين: {فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} .

الثاني عشر: بمعنى جَمْع البشرة: {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} .

الثالث عشر: بمعنى جُمْلَة الآدميّين: {ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} ولها نظائر.

موارد البشير والبشرى

* وقد ورد بالبشير، والبشرى، (والتبشير) والمبشِّر في القرآن على أَوجهٍ:

فالبشير في ثلاثة مواضع

الأَوّل: في حقّ القرآن المجيد: {بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ} .

الثاني: في يهوذا: {فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير} .

الثالث: بمعنى سيّد المرسلين: {وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً} .

وبشرى في ثلاثة

الأَوّل: بشرى في مالك بن دعر لغلامه بأَحسن الحِسان: {يا بشرى هذا غُلاَمٌ} .

الثاني: بشارة المطيعين بخلود الجِنَان: {بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ} .

الثالث: مَنْع الملائكة البشرى عن المجرمين والكفار: {لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ} .

والتبشير في أَربعة مواضع

الأَول: في حال ولادة البنات {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً} .

الثاني: لإِبراهيم الخليل بإِسحاق {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} ، وبأَولاد آخرين {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ} يعنى إِسماعيل، {وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلَيمٍ} {قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بالحق} .

الثالث: لزكريّا بيحيى: {أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله وَسَيِّداً وَحَصُوراً} .

الرّابع: لمريم بعيسى: {إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح} .

والمبشِّر في ثلاثة مواضع

الأَوّل عامّة الرّسل: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} .

الثاني: تبشير عيسى بمَقْدَم سيّد المرسلين: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ} .

الثالث: تبشير النبي ﷺ للعاصين برحمة أَرحم الرّاحمين: {إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً} .

* ويقال: أَبشر الرّجلُ أَي وجد بشارة؛ نحو أَبقل، وأَمْحل: {وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}

* وقول ابن مسعود: من أَحبّ القرآن فليَبْشَر (أَى فليُسَرّ) يقال بشرته مبشِر؛ نحو جبْرته فجبر.

وقال سيبويه: فأَبشر (وقال ابن قتيبة: هو من بشرت الأَديم إِذا رَقَّقت وجهه. قال ومعناه: فليضمِّر نفسه؛ كما روى: إِن وراءَنا عقبةً كئودا لا يقطعها إِلاَّ الضُّمَّرُ من الرّجال.

* وتباشير الوجه: ما يبدو من سروره. وتباشير النخل: ما يبدو من رُطَبه، ومن الصّبح: ما يبدو من أَوائله. ويسمّى ما يعطى المبشِّر البُشْرى. والبُشَارة بالضم.

بصيرة في البركات

* وقد وردت البركة في القرآن في أَربعة عشر شيئاً:

الأَوّل: في الكعبة الَّتي هي قبلة العالمين: {لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً} .

الثاني: في المَطَر الَّذى به حياة المتنفِّسين: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً} .

الثالث: في السّلام الذى هو شِعَار المسلمين: {تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً} .

الرابع: في أَولاد إِبراهيم خليل ربّ العالمين: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ} {رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت} .

السّادس: في أَولاد نوح شيخ المرسلين: {يا نوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ} .

السّابع: في الأَرض التي هي مَقَرّ الآدميين: {وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا} .

الثامن: في البُقْعة الَّتي هي محلّ موسى [حيث ناداه] ربّ العالمين: {في البقعة المباركة} .

التَّاسع: في نار موسى ليلة طور سينين {أَن بُورِكَ مَن فِي النار} أَي في طلب النار .

العاشر: في شجرة الزَّيتون، الممثّل بنور معرفة العارفين: {يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ} .

الحادي عشر: في المسجد الأَقصى الَّذى هو مَمَرّ سيّد الرّسل إِلى أَعلى علِّيّين: {إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} .

الثَّاني عشر: في ليلة القَدْر التي هي موسم الرّحمة والغفران للعاصين والمذنبين {إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} .

الثالث عشر: في القرآن الذى هو أَعظم معجزات البَشَر: {وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ} .

الرابع: عشر في المَنْزل الَّذى قُصِد، لا على التعيين: {رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً} أَي حيث يوجد

الخير الإلهي.

* والبركة معناها ثبوت الخير الإلهي في الشيء. والمادّة موضوعة للزوم والثبوت. وقوله - تعالى {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض} سمّى بذلك لثبوت الخير (فيه ثبوت الماءِ في البِرْكة. والمبارك ما فيه ذلك الخير)

* وقوله - تعالى -: {هذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ} تنبيه على ما يَفِيض من الحياة الإِلهية. ولمّا كان الخير الإِلهيّ يصدر من حيث لا يُحَسّ، وعلى وجه لا يُحْصى ولا يُحْصَر، قيل لكلّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة. وإِلى هذه الزّيادة أشير بها روى (لا يَنْقص مال من صدقة) لا إِلى النّقصان المحسوس، حيث ما قال بعض الملاحدة الخاسرين حيث قيل له ذلك، فقال له: بيني وبينك الميزان. على أَنَّ عمّى - وكان من أَكابر الصّالحين - أَخبرنى أَنَّه كال كُدْساً من الطعام، ثمّ أَخرج منه الزكاة، ثمّ إِنَّه كاله ثانيةً عند النقل إِلى المنزل، فوجده لم ينقص شيئاً من الكيل الأَوّل.

بصيرة في البر والبر

* وقد ورد في القرآن على أَربعة عشر وجهاً:

الأَوّل: - أَعنى البَرّ - بالفتح - خمس.

الأَوّل: بمعنى الحَقّ - جَلّ اسمه وعلا - {إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم} .

الثَّاني: بمعنى الصّحراءِ ضدّ البَحْر: {ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر} ، {وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر} {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر} .

الثالث: في مدح يحيى بن زكريا {وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ} .

الرّابع: في المسيح عيسى: {وَبَرّاً بِوَالِدَتِي} .

الخامس: في ساكني مَلَكوت السّماءِ: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ} .

* وأَما البِرّ - بالكسر - فأَربعة:

الأَوّل بمعنى البارّ: {ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله} أَي البارّ.

الثاني: بمعنى الخير: {لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} .

الثَّالث: بمعنى الطَّاعة: {أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر} .

الرّابع: بمعنى تصديق اليمين: {وَلاَ تَجْعَلُواْ الله عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ} .

* وقد جاءَ بمعنى صلة الرّحم {لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ} أَي تصلوا أَرحامكم.

* والأَبرار مذكور في خمسة مواضع:

الأَوّل: في صفة الأَخيار، في جوار الغفَّار: {كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ} .

الثاني: في صفة نظارتهم على غُرَف دار القرار: {إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ} .

الثالث: في مجلس أُنْسهم، ومجاورة المصطفى، وصحابته الأَخيار: {إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} .

الرّابع: في تقريرهم في قُبّة القُرْبَة من الله الكريم الستَّار: {وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} .

الخامس: في مرافقة بعضهم بعضاً يوم الرحيل إِلى دار القرار {وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبرار} .

* وأَصل الكلمة ومادّتها – أَعنى (ب ر ر) – موضوعة (لخلاف البحر)، وتُصوّر منه التوسّع، فاشتُقّ منه البِرّ أَي التوسّع في فعل الخير. وينسب ذلك تارة إِلى الله تعالى في نحو {إِنَّه هُو البرُّ الرَّحيمُ}، وإِلى العبد تارة، فيقال: برّ العبدُ ربّه، أَي توسّع في طاعته. فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعةُ. وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب في الأَعمال. وقد اشتمل عليهما قولُه تعالى {لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ} الآية (وعلى هذا ما روى أَنه ﷺ سئل عن البرّ فتلا هذه الآية) فإِن الآية متضمّنة للاعتقاد، ولأَعمال الفرائض، والنَّوافل.

* وبِرّ الوالدين: التَّوسُّع في الإِحسان إِليهما. ويستعمل البِرّ في الصدق لكونه بعضَ الخير. يقال: برّ في قوله، وفى يمينه، وحَجّ مبرورٌ: مقبول. وجمع البارّ أَبرار، وبَرَرة. وخصّ الملائكة بالبَرَرة من حيث إِنَّه أَبلغ من الأَبرار؛ فإِنه جمع برّ. والأَبرار جمع بَارٍّ، وبرٌّ أَبلغ من بارّ؛ كما أَنَّ عَدْلاً أَبلغ من عادل. والبُرّ معروف وتسميته بذلك لكونه أَوسع ما يُحتاج إِليه في الغذاءِ.

بصيرة في البعث

* وقد ورد في القرآن على ثمانية معانٍ:

الأوّل: بمعنى الإلهام: {فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ} أي أَلهم.

الثاني: بمعنى إِحياءِ الموتى في الدنيا: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} ، {فَأَمَاتَهُ الله مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} ، {وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ} أَي أَحييناهم.

الثالث: بمعنى الاستيقاظ من النوم: {وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ} أَي من النَّوم، {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى} .

الرابع: بمعنى التسليط {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً} .

الخامس: بمعنى نَصْب القيّم والحاكم: {فابعثوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ} .

السّادس: بمعنى التعيين: {ابعث لَنَا مَلِكاً} أَي عيّن وبَيّن، {قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً} أَي قد عَيّن وبَيّن.

السابع: بمعنى الإِخراج من القبور للحشر: {وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور} .

الثامن: بمعنى الإِرسال: {فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ} ، {هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً} أَي أَرسل.

* وأَصل البعث إِثارة الشيء وتوجيهه. يقال: بعثتُه فانبعث.

* ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلِّق به. فالبعث ضربان: بَشَرِيّ؛ كبعث البعير، وبعث الإِنسان في حاجة، وإِلهي، وذلك ضربان: أَحدهما إِيجاد الأَعيان، والأَجناس، والأَنواع عن ليس وذلك يختص به الباريءُ - تعالى - ولم يُقْدِر عليه أَحداً من خَلْقه.

والثاني: إِحياءُ الموتى. وقد خَصّ به بعض أَوليائه؛ كعيسى وغيره. ومنه {فهذا يَوْمُ البعث} نحو يوم المَحْشر. وقوله: {ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم} أَي توجُّههم ومُضيّهم.

بصيرة في التوكل

* وهو يقال على وجهين: يقال: توكَّلت لفلان بمعنى تولَّيت له. يقال: وكَّلته توكيلاً، فتوكَّل لي. وتوكَّلت عليه بمعنى اعتمدته.

الأمر بالتوكل

* وقد أَمر الله تعالى بالتَّوكُّل في خمسة عشر موضعاً من القرآن:

الأَوّل: إِن طلبتم النَّصر والفرج فتوكَّلوا علىّ: {إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ} إِلى قوله: {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، {وَعَلَى الله فتوكلوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.

الثاني: إِذا أَعرضتَ عن أَعدائي فليكن رفيقك التَّوكُّل: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله}.

الثَّالث: إِذا أَعرض عنك الخلْقُ اعْتَمِدْ على التَّوكُّل: {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إِلاه إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}.

الرابع: إِذا تُلِى القرآن عليك، أَو تلوته، فاستَنِدْ على التوكُّل: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

الخامس: إِذا طلبت الصّلح والإِصلاح بين قومٍ لا تتوسّل إِلى ذلك إِلاَّ بالتَّوكُّل: {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله}.

السّادس: إِذا وصلت قوافل القضاءِ استقبِلْها بالتَّوكُّل: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا} الآية.

السّابع: إِذا نَصبتِ الأَعداءُ حِبالات المكر ادخُلْ أَنت في أَرض التوكُّل {واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ} إِلى قوله: {فَعَلَى الله توكَّلْتُ}.

الثامن: وإِذا عرفت أَنَّ مرجع الكلّ إِلينا، وتقدير الكلّ منَّا، وطِّنْ نفسك على فَرْش التوكُّل: {فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}.

التاسع: إِذا علمت أَني الواحدُ على الحقيقة، فلا يكن اتِّكالك إِلاَّ علينا: {قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}.

العاشر: إِذا عرفت أَنَّ هذه الهداية من عندي، لاقِها بالشُّكر، والتَّوكُّل: {وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} إِلى قوله: {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون} .

الحادي عشر: إِذا خشِيت بأْس أَعداءِ الله، والشيطان الغدّار، لا تلتجئ إِلاَّ إِلى بابنا: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} .

الثاني عشر: إِن أَردتَ أَن أَكون أَنا وكيلك في كلّ حال، فتمسّك بالتَّوكُّل في كلّ حالٍ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وكفى بالله وَكِيلاً} .

الثالث عشر: إِن أَردتَ أَن يكون الفردوس الأَعلى منزلك انزل في مقام التوكُّل: {الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} .

الرابع عشر: إِن شئت النزول محلّ المحبّة اقصد أَولاً طريق التوكُّل: {فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ المتوكلين} .

الخامس عشر: إِن أَردتَ أَن أَكونَ لكَ، وتكون لي، فاستقرَّ على تَخْت التوكُّل: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ} ، {فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين} ، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} .

التوكل مراتب

* ثمّ اعلم أَنَّ التَّوكُّل نصف الدّين، والنصف الثاني الإِنابة. فإِنَّ الدّين استعانة، وعبادة. فالتَّوكُّل هو الاستعانة، والإِنابة هي العبادة.

* ومنزلة التوكُّل أَوسع المنازل: لا يزال معمورا بالنازلين لسعة متعلّق التوكُّل وكثرة حوائج العاملين، وعموم التَّوكُّل، ووقوعه من المؤمنين والكفَّار، والأَبرار، والفُجّار، والطَّير، والوحوش، والبهائم، وأَهل السّماوات، والأَرض، وأَنَّ المكلَّفين، وغيرهم في مقام التوكُّل سواءٌ وَإِنْ تباينَ متعلّق توكُّلهم.

* فأَولياؤه وخاصّته متوكّلون عليه في حصول ما يُرضيه منهم، وفى إِقامته في الخَلْق، فيتوكَّلون عليه في الإِيمان، ونُصْرة دينه، وإِعلاءِ كلماته، وجهاد أَعدائه، وفى محابّه، وتنفيذ أَوامره.

* ودون هؤلاءِ مَن يتوكَّل عليه في معلومٍ يناله: مِن رزق، أَو عافية، أَو نَصْرٍ على عدوٍّ، أَو زوجة، أَو ولد، ونحو ذلك.

* ودون هؤلاءِ مَن يتوكَّل عليه في حصول ما لا يحبّه الله، ولا يرضاه: من الظُّلم، والعدوان، وحصول الإِثم، والفواحش. فإِنَّ أَصحاب هذه المطالب لا ينالون غالباً إِلاَّ باستعانتهم، وتوكُّلهم عليه. بل قد يكون توكُّلهم أَقوى من توكُّل كثير من أَصحاب الطَّاعات. ولهذا يُلقُون أَنفسهم في المهالك، معتمدين على الله - تعالى - أَن يُسْمّهم، ويُظفِرهُم بمطالبِهم.

* فأَفضل التَّوكُّل في الواجب: أَعنى واجبَ الحقّ، وواجبَ الخَلْق، وواجبَ النَّفس. وأَوسعُه وأَنفعُه التَّوكُّل في التأْثير في الخارج في مصلحة دينه، أَو في دفعِ مفسدة دينه. وهو توكُّل الأَنبياءِ - عليهم الصّلاة والسّلام - في إِقامة دين الله، ودفع المفسدين في الأَرض. وهذا توكُّل وَرَثتهم.

* ثمّ النَّاس في التوكُّل على حسب [أَغراضهم] . فمن متوكل على الله في حصول المُلْك، ومتوكِّل عليه في حصول (رغيف. ومَنْ صدق توكُّله على الله في حصول) . شيء ناله. فإِن كان محبوباً له مرضيّاً كانت له فيه العاقبة المحمودة. وإِن كان مسخوطاً مبغوضا كان ما حصل له بتوكّله مَضرّة. وإِن كان مباحاً حصلت لهُ مصلحة التوكُّل، دون مصلحة ما توكَّل فيه، إِن لم يستعن به على طاعة.

* فإِن قلت: ما معنى التوكُّل؟ قلت: قال الإِمام أَحمد: التوكل: عمل القلب: يعنى ليس بقولٍ، ولا عمل جارحة، ولا هو من باب العلوم، والإِدراكات. ومن الناس مَن يجعله من باب المعارف، فيقول: هو علم القلب بكفاية العبد من الله. ومنهم من يقول: هو جُمُود حركة القلب، واطِّراحه بين يدِ الله كاطّراح الميّت بين يدى الغاسِل: يقلِّبه كيف يشاءُ. وقيل: ترك الاختيار، والاسترسالُ مع مجارى الأَقدار. ومنهم من يفسّره بالرّضا، ومنهم من يفسره بالثِّقة بالله، والطُّمأْنينة إِليه.

* وإِنَّما يَقْوَى العبد على التوكُّل إِذا علم أَن الحقّ سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه. وقيل: التوكُّل أَن ترد عليك مواردُ الفاقات، فلا تسمو إِلاَّ إِلى مَنْ له الكفايات، أَو نفى الشكوك، أَو التفويض

إِلى مالك الملوك، أَو خلع الأَرباب، وقطع الأَسباب، أَي قطعها مِن تعلَّق القلب بها [لا] من ملابسة الجوارح لها. وقال سهل: مَنْ طعن في الحركة، فقد طعن في السُّنَّة. ومَنْ طعنَ في التَّوكُّل فقد طعن في الإِيمان. فالتوكُّل حال النبي ﷺ، والكَسْب سُنَّته. فمَن عمل على حاله فلا يتركنَّ سنَّته.

درجات التوكل

* وحقيقة الأَمر أَنَّ التوكُّل: حال مركَّب من مجموع أُمورٍ لا يتمّ حقيقة التَّوكُّل إِلاَّ بها. وكلّ أَشار إِلى واحدٍ من هذه الأُمور، أَو اثنين أَو أَكثر. فأَوّل ذلك معرفة الرّبّ وصفاتِه: من قدرته، وكفايته، وفيوضه، وانتهاءِ الأُمور إِلى علمه، وصدورها عن مشيئته، وقدرته. وهذه المعرفة أُولى درجة والثَّانية إِثبات الأَسباب والمسبّبات، فإِنَّ مَنْ نفاها فتوكّله مَزْح. وهذا عكس ما يظهر في بادئ الرّأْي: من أَنَّ إِثبات الأَسباب يقدح في التوكُّل. ولكنّ الأَمر بخلافه: فإِنَّ نُفَاةَ الأَسباب لا يستقيم لهم توكُّل البتَّة. فإِنَّ التوكُّل أَقوى الأَسباب في حصول المتوكَّل به؛ فهو كالدّعاءِ الذى جعله الله سبباً في حصول المدعُوّ به.

* الدّرجة الثالثة رسوخ القلب في مقام التَّوحيد؛ فإِنَّه لا يستقيم توكُّله حتى يصحّ توحيده.

* الدرجة الرابعة اعتماد القلب على الله تعالى، واستناده عليه، وسكونه إِليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من جهة الأَسباب.

* الخامسةُ حُسن الظنّ بالله. فعلى قدر حسن ظنّك به يكون توكُّلك عليه.

* السّادسة استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلِّها إِليه.

* السّابعة التفويض. وهو رُوح التوكُّل، ولُبّه، وحقيقته. فإِذا وَضَع قدمه في هذه الدّرجة انتقل منها إِلى درجة الرضا وهى ثمرة التوكُّل.

بصيرة في التفويض

* يقال: فَوّض إِليه أَمرَه أَي ردّه إِليه. وأَصله من قولهم: أَمرهم فوضَى بينهم وفوْضُوضَى وفَوْضُوضاءُ إِذا كانوا مختلِطين يتصرّف كلّ منهم في (مال الآخر). وقوم فَوْضَى: متساوون لا

رئيس لهم. أَو متفرّقون أَو مختلِط بعضُهم ببعض. ومنه شركة المفاوضة وشركة التفاوض. وهو الاشتراك في كلّ شيءٍ.

* واختُلِف في التفويض والتَّوكُّل أَيّهما أَعلى وأَرفع. فقال الشيخ أَبو عبد الله الأَنصاري: التفويض أَلطف إِشارةً وأَوسع معنى؛ فإِنَّ التَّوكُّل بعد وقوع السّبب، والتَّفويض قبل وقوعه وبعده. وهو من الاستسلام، والتوكُّل شُعبةٌ منه يعنى أَنَّ المفوّض بين أَمر الحَول والقوّة، ويُفوِّض الأَمر إِلى صاحبه من غير أَن يقيمه مُقام نفسه في مصالحه. بخلاف التوكُّل فإِنَّ الوكالة تقتضى أَن يقوم [الوكيل] مقام الموكِّل. والتفويض براءَة وخروج من الحول والقوة وتسليم الأَمر كلَّه إِلى مالكه. وقال غيره: كذلك التوكل أَيضاً، و [ما] قَدَحْتُم به في التوكُّل يرِد عليكم نظيره في التّفويض سواءً، فإِنَّا نقول: كيف يفوّض شيئاً لا يملكه البتَّة إِلى مالكه وهل يصحّ أَن يفوّض واحد من آحاد الرّعيّة المُلْك إِلى ملِك زمانه. فالعلَّة إِذاً في التَّفويض أَعظم منها في التوكُّل. بل لو قال: قائل: التَّوكُّل فوق التفويض وأَجلّ منه وأرفع، لكان مصيباً. ولهذا القرآن مملوء به أَمراً وإِخباراً عن خاصّة الله وأَوليائه وصفوة عباده؛ فإِنَّه حالهم، وأَمر به رسوله في أَربعة مواضع كما تقدّم في بصيرة التوكُّل. وسماه المتوكِّلَ في التوراة؛ ثبت ذلك في صحيح البخاري، وأَخبر عن رُسُله بأَنَّ حالهم التوكُّل، وأَخبر النبي ﷺ عن السبعين أَلفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أَنَّهم أَهل مقام التَّوكُّل. ولم يجيء التفويض في القرآن إِلاَّ فيما حكاه تعالى عن مؤمن آل فرعون من قوله {وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله}

بصيرة في التسليم

* وهو نوعان: تسليم لحُكْمِهِ الديني الأمري، وتسليم لحُكمِهِ الكوني القدري.

* فأَمّا الأَوّل فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال الله تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصّبر بانتفاءِ الحَرَج، والتسليم.

* وأَمّا التسليم للحُكْم الكوني فمزَلَّة أَقدام، ومضَلَّة أَفهام. حَيّر الأَنام، وأَوْقع الخِصَام. وهى

مسأَلة الرّضا بالقضاءِ. ، ونبيّن أَنَّ التسليم للقضاءِ يُحمد إِذا لم يُؤْمر العبد بمنازعته ودفعه ولم يقدر على ذلك؛ كالمصائب التي لا قُدْرَةَ على دفعها. وأَمّا الأَحكامُ التي أُمر بدفعها فلا يجوز له التسليم إِليها، بل العبوديّة مدافعتها بأَحكامٍ أُخْرى أَحسنَ عند الله منها.

* فاعلم أَنَّ التسليم هو الخَلاص من شُبهةٍ تعارضُ الخَبَر، أَو شهوة تعارض الأَمر، أَو إِرادة تعارض الإِخلاص، أَو اعتراض يعارض القَدَر والشرع، وصاحب (هذه التخاليص) هو صاحب القلب السّليم الَّذى لا ينجو إِلاَّمَن أَتى اللهَ به. فإِنَّ التسليم ضدّ المنازعة، والمنازعة إِمّا بشبهة فاسدة تعارض الإِيمان بالخبر عما وَصَف الله تعالى به نفسه من صفاته وأَفعاله، وما أَخبر به عن اليوم الآخر وغير ذلك. فالتسليم له ترك منازعته بشبهات المتكلِّمين الباطلة، وإِمّا بشهوة تعارض أَمر الله. فالتَّسليم للأَمر بالتخلُّص منها، أَو إِرادة تعارِض مراد الله من عبْده، فتعارضه إِرادة تتعلق بمراد العبد من الرّب. فالتَّسليم بالتَّخلُّص منها. أَو اعتراض [ما] يُعارض حكمته في خلقه وأَمره بأَن يظنّ أَنَّ مقتضى الحكمة خلاف ما شرع وخلاف ما قضَى وقدّر. فالتَّسليم التخلُّص من هذه المنازعات كلها.

* وبهذا تبيّن أَنَّه من أَجلِّ مقامات الإِيمان، وأَعلى طُرُق الخاصّة، وأَنَّ التسليم هو محض الصّدِّيقيّة.

* ثمّ إِنَّ كمال التسليم السّلامةُ من رؤية التسليم بأَن يعلم أَنَّ الحقّ تعالى هو الَّذى يسلِّم إِلى الله نفسه دونه. فالحقّ تعالى هو الَّذى سلَّمك إِليه، فهو المسلِّم وهو المسلَّم إِليه، وأَنت آلة التسليم. فمن شهد هذا المشهد ووجد ذاته مسلَّما إِلى الحقّ، وما سلَّمها إِلى الحقّ غيرُ الحقّ، فقدْ سَلِم العبدُ من دعوى التسليم؛ والله أَعلم.

بصيرة في وكل

* التَّوْكِيل: أَن تَعْتَمِدَ غَيْرَك وتَجْعَله نائباً عنك. والوَكِيلُ: فعيلٌ بمعنى مفعول، وقوله تعالى: {وكفى بالله وَكِيلاً} أَي اكْتَفِ به أَنْ يَتوكَّل أَمْرَك ويَتَوكَّل لك، وعلى هذا حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل. وقوله: {وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} أَي بمُوَكَّلٍ عليهم وحافِظَ لهم، كقوله: {لَّسْتَ

عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} .

* وقوله: {أَمَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} : أي مَنْ يَتَوَكّل عنهم. قال الله تعالى: {وَعَلَى الله فتوكلوا إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} ، وقال: {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون} ، وقال: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ} ، وقال: عن أوليائه: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصير} ، وقال: {قُلْ هُوَ الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} ، وقال لرسوله ﷺ: {فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين} ، وقال: {وَتَوَكَّلْ على الله وكفى بالله وَكِيلاً} ، وقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} ، وقال: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ المتوكلين} وقال عن أنبيائه ورسله: {وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} ، وقال عن أصحاب نبيّه: {الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيَماناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل} وقال: {الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيَمَاناً وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} . وفي الصّحيحين حديث السبعين أَلْفا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب: "هُم الَّذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَتَطَيَّرُوُن وعَلَى رَبِّهِم يَتَوكَّلُون". وعن الترمذي يرفعه: "لوْ أنَّكم تَتَوَكَّلُون عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُم كما يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بِطاناً".

* سئل يَحْيَى بنُ مُعاذٍ، مَتَى يكون الرّجلُ مُتَوَكِّلاً؟ قال: إذا رَضِيَ بالله وَكِيلاً. ومنهم من يفسّره بالثقة بالله والطُّمأْنينة إليه.

* وقيل: التَّوكُّل: التَّعَلُّق بالله في كلِّ حال. وقيل: التوكُّل: أَن تَرِدَ عليك مَوارِدُ الفاقاتِ فلا تَسْمُو إلاَّ إلى من له الكِفايات. وقيل نَفْى الشُّكوك والتَّفْويض إلى مالِك المُلُوك.

* وقال أَبو تُرابٍ النخشبى : هو طَرْح البَدَن في العُبوديّة، وتعلُّق القَلْب بالرُّبُوبيّة، والطمأْنينة إلى الكفاية، فإِنْ أُعْطِيَ شَكَر، وإِنْ مُنِعَ صَبَرْ، فجعله مُرَكَّبا من خمسة أُمورٍ: القِيامُ بحركات العُبوديّةِ، وتعلُّق القَلْب بتدبير الربِّ، وسُكونٌ إلى قضائه وقدَرِه، وطُمأْنينةٌ بكفايته، وشكرٌ إذا أُعْطِي، وصَبْرٌ إذا مُنع.

* وقال أَبو يعقوب النهرجورىّ: التوكُّل على الله تعالى بكمال الحقيقة وَقَع لإِبراهيمَ الخليل، في

الوقت الذى قال لجبريل عليه السلام: "أَمّا إِلَيْكَ فَلاَ".

* وأَجمع القومُ على أَنَّ التوكُّل لا يُنافِي القيام بالأَسباب، بل لا يصحّ التوكُّل إلا مع القيام بها، وإِلاَّ فهو بَطالَةٌ، وتَوكُّلٌ فاسد. فالتوكُّل حالُ النبي ﷺ، والكَسْب سُنَّتُه، فمن عَمِلَ على حالِه فلا يتركنَّ سُنَّتَه، وقيل: التوكُّل: قَطْعُ العلائق ومُواصَلَةَ الحَقائق. وقيل: هو أَنْ يستوى عندك الإِكثار والإِقْلال، وهذا من مُوجِباتِه وآثارِه لا أَنه حقيقته. وقيل: هو ترك كلِّ سَبَبٍ يوصل إِلى سَبَبٍ حتَّى يكون الحقُّ تعالَى هو المتولِّ لذلك. وهذا صحيحٌ من وَجْهٍ باطِلٌ من وجه، فَتَرْك الأَسباب المأْمور بها قادِحٌ في التوكُّل، وقد تولَّى الحقُّ إِيصالَ العبدِ بها، وأَمّا تَرْكُ الأَسباب المُباحة فإِنَّ تَرْكَها لما أَرجح منها مَصْلَحَةً فممدوحٌ، وإِلاَّ فمذمومٌ. وقيل هو التسليم لأَمر الربّ وقضائه. وقيل: التَّفْوِيضُ إِليه في كلّ حال. وقيل: التوكّل بِدايةٌ، والتَّسْلِيمُ وَساطَةٌ، والتفويض نِهاية.

* قال أَبو عَلِيّ الدّقَّاق. التوكُّل ثلاث درجات: التوكُّل، ثم التَّسْليم، ثمّ التَّفْويض، فالمتوكِّل يسكن إِلى وَعْدِه، وصاحبُ التسليم يكتفى بعِلْمه، وصاحب التَّفويضِ يَرْضَى بحُكْمه. فالتَوَكُّل صفةُ المؤمنين، والتَّسْلِيم صفةُ الأَولياءِ، والتَّفْويضِ صفة المُوَحِّدين. التَوَكُّل صفةُ الأَنبياءِ، والتَسْلِيمُ صفةُ إِبراهِيمَ الخليل، والتَّفْويضِ صفة نبيّنا ﷺ.

الدّرجة الثانية: إِثبات الأسباب والمُسبَّبات، فكلّ من نفاها فتوكُّله مدخولٌ؛ وهذا عكس ما يظهر في بادئ (الرأى) أَن إِثبات الأَسباب يقدح فى التوكُّل، وأَنَّ نَفْيَها تمامُ التوكُّل، فاعلم أَنَّ إِثبات الأَسباب في [حصول المُتَوَكَّل به لا يناقض التوكل] فهو كالدُّعاءِ الذى جعلَه الله سَبَباً فى حصول المدعُوِّ به، فإِذا اعتقد العبدُ أَنَّ التوكُّل لم يَنْصِبْه الله سبباً ولا جعلَ دَعاءَه سبباً لنَيْل شيءٍ، لأَنَّ المتوكَّل فيه المدعُوَّ بحُصوله إِن كان قُدِّر فَسَيْحْصُل، تَوَكَّل أَوْ لم يَتَوكَّلْ، دعا أَو لم يدْعُ، وإِنْ لم يُقَدَّر فلن يحصل، توكَّل أَيضاً أَو ترك التوكُّل [فهذا العبد مراغم لحكمة الله جاهل بسنته] [وقد] صرّح هؤلاءِ أَنَّ التوكُّلِ والدّعاءَ عُبُوديّةٌ محضة، لا فائدة فيه إِلاَّ ذلك، ولو ترك العبد التوكُّلَ والدعاءَ لَمَا فاته شيءٌ ممّا قُدِّر له، [بل] مِنْ غلاتهم مَنْ يجعلِ الدُّعاءَ بعدم المؤاخذة على

الخطإ والنِّسيان عدِيمَ الفائدة إذ هو مضمون الحصول، حتى قال بعضهم في تصنيف له: لا يجوز الدُّعاءُ بهذا وإنَّما يجوز تلاوة لا دعاء، قال: لأَنَّ الدّعاء يتضمّن الشَّكَّ في حُصُوله ووُقوعِه، لأَنَّ الدّاعِيَ بين الخوف والرّجاء، والشكُّ في وقوع ذلك شكٌّ في خبر الله. فانظروا إلى ما أَفاد إنكار الأَسْباب من العظائم وتحريم الدّعاءِ بما أَثْنَى الله به على عِباده وأَوليائه بالدُّعاءِ به وبطلبه. ولم يزل المسلمون من عند نبيّهم وإلى الآن يدعون به في مَقامات الدُّعاءِ، وهو من أَفضل الدَّعوات.

هو وجوابُ هذا الوَهْم الباطل هو أَن يقال: بَقِيَ قسمٌ آخر غير ما ذكرتم من القسمين، هو أَن يكون قَضَى بحصول الشيء عند حصول سَبَبه من التوكُّل والدّعاءِ، فنصب الدّعاءُ والتوكُّل سببين لحُصول المطلوب، وقضى بحصوله إذا فعل العبدُ سَببه، فإذا لم يأْتِ بالسبب امْتَنَع المسبَّب، وهذا كما إذا قضَى بحُصول الولدِ إذا جامع الرّجلُ من يحبلها فإذا لم يُجامع لم يَحْصُل الولدُ. وقَضَى بحصول الشِبَع والرِيّ إذا أَكَل وشرب، فإذا لم يفعل لم يَشْبَعْ ولم يَرْوَ. وقَضَى بحصول الحجِّ والوصول إلى مكَّة إذا سافر وركبَ الطَّريقَ، فإذا جلس في بيته لا يصل إلى مكَّة أَبداً. وقضى بدخول الجنَّة إذا أَسْلَم وأَتَى بالأَعمال الصّالحة، فإذا لم يُسْلمْ ما دخلها أَبداً. فوزان ما قاله منكرو الأَسباب أَن يترك كلٌّ من هؤلاءِ السببَ المُوصِّل ويقول: إن كان قُضِي لي وسبق لي في الأَزل حُصول الوَلَدِ والشِّبَع والرِيّ والحَجِّ ونحوه فلابّد أَن يصل إلَّي، تحرّكتُ أَو لم أَتحرّكْ، تزوّجتُ أَو تركتُ، سافرتُ أَو تركتُ، وإن لم يكن قُضِيَ لي لم يحصُل لي أَيضاً، فعلتُ أَو تركتُ، فهل يَعُدُّ أَحدٌ هذا القائلَ من جملة العُقلاءِ؟ وهل البهائم إلاَّ أَفْهَم منه، فإنَّ البهيمة تَسْعَى في السّبب. فالتوكُّل من أَعْظم الأَسباب الَّتى يحصل بها المقصود ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأَسباب لم يستقم منه التَّوكُّل، (ولكن من تمام التوكُّل عدم الرُّكُونِ (إلى) الأَسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لابها، فلا تقوم عبوديّة الأَسباب إلاَّ على ساقِ التوكُّل، ولا تقوم ساقُ التوكُّل إلى على قَدَمِ العُبودية.

الدّرجة الثَّالثة: رُسوخُ القلبِ في مقام التَّوحيد؛ فإنَّه لا يستقيم توكُّل العبدِ حتى يصحَّ له توحيدُه، بل حقيقة التوكُّل توحيدُ القلب، فما دامت فيه علائقُ الشِّرْك فتوكُّله معلولٌ مدخول،

وعلى قدر تجريد التوحيد يكونُ صحة التَّوكُّل، فإِنَّ العبد متى التفت إِلى غير الله أَخذ ذلك الالتفاتُ شُعْبةً من شُعَب قلبِه فنقص من توكُّله على الله بقدر ذهاب تلك الشُّعْبة.

الدّرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إِليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأَسباب ولا سكون إِليها، بل يخلع السكونَ إِليها من قلبه ويَلْبَسُ السّكون إِلى مسبّبها.

الدّرجة الخامسة: حسن الظَّنّ بالله تعالى، فعلى قَدْرِ حسنِ ظنَّك به ورجائك له يكون توكُّلك عليه.

الدّرجة السّادسة: استسلامُ القلب له وانحداثُ دواعِيه كلِّها إِليه، وقطعُ منازعاته، وبهذا فسّره من قال: أَنْ يكون كالميّت بين يدى الغاسِل.

الدّرجة السّابعة: التفويضُ، وهو رُوح التوكُّل وحقيقتُه ولُبُّه، وهو إِلقاء أُموره كلِّها إِلى الله تعالى، وإِنزالُها به رَغَباً واختياراً لا كَرْها واضطرارا، بل كتفويض الابنِ العاجز الضعيف المغلوب أُمورَه إِلى أَبيه [و] الغُلامِ بشَفَقَته عليه ورحمته، وتَمام كِفايَته وحُسْنِ وِلايَتِهِ له، فإِذا وضع قَدَمَه فى هذه الدّرجة انتقل منها إِلى درجة الرضا، وهى ثمرةُ التوكُّل. ومن فسّر التوكُّل بها فإِنَّما فسّره بأَحَد ثَمَراته وأَعظم فوائده، فإِنه إِذا توكَّل حقّ التوكُّل رضى بما يفعله وكيله.

* والمقدور يكتنفه أَمران: التَوَكُّل قَبْلَه، والرِّضا بعده، فمن توكَّل على الله قَبْلَ الفِعْل، ورَضِىَ قَضَى له بعد الفِعْل فقد قام بالعبوديّة.

* واعلم أَنَّ التوكُّل من أَعمّ المقامات تعلُّقا بالأَسماءِ الحسنى، فإِنّ له تعلُّقا خاصّاً بعامَّة أَسماءِ الأَفعال، وأَسماءِ الصّفات، فله تعلُّق باسمه الغفَّار، والتَّواب، والغَفُور، والرَّحيم، وتعلّق باسمه الفَتَّاح، والوهَّاب، والرزَّاق، والمُعْطِى؛ وتعلّق باسمه المُعزِّ والمُذِلّ، والخافض والرَّافع، والمانع من جهة توكُّله عليه فى إِذلال أَعداءِ دينه ومنعهم أَسباب النصر وخفضهم؛ وتعلُّق بأَسماءِ القُدْرة والإِرادة، وله تعلُّق عام بجميع الأَسماءِ الحسنى، ولهذا فسّره من فسّره من الأَئمة بأَنَّه من المعرفة بالله، وإِنما أَراد أَنَّه بحسب معرفةِ العبد يصحّ له مقام التَّوكُّل، فكلَّما كان بالله أَعرف كان توكُّله عليه أَقْوَى. وكثير من المتوكِّلين يكون مغبوناً فى توكُّله، وقد توكَّل حقيقة التوكُّل وهو

مغبون، كمن صرف توكُّله إِلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوّةَ توكُّله ويمكنه فعلها بأَيسر شيءٍ، وتفريغُ قلبه للتوكُّل فى زيادة الإِيمان والعلم ونُصْرة الدّين والتأْثير في العالم خيراً، فهذا توكُّل العاجز القاصر الهمَّة؛ كما يصرف بعضهم توكُّله ودُعاءَه إِلى وَجَع يمكنُ مُداواتُه بأَيسر شيء، أَو جوع يمكن زوالُه بنصف درهم، ويَدَعُ صَرْفَه إِلى نُصرة الدِّين وقَمْع المبتدعين ومصالح المسلمين.

* وقال الشيخ أَبو إِسماعيل عبد الله الأَنصاريّ: هو على ثلاث درجات:

الأُولى: التوكُّلُ مع الطَلَب، ومعاطاة السَّبَب على نيّة شغل النَّفس، ونَفْع الخَلْق وترك الدَّعْوى.

الثَّانية: التوكُّل مع إِسقاط الطَلَب وغَضِّ العين عن السَّبَب اجتهاداً في تصحيح التوكُّل وقمع تشرّف النفس، وتفرّغا إِلى حفظ الواجبات.

الثالثة: التوكُّل النازع إِلى الخَلاص من عِلَّة التوكُّل، وهو أَن تعلم أَنَّ ملْكيَّة الحقِّ عزَّ وجلَّ للأَشياءِ مِلْكيَّة عِزَّة لا يشاركه فيها مُشارك، فيَكل شركته إِليه، فإِنَّ من ضرورة العُبودِيَّة أَنْ يعلم العبد أَنَّه تعالى هو مالك الأَشياءِ كلِّها وَحْدَه.

بصيرة في الرجاء

* والرجاءُ: الاستبشار بوجود فضل الربِّ تعالى، والارتياحُ لمطالعة كرمه، وقيل: هو الثِّقة بوجود الربّ. وقيل: الرّجاءُ ظن يقتضى حصول ما فيه مسرّة. وهو من أَجلِّ منازل السّالكين وأَعلاها وأَشرفها، وقد مدح الله تعالى أَهله وأَثنى عليهم فقال: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ الله واليوم الآخر} . وأَخبر تعالى عن خواصّ عباده الذين كان المشركون يزعمون أَنهم يتقربون بهم إِلى الله أَنهم كانوا راجين له خائفين منه فقال: {قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضر عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً} ، وفى الحديث الصَّحيح فيما يروى عن ربِّه تعالى: "ابنَ آدمَ إِنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالي".

* فالرّجاءُ عبوديّة وتعلق بالله من حيث اسمه البَرّ المحسن. فذلك التعبد والتعلق بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الَّذِى أَوجب للعبد الرّجاءَ من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى. فقوّة الرّجاءِ على حسب قوّة المعرفة بالله وأَسمائه وصفاته وغلبة رحمته على غضبه. ولولا رُوح الرّجاءِ لعطِّلت عبوديّة القلب والجوارح، وهُدّمت صوامِعُ وبيَعٌ وصَلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. بل لولا روح الرّجاءِ لما تحرّكت الجوارح بالطَّاعة، ولولا رِيحه الطِّيبة لما جرت سُفُن الأَعمال في بحر الإِرادات

* وعلى حسب المحبّة وقوّتها يكون الرّجاءُ. وكلُّ محبٍّ راج وخائف بالضرورة، فهو أَرجى ما يكون بحبيبه أَحبَّ ما كان إِليه. وكذلك خوفه فإِنَّه يخاف سقوطه من عينه وطرد محبوبه له وإِبعاده واحتجابه عنه. فخوفه أَشدّ خوف. فكلّ محبّة مصحوبة بالخوف والرّجاء، وعلى قدر تمكُّنها من قلب المحبِّ يشتدّ خوفه ورجاؤه. ولكن خوف المحب لا يصحبه خشية بخلاف خوف المسيء، ورجاءُ المحبِّ لا يصحبه غاية بخلاف رجاء الأجير. فأَين رجاءُ المحبِّ من رجاءِ الأَجير؟! بينهما كما بين حاليهما.

* وبالجملة فالرّجاءُ ضروري للسّالك والعارف، ولو فارقه لَحْظه لتلف أَو كاد، فإِنَّه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إِصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها أَو دوامها، وقربٍ من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إِليها. ولا ينفكُّ أَحد من السَّالكين من هذه الأُمور أَو من بعضها.

* والفرق بين الرّجاءِ والتَّمنِّي أَن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طُرُق الجدّ والاجتهاد، والرّجاءُ يكون مع بذل الجهد وحسن التَّوكُّل، ولهذا أَجمع العارفون على أَنَّ الرّجاءَ لا يصحُّ إِلاَّ مع العمل.

* والرّجاءُ ثلاثة أَنواع: نوعان محمودان، ونوعُ غُرورٍ مذموم. فالأَولان رجاءُ رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجل أَذنب ذنباً ثم تاب منه، فهو راج لمغفرته. والثالث رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغُرور والتَّمنِّي والرّجاءُ

الكاذب.

* وللسّالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه بابَ الخوف، ونظر إلى سعة فضل ربّه وكرمه وبرِّه يفتح عليه بابَ الرّجاءِ، "وهما كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطَّائر وتمَّ طيرانه".

* واختلفوا أَي الرّجاءَين أكمل، رجاء المحسن ثواب إِحسانه، أَو رجاء المذنب التائب عفو ربِّه وعظيم غفرانه؟ فطائفة رَجَّحت رجاءَ المحسن لقوّة أَسباب الرّجاء معه. وطائفة رجَّحت رجاءَ المذنب، لأَنَّ رجاءَه مجرّد عن علَّة رؤية العمل، مقرون برؤية ذِلَّة الذَّنب. قال يحيى بن مُعاذَ: "إِلهى أَحلى العطايا في قلبي رجاؤُك، وأَعذب الكلام على لساني ثناؤُك، وأَحبُّ السّاعات إِلَيَّ ساعةٌ يكون فيها لقاؤُك". وقال أَيضاً: "يكاد رجائي لك مع الذُّنُوب يغلب على رجائي لك مع الأعمال، لأَنى أَجدني أَعتمد في الأَعمال على الإِخلاص، وكيف أُحرزها وأَنا بالآفات معروف. وأَجدني في الذنب أَعتمد على عفوك. وكيف لا تغفرها وأَنت بالجود موصوف".

أوجه الرجاء

* وقال بعض المفسِّرين: ورد الرّجاءُ في القرآن على ستَّة أَوجه:

أَوّلها: بمعنى الخوف: {مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً} ، أَي ما لكم لا تخافون. ومنه: {إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً} ، وقوله: {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ اللهِ} .

الثاني: بمعنى الطمع: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ} ، {أُولئك يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ} .

الثالث: بمعنى توقُّع الثواب: {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} .

الرَّابع: الرّجا المقصور بمعنى الطَّرَف: {والملك على أَرْجَآئِهَآ} .

الخامس: الرّجاء المهموز: {قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} أَي احبسه.

السَّادس: بمعنى التَّرك والتأْخير: {تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ} : تؤَخّره، {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} .

بصيرة في الخوف

* وهو توقُّع مكروه عن أَمارة مظنونة أَو معلومة، كما أَن الرجاءَ والطمع توقع محبوب عن أَمارة مظنونة أَو معلومة، ويضادّ الخوف الأَمن. ويستعمل ذلك في الأُمور الأَخروية والدّنيويّة.

* وقوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا} قد فسّر بعرفتم. وحقيقته: وإِن وقع لكم خوف من ذلك لمعرفتكم. والخوف من الله لا يراد به ما يخطِر بالبال من الرّعب كاستشعار الخوف، بل إِنَّما يراد به الكفّ عن المعاصي وتحرّى الطَّاعات. ولذلك قيل: لا يعدُّ خائفاً من لم يكن للذُّنوب تاركاً.

* والخوف أَجلّ منازل السّالكين وأَنفعها للقلب. وهو فرض على كلِّ أَحد. قال تعالى: {وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} وقال: {وَإِيَّايَ فاتقون} ومدح الله تعالى أَهله في كتابه وأَثنى عليهم فقال: {إِنَّ الذين هُم مِّنْ خَشْيةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ. والذين هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. والذين هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ. والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} في مسند الإمام أَحمد وجامع التِّرمذي "عن عائشة رضى الله عنها قال قلت يا رسول الله ﷺ: "الذين يؤتون ما آتَوْا وقلوبهم وجلة" أَهو الَّذى يسرق ويشرب الخمر ويزنى؟ قال: لا يا ابنة الصّديق: ولكنَّه الرّجل يصوم ويصلِّى ويتصدّق ويخاف أَن لا يقبل منه" وقال الحسن: عملوا والله الصَّالحات واجتهدوا فيها، وخافوا أَن تُردّ عليهم.

* وقال الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجرى الأَنفاس. وقيل: الخوف: اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المَخُوف. وقيل: الخوف: هرب القلب من حلول المكروه وعند استشعاره. وقيل: الخوف العلم بمجاري الأَحكام. وهذا سبب الخوف لا نفسه. وقال أَبو حفص: الخوف سوط الله يقوِّم به الشاردين عن بابه. وقال: الخوف سراج في القلب يبصر به ما فيه من الخير والشرّ. وكلّ واحد إِذا خِفْته هربت منه إِلاَّ الله فإِنَّك إِذا خفته هربت إِليه. وقال إِبراهيم بن سفيان: إِذا سكن الخوفُ القلب أَحرق مواضع الشَّهوات منه وطرد الدّنيا عنه. وقال ذو النُّون: الناس على الطَّريق ما لم يَزلْ عنهم الخوف، فإِذا زال عنهم الخوف ضَلُّوا عن الطَّريق.

* والخوف ليس مقصوداً لذاته بل مقصود لغيره. والخوف المحمود الصَّادق: ما حال بين صاحبه ومحارم الله، فإِذا تجاوز ذلك خيف منه اليأْس والقنوط. وقال أَبو عثمان: صِدْق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً. وقال الأَنصاري: الخوف هو الانخلاع عن طمأْنينة الأَمن بمطالعة الخَبر يعنى الخروج من سكون الأَمن باستحضار ما أَخبر اللهُ به من الوعد والوعيد.

* وأَمّا التخويف من الله فهو الحَثُّ على التحرُّز. وعلى ذلك قوله تعالى: {ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ} ونهى الله تعالى عن مخافة الشيطان والمبالاة بتخويفه، فقال {إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ} أَي لا تأْتمروا للشيطان وأْتمروا لله تعالى . ويقال تخوّفناهم أَى تنقَّصناهم تنقُّصا اقتضاه الخوف منهم.

* وقوله: {وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي} فخوفه منهم أَلاَّ يراعوا الشريعة ولا يحفظوا نظام الدّين، لا أَن يرثوا ماله كما ظنَّه بعض الجهلة. فالقُنْيات الدّنيويّة أَخسُّ عند الأَنبياءِ من أَن يُشفقوا عليها.

* والخيفة: الحالة الَّتي عليها الإِنسان من الخوف. قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى} واستعمل استعمال الخوف. قال تعالى {والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ} وتخصيصُ لفظِ الخيفة تنبيه أَنَّ الخوف منهم حالة لازمة لا تفارقهم.

* والتخوّف: ظهور الخوف من الإِنسان. قال تعالى: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ} .

* وقد ورد في القرآن الخوف على خمسة وجوه:

الأَوّل: بمعنى القتل والهزيمة {وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمن أَوِ الخوف} {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف} أَي القتل.

الثَّاني: بمعنى الحرب والقتال {فَإِذَا ذَهَبَ الخوف سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} أَي إِذا انجلى الحرب {فَإِذَا جَآءَ الخوف رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ} أَي الحرب.

الثالث: بمعنى العلم والدّراية {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً} أَي عِلم {إِلاَّ أَن يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله} أَي يعلما {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى} أَي علمتم.

الرّابع: بمعنى النقص {أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ} أَي تنقُّص.

الخامس: بمعنى الرُّعب والخشية من العذاب والعقوبة {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً} .

* وفى مواضع كثيرة قُرِن الخوف في القرآن بـ "لا" النَّافية وبـ "لا" النَّاهية، نحو {لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ} {لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ} {لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى} {وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ} {لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون} {أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين} {لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى} {وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم} {فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً} {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} {أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ} .

بصيرة في الخشية

* وهى خوف يشوبه تعظيم. وأَكثر [ما يكون] ذلك عن علم بما يُخْشَى منه، ولذلك خُصّ العلماءُ بها في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء} وقوله {وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ} اي ليستشعروا خوفاً عن معرفة. وقولُه {وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} أَي لا تقتلوهم معتقدين لمخافة أَن يلحقهم إِملاق. وقوله: {لِمَنْ خَشِيَ العنت مِنْكُمْ} اي لمن خاف خوفاً اقتضاه معرفته بذلك عن نفسه. وقال تعالى: {فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس واخشون} .

* ومدح الله تعالى أهله {إِنَّ الذين هُم مِّنْ خَشْيةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ. والذين هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. والذين هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ. والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} وعند الإمام أحمد فى مسنده، وفى جامع الترمذى "عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ، أَهو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر؟ قال: لا يا ابنة الصّدّيق، ولكنه الرّجل يصلِّى ويصوم ويتصدّق ويخاف أَلاّ يُقبل منه". قال الحسن رحمه الله: عمِلوا لله بالطَّاعات واجتهدوا فيها وخافوا أَن تُرَدّ عليهم. إِنَّ المؤمن جمع إِيماناً وخشية، والمنافق جمع إِساءَة وأَمْناً. والخشية والخوف والوجَل والرّهبة أَلفاظ متقاربة غير مترادفة.

* فالخوف: تَوقُّع العقوبة على مجارى الأَنفاس، قاله جنَيد. وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكُّره المَخُوف. وقيل: الخوف هَرَب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

* والخشية أَخصّ من الخوف؛ فإِنَّ الخشية للعلماءِ بالله تعالى كما تقدّم. فهي خوف مقرون بمعرفة. قال النبي ﷺ "إِنِّي أَتقاكم لله وأَشدُّكم له خشية" فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإِنَّ الَّذى يرى العدوّ والسّيل ونحو ذلك له حالتان: إِحداهما حركة الهرب منه، وهى حالة الخوف، والثانية سكونه وقراره فى مكان لا يصل إِليه وهى الخَشْية، ومنه الخَشُّ: الشيء [الأَخشن] والمضاعف والمعتل أَخوان؛ كتقضَّى البازى وتقضَّض.

* وأَمّا الرّهبة فهي الإِمعان في الهرب من المكروه، وهى ضدّ الرَّغبة الَّتي هي سَفَر القلب في طلب المرغوب فيه. وبين الرّهب والهَرَب تناسب في اللفظ والمعنى يجمعهما الاشتقاق الأَوسط الَّذى هو عَقْد تقاليب الكلمة على معنى جامع.

* وأَمّا الوَجَلُ فَرَجَفَانُ القلب وانصداعُه لذكْر مَنْ يُخَافُ سلطانُه وعقوبته أَو لرؤيته.

* وأَمّا الهيبةُ فخوفٌ مقارِنٌ للتعظيم والإِجلال. وأَكثر ما يكون مع المحبة والإِجلال.

* فالخوف لعامّة المؤمنين، والخشية للعلماءِ العارفين، والهيبةُ للمحبّين، والوَجَل للمقرَّبين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخشية، كما قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم "إِني لأَعلمكم بالله وأَشدّكم له خشية" وقال: "لو تعلمون ما أَعلم لضحكتم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً، ولَمَا تلذَّذتم بالنِّساءِ على الفُرُش، ولخرجتم إِلى الصّعدات تجأَرون إِلى الله تعالى" فصاحب الخوف يلتجئ إِلى الهَرَب والإِمساك، وصاحب الخشية إِلى الاعتصام بالعلم، ومَثَلهما كَمَثل مَن لا علم له بالطِّب ومثل الطَّبيب الحاذق. فالأَوّل يلتجئ إِلى الحِمْية والهرب، والطَّبيب يلتجئ إِلى معرفته بالأَدْوية والأَدواءِ. وكلّ واحد إِذا خفته هَرَبت منه، إِلا الله، فإِنك إِذا خفته هربت إِليه. فالخائف هاربٌ من ربّه إِلى ربه.

اليقين

* اليَقِينُ من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، يقال: علم يَقِينٍ، ولا يقال: معرفة يَقِينٍ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم، وقال: عِلْمَ الْيَقِينِ [التكاثر/ ٥] ، وعَيْنَ الْيَقِينِ [التكاثر/ ٧] وحَقُّ الْيَقِينِ [الواقعة/ ٩٥]«٤» وبينها فروق ، يقال: اسْتَيْقَنَ وأَيْقَنَ، قال تعالى: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ [الجاثية/ ٣٢] ، وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ [الذاريات/ ٢٠] ، لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [البقرة/ ١١٨] وقوله عزّ وجلّ: وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً [النساء/ ١٥٧] أي: ما قتلوه قتلا تَيَقَّنُوهُ، بل إنما حكموا تخمينا ووهما.

* قال المحقِّقون: اليَقين من الإِيمان بمنزلة الرّوح من الجسد، وفيه تفاضَلَ العارِفون وتنافَسَ المتنافِسون، وإِليه شَمَّرَ العاملون، وعَمَلُ القومِ إِنَّما كان عليه، وإِشارتهم كلُّها إِليه. وإِذا تزوّج الصبرُ باليقين وُلِدَ بينهما حُصُول الأَمانةِ في الدِّين، قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} . وخصّ تعالى أَهلَ اليقين بانتفاعهم بالآيات والبراهين، قال وهو أَصدق القائلين {وَفِي الأرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ} ، وخصّ أَهل اليقين بالْهُدَى والفَلاح من بين العالمين فقال: {والذين يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ * أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون} وأَخبر عن أَهل النارِ بأَنهم لم يكونوا من أَهل اليقين فقال: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ والساعة لاَرَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} .

* فاليقين رُوح أَعمال القُلوب الَّتي هي أَرْواحُ أَعمال الجَوارح، وهو حقيقة الصِدّيقيّة، وقُطْبُ رَحَى هذا الشأْن الَّذى عليه مَدارُه، قال ﷺ: "لا تُرْضِيَنَ أَحَداً بسخط الله، ولا تَحْمَدَنّ أَحداً على فَضْلِ الله، ولا تَذُمَّنَّ أَحداً على ما لم يُؤتِكَ اللهُ، فإِنَّ رِزْقَ الله لا يَسُوقُه حِرْصَ حِرْيص، ولا يَرُدُّه عنك كَراهِيَةُ كارِه، فإِنَّ الله بَعْدِله وقِسْطِه جعل الرَّوْح والفَرَح في الرّضَا واليَقِين، وجعل الهَمَّ والحُزْنَ في الشَكِّ والسّخط".

* واليَقِينُ قَرِينُ التوكّل، ولهذا فُسِّر التوكُّل بقوّة اليقين. والصّواب أَنَّ التوكُّل ثمرةُ اليقين

ونتيجتُه، ولهذا حَسُنَ اقْتِران الهُدَى به، قال تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين} فالحقُّ هو اليَقِين. وقالت رسل الله: {وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} ، ومتى وَصَل اليقينُ إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفَى عنه كلُّ رَيْبٍ وشَكٍّ وسُخْط وغَمٍّ وهَمٍّ، وامتلأ محبّةَ الله وخَوْفاً منه ورِضاً به، وشُكراً له، وتوكُّلاً عليه، وإنابةً إليه، فهو مادَّة جميع المقامات، والحامل له.

* واخْتُلِفَ هل هو كَسْبِيٌّ أو مَوْهِبِيٌّ. فقيل: هو العِلْم المُسْتودَع في القُلوب، فيشير إلى إنَّه غيرُ كَسْبِّى.

* وقال سَهْلٌ: اليقين من زِيادة الإيمان، ولا رَيْب أَنّ الإيمان كسبي باعتبار أَسبابِه، موهبي باعتبار نفسه وذاته. وقال سهل أَيضا: ابتداؤه المُكاشَفَة كما قال بعض السلف: لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يقيناً.

* وقال أَبو بَكْرِ بنِ طاهِر: العلمُ يعارضه الشُّكوك، واليقين لا شَكَّ فيه. وعند القوم: اليقين لا يُساكِنُ قلباً فيه سُكُونٌ إلى غير الله.

* قال ذُو النُّون: اليقين يدعُو إلى قَصْرِ الأَمَل، وقَصْرُ الأَملِ يدعُو إلى الزُّهْد، والزُّهْدُ يُورِثُ الحكمةَ، وهى تُورث النَظَرَ في العَواقِب.

* وثلاثةٌ من أَعْلام اليقين: قِلَّةُ مُخالطة الناس في العِشْرَة؛ وتَرْكُ المدحِ لهم في العِطيَّة؛ والتَنَزُّه عن ذَمِّهم عند المنع. وثلاثةٌ من أَعلامه أَيضاً: النَّظر إليه في كل شيء؛ والرّجوع إليه في كلّ أَمر؛ والاستعانة به في كلّ حال.

* وقال الجُنَيْد رحمه الله: اليقينُ هو استقرارُ العِلْم الذى لا يَحُول ولا ينقلب ولا يتغيَّرُ في القَلْب.

* وقيل: اليَقِين هو المُكاشَفة، وهى على ثلاثة أَوجه: مكاشَفَةٌ بالأَخْبار، ومكاشَفَةٌ بإِظهار القُدْرَة، ومكاشَفَةُ القُلوب بحقائِق الإيمان. ومرادُ القَوْمِ بالمكاشَفَة ظهور الشَّيْءِ بالقلب بحيث تصير نِسْبَتُه إليه كنِسْبة المرئىّ إلى العين، فلا يَبْقَى معه شكٌّ ولا رَيْب أَصلا، وهذا نهايةُ الإيمان،

* وهو مَقامُ الإحسان.

* وقال أَبو بكرٍ الورّاق: اليقين مِلاكُ القَلْب، وبه كمالُ الإيمان. وباليَقِين عُرِفَ الله، وبالعقل

عُقِلَ عن الله.

* وقال النَّهْرجُورِيّ رحمه الله: إذا استكمل العبْد حقائِقَ اليقين صار البلاءُ عنده نِعْمة، والرّخاء مصيبة.

* وقال أَبو بكرٍ الورّاق رحمه الله: اليقين على ثلاثة أَوْجُه: يَقِينُ خَبَر، ويقين دَلالَة، ويقين مُشاهدة. يريد بيقين الخَبَر سُكُون القلب إِلى خَبَرِ المُخْبِر ووُثوقُه به؛ ويقين الدّلالة ما هو فوْقَه، وهو أَن يُقِيم له مع وثُوقِه بصدْقِهِ الأَدلَّةَ الدّالَّة على ما أخبر به، وهذا كعامة الأَخبار بالإِيمان والتوحيد في القرآن، فإِنَّه سبحانه مع كونه أَصدق القائلين الصّادقين يُقِيم لِعبادِه الأَدلَّةَ والبراهين على صِدْق أَخبارِه، فيحصل لهم اليقين من الوَجْهَيْن، من جهة الخَبرِ ومن جهة الدّليل، فيرتفعون من ذلك إِلى الدّرجة الثالثة وهى يقين المكاشفة بحيث المُخْبَرُ به كالمرئِى لعيونهم، فنِسْبَةَ الإِيمان بالغيب هي إِلى القلب كنسبة المرئى إِلى العين وهذا أَعلى أَنواع المُكاشَفة، وهى الَّتي أَشار إِليها عامر بن عبد القيس في قوله: لو كشف الغِطاءُ ما ازددت يَقينا. وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ولا من كلام علىّ بن أَبى طالب كرّم الله وجهه كما يظنه من لا عِلْمَ له بالمنقولات.

* واليَقِينُ يَحمِلُ على مُباشَرَة الأَهوال ورُكوب الأَخطار، وهو يأْمرُ بالتقدّم دائما، فإِن لم يقارِنْه العِلْم حَمَل على المعاطِب، والعلم يأْمرُ بالتأَّخُّر دائما وبالإِحِجام، فإِنْ لم يُصِبْه اليقينُ فقد [يَصُدّ صاحبه] عن المكاسب والغنائم.

درجات اليقين

* وهو على ثلاث درجات: علمُ اليَقِين: وهو ما ظَهَرَ من الحَقِّ، وقَبُول ما غابَ للحْقّ، والوُقُوف على ما قام بالحَقّ، فذكر رحمه الله ثلاثة أَشياء هي مُتَعَلَّق اليقين وأَركانه

الأَوّل: هو ما ظهر من الحقّ تعالى، والَّذى ظهر منه سبحانه أَوامرُه ونَواهِيه وشَرْعُه ودِينُه الَّذى ظهر لنا منه على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، فيتلقَّاه بالقَبول والانْقياد والإِذعان والتَّسْليم للرّبوبيّة، والدّخول تحت رقّ العبوديّة.

الثاني: قَبُولُ ما غابَ للحقِّ وهو الإِيمانُ بالغيب الَّذى أَخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رُسُلِهِ من

أَمورِ المَعاد وتَفاصيله، والجنَّة والنَّار، وما قبل ذلك من الصّراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك من تَشَقُّق السّماءِ وانفطارها وانتثار الكواكب ونَسْف الجبال وطَيِّ العالم، وما قبل ذلك من أَمور البَرْزَخ ونَعِيمه وعَذابه، فقبولُ هذا كلِّه تصديقاً وإِيماناً هو اليقين بحيث لا يُخالج القَلْبَ فيه شُبْهَةٌ ولا شكٌّ ولا رَيْب، ولا تَناس ولا غَفْلَة عنه، فإِنَّه إِن لم يستملك يَقِينَه أَفْسَدَه وأَضْعَفَه.

الثالث: الوقوف على ما قام بالحقِّ سبحانه من أَسمائه وصفاته وأَفعاله، وهو عِلْمُ التَّوحيد الَّذى أَساسهُ إِثبات الأَسماءِ والصّفات، وضدّه التَّعْطِيل والنَّفْىُ والتَّجْهِيم. فهذا التَّوحيد يقابله التَّعطيل. وأَما التوحيد القصدي الإِرادي الَّذى هو إِخلاص العمل لله وعبادته وحده فيقابله الشِّرك، والتعطيل شرّ من الشرك، فإِنَّ المعطل جاحِدٌ للذَّات أَو لكمالها، وهو جحد لحقيقة الإِلهية، فإِنَّ ذاتاً لا تسمعُ ولا تُبْصِر ولا تَتَكَلَّم ولا ترضَى ولا تَغْضَب ولا تَفْعَل شيئاً، وليست داخلَ العالَم ولا خارجه ولا متَّصِلَة بالعالَم ولا مُنْفَصِلَة ولا مُجانِبَة ولا مُباينة ولا فَوْقَ العَرْشِ ولا تَحْته ولا خَلْفَه ولا أَمامَه ولا عن يَمِينهِ ولا عن شِمالِه، سواءٌ والعَدَم. والمشرك مقرّ بالله وصفاته ولكن عنده معه غيره، فمُعَطِّل الذات والصّفات شَرٌّ منه. فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحَقِّ سبحانه من أَسمائه وصفاته ونُعُوتِ كَمالِه وتوحيده وهذه الثلاثة هي أَشرفُ عُلُوم الخلائِق، عِلْمُ الأَمْرِ والنَّهْيِ، وعِلْمُ الأَسماءِ والصّفات والتَّوْحِيد، وعِلْمُ المعَاد واليَوْم الآخر.

❋قال: الثانية: عين اليَقِين وهو المَغْنِيّ بالاسْتِدْراك عن الاسْتِدْلال، وعن الخَبَرِ بالعَيان، وخَرْق الشُّهود حجابَ العِلْم.

❋ والفَرْقُ بين عِلْم اليَقِين وعَيْن اليقين كالفَرْقِ بين الخَبَرَ الصادِق والعَيان، وحَقُّ اليَقين فَوْقَ هذا. وقد مُثِّلَت المراتب الثلاثة بمن أَخبرك [أَنَّ] عنده عَسَلاً وأَنت لا تَشُكَّ في صِدْقه، ثمَّ أَراك إِيّاه فازددت يقينا، ثم ذُقْت منه، فالأَوّل عِلْمُ يَقِين، والثاني عَيْنُ يَقِينٍ؛ والثالث حَقُّ يَقِين. فعِلْمُنا الآن بالجنَّة والنَّار عِلْمُ يَقينٍ، فإِذا أُزْلِفَتِ الجنَّة في المَوْقف وشاهَدَها الخلائِقُ، وبُرِّزت الجَحيم وعاينها الخلائِق، فذلك عَيْنُ اليَقين، فإِذا دخل أَهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأَهلُ النَّار النَّارَ فذلك هو حَق اليقين.

* وقوله المَغْنَيُّ بالاسْتدراك عن الاسْتدلال، يُريد بالاسْتدراك الإِدْراكَ والشُّهودَ، يعنى أَنَّ صاحبَه قد استغنَى به عن طَلَب الدّليل، فإِنَّه إِنَّما يَطْلُب الدَّليلَ ليحصلَ له العلَمُ بالمَدْلُول فإِذا كان المدلولُ مُشاهَداً له وقد أدركه بكَشْفه، فأَي حاجة به إلى الاستدلال؟ وهذا معنى الاستغناء عن الخَبَر بالعَيان.

وأَمّا قوله وخَرْق الشهود حجابَ العلم، فيريد به أَنَّ المعارف التي تحصُل لصاحب هذه الدرجة هي من الشُّهود الخارق لحجاب العلْم، فإِنَّ العلْم حجابٌ على المَشْهُود، ففي هذه الدّرجة يرتفع الحجابُ ويُفْضى إلى المعلوم بحيث يُكافحُ قَلْبَه وبَصيرَتَه.

ثمّ قال: والدّرجة الثالثة حَقُّ اليَقين، وهو إِسْفارُ صُبْح الكَشْف، ثم الخلاصُ من كُلْفَة اليَقين، ثم الفناءُ فى حَقّ اليقين. انتهى كلامه.

والحق إِنَّ هذه الدّرجة لا ينالها فى هذا العالم إِلاَّ الرّسلُ صلوات الله وسلامه عليهم، فإِنَّ نبيّنا ﷺ رأى بعينه الجنَّة والنَّار، ومُوَسى عليه السّلام سَمعَ كلامَ الله إِليه بلا واسطة وكَلَّمة تكليماً، وتجَلَّى للجبل وموسى ينظر فجَعَلَه دكّاً هشيماً، فحصل لهما حقُّ اليقين، وهو ذَوْقُ ما أَخبر به الرّسولُ من حقائق الإِيمان المتعلِّقة بالقلوب، وأَنَّ القلبَ إِذا باشرها وذاقَها صارت في حقِّه حَقَّ يقين. وأَمّا في أُمُور الآخرةَ والمعاد، ورُؤية الله جَهْرَةً عياناً، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة، فحظُّ المُؤمن منه في هذه الدّار الإِيمانُ به.

* وعلْمُ اليَقين وحَقُّ اليقين يتأَخَّر إِلى وقت اللِّقاءِ، لكنَّ السّالك عند القوم ينتهى إِلى الفناءِ ويتحقَّق شهود الحقيقة، ويصل إِلى عين الجمع.

قال: حقّ اليقين هو إِسفار صبح الكَشْف، يعنى تحقُّقه وثُبُوته وغَلَبَة نوره على ظُلْمَة ليل الحجاب، فينتقل من طَوْر العلم إِلى الاسْتِغْراق فى الفَناء عن الرّسْم بالكُلِّيَّة. وقولُه ثُمّ الخلاصُ من كلفة اليقين، يعنى أَنَّ اليقين له حقوق يجب على صاحبه أَن يؤدِّيَها ويقومَ به ويَتَحَمَّل كُلَفَها ومَشاقَّها، فإِذا فَنِيَ فى التَّوحيد حَصَل له أُمورٌ أُخرَى رفيعةٌ عالية جدّاً يصير فيها محمولاً بعد أَن كان حاملاً، وظاهراً بعد أَن كان ساتراً، فتزول عنه كلفةُ حَمْل تلك الحقوق. وهذا أَمْرٌ التَحاكُمُ

فيه إِلى الذَّوْق والإِحساس، فلا تَذْهَب إِلى إِنكاره، وتأَمَّلْ حالَ ذلك الصّحابىِّ الَّذى أَخذ تَمَرَاتٍ وقعد يَأْكُلها على حاجَةٍ وفاقَةٍ إِليها، فلمّا عايَنَ سُوقَ الشهادة قد قامت أَلْقَى قُوتَه منْ يَده وقال: إِنها لحياةٌ طويلة إِنْ بَقيتُ حَتَّى آكُل هذه التَّمرات وأَلْقَاها من يده، وقاتَلَ حتى قُتلَ، وكذلك أَحوال الصَّحابة رضى الله عنهم كانت مطابقةً لما أَشار إِليه. لكن بَقِيَتْ نُكتةٌ عظيمة، وهى مَوْضعُ السجدة، وهى أَنَّ فَناءَهم لم يكن في توحيد الرُّبُوبيَّة وشهود الحقيقة التي يشير إِليها أَرباب الفناءِ، بل في توحيد الإِلهيّة، فعَنوا بحُبّه تعالى عن حُبّ ما سواه، وبُمراده منهم عن مرادهم.. وحظوظهم، فلم يكونوا عاملين على فناءٍ ولا استغراق فى الشُّهود، بحيث فَنُوا به عن مُراد محبوبهم، بل فَنُوا بمُراده عن مُرادهم، فهم أَهل فَناءٍ في بَقاءٍ، وفَرْق في جَمْع، وكَثْرَة في وَحْدَة، وحقيقةٍ كَوْنِيَّة في حقيقة دينيَّة.

بصيرة في التسبيح

* وهو تنزيه الله تعالى. وأَصله المَرُّ السّريع في عبادة الله. وجُعِل ذلك في فعل الخير؛ كما جعل الإِبعاد في الشرّ، فقيل: أَبعده الله. وجعل التَّسبيح عامّاً في العبادات، قولاً كان، أَو فعلاً، أَو نيّة. وقوله – تعالى –: {فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين} قيل: من المصلِّين. والأَولى أَن يُحمل على ثلاثها

* والتَّسبيح ورد في القرآن على نحو من ثلاثين وجهاً. ستَّة منها للملائكة، وتسعة لنبينّا محمّد – ﷺ – وأَربعة لغيره من الأَنبياء، وثلاثة للحيوانات والجمادات، وثلاثة للمؤمنين خاصّة. وستَّة لجميع الموجودات.

* أَما الّتي للملائكة فدعوى جبريلَ في صفّ العبادة: {وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون}.

الثاني: دعوى الملائكة في حال الخصومة: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}.

الثالث: تسبيحهم الدّائم من غير سآمة: {يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ}.

الرابع: تسبيحهم المعرَّى عن الكسل، والفَتْرة: {يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ}.

الخامس: تسبيحهم المقترن بالسجدة: {وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}.

السادس: تسبيحهم مقترناً بتسبيح الرّعد على سبيل السياسة والهيبة {وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ

والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ} .

* وأَمّا التسعة الَّتي لنبيّنا محمّد ﷺ، فالأَول: تسبيح مقترن بسجدة اليقين، والعبادة: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين واعبد رَبَّكَ} .

الثاني: تسبيح فى طرفي النّهار، مقترنٌ بالاستغفار من الزلَّة: {واستغفر لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشي والإبكار} .

الثالث تسبيح في بطون الدياجر، والخلوة: {وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً} .

الرّابع تسبيح في الابتداءِ، والانتهاءِ، حال العبادة: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النجوم} .

الخامس تسبيح مقترن بالطُّلوع، والغروب لأَجل الشَّهادة {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} {وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السجود} .

السّادس تسبيح دائم لأَجل الرّضا والكرامة {فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى} .

السّابع: تسبيح مقترِن بذكر العظمة: {فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم} .

الثَّامن: تسبيح بشكر النعمة: {سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى} .

التَّاسع: تسبيح لطلب المغفرة: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره} قال ﷺ: "ما أُوحى إِلَيَّ أَن اجمعِ المال وكن من التّاجرين، ولكن أُوحى إِلى أَن سبّح بحمد ربّك وكن من السّاجدين، واعبد ربّك حتى يَأْتيك اليقين".

* وأَمّا الأَربعة التي للأَنبياءِ فالأَوّل لزكريّا علامةً على ولادة يحيى: {قَالَ رَبِّ اجعل لي آيَةً} إِلى قوله: {وَسَبِّحْ بالعشي والإبكار} .

الثَّاني: في وصيّته لقومه على محافظة وظيفة التسبيح: {فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً} .

الثالث: في موافقة الجبال، والظباءِ، والحيتان، والطيور لداود في التسبيح: {يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق} .

الرَّابع: في نجاة يونس من ظلمات البحر وبطن الحوت ببركة التسبيح {فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ

المسبحين} .

* وأمّا الثلاثة التي لخواصّ المؤمنين، فالأوّل في أمر الله تعالى لهم بالجمع بين الذكر والتسبيح دائماً: {اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} .

الثاني: في ثناءِ الحقّ تعالى على قوم إذا ذُكر الله عندهم سجدوا له وسبّحوا: {خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} .

الثالث: في أُناس يختلُون في المساجد. ويواظبون على التسبيح والذكر، {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ} .

* وأمّا الثلاثة الَّتي في الحيوانات، والجمادات، فالأوّل: في أَنَّ كلّ نوع من الموجودات مشتغِل بنوع من التسبيحات: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولاكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} .

الثاني : في أنَّ الطُّيور في الهواءِ مصطفَّة لأداءِ وِرْد التسبيح: {والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} .

الثَّالث: أنّ حَمَلة العرش والكرسي في حال الطواف بالعرش والكرسي مستغرقون في التسبيح والاستغفار: {الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ} ، {وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} .

* وأَمّا الستَّة الَّتي للعامّة فالأَوّل: على العموم في تسبيح الحقّ على الإِحياءِ والإِماتة: {سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض} إلى قوله: {يُحْيِي وَيُمِيتُ} .

الثاني: في أَنَّ كلّ شيء في تسبيح الحقّ على إخراج أَهل الكفر، وإزعاجهم {سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض} إلى قوله: {هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ} .

الثَّالث: أَنَّ الكلّ في التسبيح، ومَن خالف قوله فعله مستحِقّ للذمّ والشكاية: {سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات} إلى قوله: {لِمَ تَقُولُونَ ما لاَ تَفْعَلُونَ} .

الرّابع: في أَنَّ الكلّ في التسبيح للقدس والطَّهارة: {يُسَبِّحُ للَّهِ} إلى قوله: {المَلِكِ القُدُّوسِ} .

الخامس: في أَنَّ الكلّ في التسبيح على تحسين الخِلْقة والصّورة: {يُسَبِّحُ للَّهِ} إلى قوله: {وصَوَّرَكُمْ

{فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} .

السادس: في الملامة والتعيير من أَصحاب ذلك النسيان بعضِهم لبعض من جهة التقصير في تسبيح الحقّ - تعالى -: {أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ} .

الحادي والثلاثون: خاصّ بالنبيّ - ﷺ - في الأَمر بالجمع بين التوكُّل والتسبيح: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} .

بصيرة في الاستغفار

* وقد ورد على ثلاثة أَوجهٍ:

الأَوّل: بمعنى الرّجوع عن الشرك، والكفر: {فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً} ، {وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ} .

الثَّاني: بمعنى الصّلاة: {والمستغفرين بالأسحار} أَي المصلِّين.

الثالث: بمعنى طلب غفران الذنوب: {واستغفر لِذَنبِكَ} ، {استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} ، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره} . وفى الخبر "مَن أَكثر الاستغفار جعل الله له من كلّ همٍّ فرجاً، ومن كلّ ضيق مخرجاً" وفيه: "إِنِّي لأَستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرّة" وفى لفظ: "أكثر من مائة مرّة".

* والغَفْر لغةً: إلباس الشيء ما يصونُه عن الدّنس. ومنه قولهم: اغفِرْ ثوبك في الوِعاءِ. واصبغ ثوبك؛ فإِنَّه أَغفرُ للوَسَخ. والغُفْران والمَغْفِرة من الله: هو أَن يصون العبدَ من أَن يمسّه العذابُ. وقد يقال: غفر له إذا تجافى عنه في الظَّاهر، وإِن لم يتجاف عنه في الباطن؛ نحو {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله}

* والغَفْر: الستر. اللهُمّ غَفْرًا. والغُفْرَان والمَغْفِرَة من الله هو أَن يصون العَبْدَ مِن أَن يمسّه العذاب. وقد يقال: غفر له إذا تجاوز عنه في الظَّاهر وإِن لم يتجاوز في الباطن، نحو: {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله} .

* والاستغفار: طلب المغفرة قولاً وفعلاً. وقوله: {استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً} لم يؤْمَرُوا أَن

يسألوه ذلك باللسان فقط، بل به وبالفعل، فبدونه قول الكذّابين.

* وقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ} ، وقوله: {إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً} ، وقوله: {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} ، وقوله: {إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً} ، وقوله: {غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب} فيه من تأْميل الرّاجين، وتأْنِيس المذنبين ما لا يخفى.

* ومن دعاءِ الأَعراب: اللَّهُمّ أَسأَلك الغَفِيرة، والناقة الغزيرة، والعزّ في العشيرة قال:

كلّ الذنوب فإِنَّ الله يغفرها ... إِنْ شيَّع المرءَ إِخلاص وإِيمانُ

وكل كسر فإِن الله يجبرهُ ... وما لكسر قناة الدين جُبْرانُ

* واعلم أَنَّ كلّ أَحد - من عهد آدم إِلى يومنا هذا وإِلى يوم القيامة - من نبيٍّ ووليٍّ، ومؤْمن موقِن وصادق، وفاسق، وكافر ونافر، ومخلص، إِلاَّ وهو ينتظر بحقّه المغفرة. أَما ترى آدم عليه السّلام وابتهالَه وتضرّعه في سؤال الغفران في قوله: {رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا} . وقال شيخ المرسلين: {رَّبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ} وأَمَر قومه به: {فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ} . وقال هود لقومه: {ويا قوم استغفروا رَبَّكُمْ} . وقال صالح: {لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله} . وقال إِبراهيم: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي} وقال في حقّ نفسه: {والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي} . وإِخوة يُوسفَ سأَلوا وَالِدَهم أَن يستغفر لهم: {يا أبانا استغفر لَنَا} فوعدهم بقوله: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي} ، ويوسف بشرّهم بالمغفرة بقوله: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ} . سَحَرة فرعون كانوا في طلب المغفرة: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ} . موسى ساعة قَتْلِه القِبطىّ عرض هذه الحاجة فقال: {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي} ، ثم أَشرك أَخاه في دعائه فقال: {رَبِّ اغفر لِي وَلأَخِي} . داوُد رفع قصّة ضراعته في هذه الحاجة: {فاستغفر رَبَّهُ} فقوبلت قصته بإِجابته {فَغَفَرْنَا لَهُ} . سليمان افتتح سؤَاله قبل سؤال المُلْك بطلب المغفرة: {رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً} عيسى في عرَصات القيامة يُحِيل أُمَّتَه إِلى عالم المغفرة: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ} . سيّد المرسلين ومقصد الوجود وأُعجوبة العالَمَ أُمِر بطلبه له ولأُمَّتِه: {واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} فكانت المغفرة أَعظم هداياه من ربِّ العالمين: {لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ} .

عتاب الصدّيق من الله لم يكن إِلاَّ لأَجل المغفرة: {أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ} . شفاعة الملكِ الوهّاب إِلى عمر بن الخَطَّاب في قوم قد استوجبوا أَشدّ العقاب ما كانت [إِلاَّ] في المغفرة: {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله} . أَعظم حاجات عثمان في أَعقاب الصّلوات وخَتْم القرآن طلب المغفرة والرضوان: {وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} . والثناء على علي، من الملِك العليِّ، كان بهذا المُهمّ الجليّ: {والمستغفرين بالأسحار} .

* ثمّ إِنَّ الله تعالى نبّه على أَنَّ المشرك غيرُ أَهل للمغفرة فقال: {إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} . * دعوة سيّد المرسلين كانت بطمع طلبه المغفرة: {تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله} ، ثم عَرَّف بعدم معرفة الكافر قدر المغفرة: {سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} . ثمّ أَمر بالعفو والاستغفار، للأَخيار والأَبرار: {فاعف عَنْهُمْ واستغفر لَهُمْ} . حَمَلة العرش يتوسّلون إِلى الله بطلب المغفرة للمؤمنين من عباده: {الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ} إِلى قوله: {فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ} ، {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض} ، {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ} . تضرّع أَهل الإِيمان وانتهاؤُهم إِلى الرحمن في طلب الغفران: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ} . بشَّر عباده بأَعظم البُشْرى: {هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة} ، {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم}

بصيرة في الحمد والحميد

* الحمد: الثَّناءُ بالفضيلة، وهو أَخَصّ من المَدْح وأَعمّ من الشكر [فإِن المدح] يقال فيما يكون من الإِنسان باختياره وممّا يكون منه وفيه بالتَّسخير، فقد يُمْدَحُ الإِنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه، والحَمْدُ يكون في الثاني دون الأَوّل، والشكر لا يقال إِلاَّ في مقابلة نِعمة: فكلُّ شكر حمد وليس كلّ حمدٍ شكراً، وكلّ حَمْد مدحٌ وليس كلّ مدحٍ حمداً. وفلان محمود إِذا حُمِد، ومحمَّد إِذا كثرت خصالُه المحمودة، ومُحْمَد كمكْرَم إِذا وُجد محموداً.

* وقوله تعالى: {إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} يصحّ أَن يكون في معنى المحمود، وأَن يكون في معنى الحامد. وحُمادَاك أَن تفعل كذا أَي غايتك المحمودة.

* وقوله تعالى: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ} فأَحمد إِشارة إِلى النبي ﷺ باسمه [وفعله] تنبيهاً على أَنَّه كما وُجد أَحمَدَ يوجد وهو محمود في أَخلاقه وأَفعاله. وخُصّ بلفظ أَحمد فيما يبشِّر به عيسى عليه السّلام تنبيهاً أَنَّه أَحمد منه ومن الَّذين قبله.

* وقوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله} فمحمّد ههنا وإِن كان اسماً له علماً ففيه إِشارة إِلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه كما في قوله تعالى: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسمه يحيى} على معنى الحياة كما يبيّن في بابه إِن شاءَ الله.

❁ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ "

❁ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: بِأَخَرَةٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى، فَقَالَ: «كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ»

المحتويات

الفهرس

كلمة

قرآنية ذات معان